عناق عند جسرَ بُروكلين

رواية

عز الدين شكري فشير

www.mlazna.com
"RAYAHEEN"

www.mlazna.com-RAYAHEEN

عناق عند جسر بروكلين

سألتني بمرارة: فيم كنت أفكر حين عرضت عليها اللقاء؟ كيف سألقاها؟ كيف سأنظر إليها، وكيف نتعامل؟ هل أحتضنها أم نسلم بالأيدي كالغرباء، أم نقبل بعضنا على الخد كالأصدقاء؟ وماذا سنقول لبعض؟ سنتحدّث عن أسباب تواجدنا في نيويورك. سألقي عليها كيف وجدت منحة بإحدى المستشفيات هنا لمدة عام أوشك على الانتهاء، وستقول لي ما آتي بها. ستسألني عن أخباري في مصر، وأخبار سلمى، وسأسألها عن تطورات حياتها منذ رسالتها الأخيرة في العام الماضي؛ هل انتقلت لاستردام طالما كانت تتحفّظ، أم ظلّت في لندن طالما كانت تريد، وعصير بيتها الصغير. ثم نصمت، ونرتشف شيئًا من شرابنا، ربّما يقاطعنا النادل بسؤال، ثم نستأنف الصمت. هل ستسألني عن حياتي العاطفية؟ هل أسألها عن هذا اليوناني الذي ذكرته في رسالتها؟ لا، لا أريد أن أسمع شيئًا عن يونانيها أو عن غيره. هل ستتطرق للموضوع العقد؟ هل سنتحدّث عنا. عمّا جرى؟ لم نلتق وجهًا لوجه منذ كنا غارقين في الحب، منذ اتفقنا على أن تأتي في عيد الميلاد، وتقيم معي حتى ترتب أمورنا.

www.mizana.com-RAYAHEEN

عِناق عند جسر بُروكلين

رواية

عز الدين شكري فشير

دار العين للنشر

عناق عند جسر بُروكلين
(رواية)
عز الدين شكري فشير
الطبعة الأولى (٢٠١٢م - ١٤٣٣هـ)
حقوق الطبع محفوظة
دار العين للنشر
٣٣ شارع أيوب الجيزة - روض الفرج - القاهرة
تليفون: ٢٣٥٨٠٣٠٠ - فاكس: ٢٣٥٨٠٣٠٠
www.dar-alain.com
الهيئة الاستشارية للدار
أ.د. أحمد عتمان
أ. [illegible]
أ.د. فتحي الشرع
أ.د. فيصل يونس
أ.د. عبد المقصود إبراهيم
المدير العام
د. فاطمة البودي
الغلاف: حسن الكفراوي
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٢/٩٩٠٨
I.S.B.N 978-977-488-113-0

www.mlazna.com-RAYAHEEN

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

فشير، عز الدين ذكري

عداق حمة جسر أو الذين: رواية/ عز الدين ذكري فشير.

الإسكندرية: دار الدين للنشر، ٢٠١١

ص؛ سم.

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٠ ١١٧ ٠

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع/ ٩٥١١/ ٢٠١١

إلى أسماء

1

كتاب درويش

كلّ هذه السنوات مع مقعده الأثير، ولا يجد بعد جلسة تريحه. عيناه تؤلمانه. صفحات الكتاب تتماوج، وتتداخل كلماتها. قرّب درويش الساعة من عينيه، وضبّطهما كي يرى: "الخامسة... أمامي ثلاث ساعات حتى يصل المدعوون". يوسف يصل في السابعة. تذكّره أن يأخذ الثروة، فالطرق مزدحمة، ولو أتى بتاكسي كعادته سيتأخر. بدا على يوسف أنه تضايق من الملاحظة، لم يفهم لم تضايق ابنه. فهو يحتاج وجوده بالبيت قبل المدعوين بساعة على الأقل. كان من المفروض أن يأتي في الصباح لمساعدة كيتي في الإعداد لعيد الميلاد، والإشراف على ما تفعله، ثم الصعود بالأمس، وقال إنه يريد أن يرى بعض زملائه القدامى بنيويورك، ومن

www.miazna.com-RAYAHEEN

ثم سيتابع التحضيرات مع كيتي بالتليفون ويأتي في السابعة. يتابع معها بالتليفون! هذا لو تذكّر أن يشحن تليفونه! لا ضير إذن في تذكيره بأنّ يأتي بالثلج فهو يحتاج أن يراه قبل وصول المدعوين. باقي ثلاث ساعات على وصول المدعوين، ويبدو أن كيتي تقوم بعمل طيب. مرّ عليها بالدور الأرضي منذ ساعة، وتأكّد من سيطرتها على الأوضاع. خرجت بعدها لشراء بعض الأشياء. باقي ثلاث ساعات، وهو وقت لا يكفي للقيام بعمل ذي قيمة، كالكتابة. حاول تمضية الوقت في القراءة، لكن عينيه تؤلمانه. شعر بالحسرة على ضياع هذه الساعات هباء في حين لن يجد الوقت بعد ذلك لإنهاء ما يجب عليه فعله. لم لم يخترع أحد أداة لتحميل الوقت الزائد – مثل هذه الساعات الثلاثة – ثم توزيعها بعد ذلك حين يحتاج المرء الوقت ولا يجده؟

سيصل المدعوون البيت في الثامنة، ولن ينصرفوا قبل الحادية عشرة والنصف. المثير للسخرية في الأمر كلّه أن سلمى، ضيفة الشرف، لن تأتي! تأخرت هي الأخرى، ثم أخطأت القطار وفوتته، والآن ستأتي في منتصف الليل بعد انصراف الجميع. أيّ أبناء هؤلاء؟ يسأل نفسه، للمرة الألف، أين أخطأ في تربيتهم. أم أنها الجينات؟ و لم يهتم لهذه الدرجة؟ لم يهتم لهذه الدرجة؟ إن كانت هذه طبيعتهم فلم لا يتركهم في حالهم؟ لماذا لا يتركهم يصبحون ما يريدون؟ قومًا يتأخرون على مواعيدهم، تفوتهم القطارات، ويعيشون في الفوضى؟ لم لا يتركهم في سعادة الجهل وراحة الفشل؟ لن يمكث يوسف طويلاً – سيغادر في الصباح، فلا داعي للتنكيد عليه بمسألة التأخير. دع الأمور تمر بسلام. ونفس الشيء بالنسبة لسلمى. هذه أيامها

الأخيرة بنيويورك ولن تراها ثانية، فدعها تحتفظ بذكرى طيبة. قال لنفسه هذا، وعزم. والآن ماذا يفعل بهذه الساعات الثلاث؟ عليه إنهاء مشروع الكتاب وتسليمه قبل نهاية الأسبوع، وهو مازال بحاجة لبعض التفكير، وكلٍ من الكتابة، ولكنّ عليه أيضًا فرز كتبه قبل أن يأتي الخمّالون. ففي نهاية الشهر، أيّ في أقل من أسبوعين، يجب أن يُخلي البيت.

وضع الكتاب جانبًا، وقرر التوقف عن محاولة القراءة. خلع النظارة ووضعها على المنضدة. طلب منه الطبيب عدم معاندة عينيه، فالألم إشارة للتوقف. عاد للتفكير. لماذا لم تأت سلمى في قطار الصباح؟ تلك الحمقاء الصغيرة! تعرف أنه رتّب هذه الحفلة من أجلها. سيصل المدعوون في الثامنة، وسيستغرق السلام والسؤال وغيره نصف ساعة. ثم تضع كيتي الطعام في الثامنة والنصف، وهو موعد متأخر بالنسبة لأمعائه المتصلّبة. عادةً يكتفي ببعض الزيادي، لكن ليس من اللطف ألا يتعشّى مع ضيوفه. طبعًا لا، سيأكل معهم، ثم يبقى مستيقظًا حتى الواحدة صباحًا، كي يهضم الطعام. ويعني هذا أنه لن ينال ما يكفيه من النوم إلا لو نام حتى التاسعة صباحًا، وهو الأمر المستحيل، فلديه موعد في الثامنة والنصف مع المحامي. شعر بالخنق على نفسه: لم تورط في هذه الدعوة أصلاً؟ ألم يكن من الممكن أن يدعوهم الغداء في نهاية الأسبوع بدلاً من ذلك؟ لكن كيتي لم تكن متاحة خلال نهاية الأسبوع، كما أن الحمقاء الصغيرة أرادت زيارة واشنطن قبل عودتها لمصر. لا بأس، حدث ماحدث؛ وسيستيقظ في السابعة، ويقضي اليوم ناقص نوم ومتوترًا. لا يُوجد حل آخر.

لن يستطيع القراءة أو الكتابة أو فعل أيّ شيء ذي معنى خلال هذه

الساعات الثلاث. خطر بباله أن يقرز المكتبة القديمة. يمكنه قضاء هذه الساعات في قرز الكتب حتى يظهر يوسف، ثم يجلس معه قليلاً، ويستمع لأخباره حتى يأتي الغيوف. سيقرز المكتبة القديمة. لو كان الأمر بيده لأخذ كلّ كتبه إلى الشاليه الذي سينتقل إليه، لكنّه أصغر من أن يستوعبها. يعرف أنه لن يحتاج أيًا منها، لكنّها كتبه القديمة، ولها في قلبه معزة خاصة. اتفق مع المكتب العقاري على إضافة عدد من الأرفف لجدران الشاليه، ولكنّ حتى مع الإضافات فلن يتسع الشاليه لكلّ هذه الكتب.

حسبوا له المساحة وعدد كتبه بالضبط، وأخبروه بضرورة التخلص من ثلاثة آلاف كتاب. قرز كتبه الجامعية الأسبوع الماضي؛ جمع منها ألفًا، ومنحها لأعضاء الطلبة؛ ليملؤوا بها رفوف صالون الدراسات العليا. لن يقرؤوا أيًا منها، لكن وضع بعض الكتب بالصالون أفضل من ترك الرفوف فارغة، أو ملئها بأوراق التصوير التي يخلفها الطلبة. عليه التخلّص من ألفي كتاب آخرين هذا الأسبوع. لا يستطيع منح أيًا منها للجامعة، أو لأعضاء الطلاب، أو لأيّ جهة في الولايات المتحدة كلها، فمعظمها كتب بالعربية، وقيمتها العلمية محدودة – لهذا وضعها في أكثر أماكن المكتبة خصوصية. هذه هي الكتب التي اشتراها وهو شاب، بعضها مقتطفات ساذجة في الشرح والرسم والبحث لكتاب تهوّلون نقلوها عن كتب أجنبية، وطبعتها دور النشر التي كانت تملكها الدولة في الستينات، وبعضها كتب عامة في نقد المجتمع كتبها صحفيون لا فهم لديهم لا بالنقد ولا بالمجتمعات، وبعضها مجموعات من القصائد لشعراء اندثروا، وربما

لم يكن لهم جمهور أصلاً. اشترى معظم هذه الكتب وهو في المدرسة الثانوية وأول سنوات الجامعة. هناك كتب أخرى اشتراها أثناء إعداد رسالة الدكتوراة وبداية عهده بالتدريس، أيام جامعة القاهرة. لكن قيمة كلّ هذه الكتب تتعلّق بدورها في حياته هو، وهو أمر لا يهم أحدًا غيره.

استغرب كلّ من يوسف وليلى قراره بيع البيت. سأله يوسف عن سر هذا القرار الفاجع. مرةً – عاوله تفادي السؤال – إنّها هديته لنفسه في عيد ميلاده السبعين. لكن يوسف تجاوز هذه الإجابة التي ليست بإجابة، وسأله عمّا إذا كان يعتقد الانتقال ليبت للسنين. فضحك نصف ضحكة، وقال له: "على جثتك" ثم غيّر الموضوع. انتقل بليلى في مصر كي يخبرها، فسألته بحدة إن كان يحتاج للمال. تفادى سؤالها، فهو لا يريد مناقشات تنغص عليه. قال إن ملّ من البيت. احتجت بأنّ هذا البيت هو المكان الوحيد الذي لهم به ذكريات مشتركة، فرد مرة أخرى بأنه ملّ من البيت، ثم أدرك أنه يُكرّر مقالته، فأضاف أن الذكريات سترحل معهم أينما ذهبوا. لم تُبد ليلى تعاطفًا ولو زائفًا، بل قالت بضيق إنها لا تحب ذلك القرار، وكانت تُفضّل لو ترك البيت على حاله، فسألها بحدة عمّا كانت ستفعل ببيت الذكريات هذا، وما إذا كانت تنوي أن تعيش فيه يومًا – هي التي لم تأت لزيارته منذ سنين.

ردت ليلى بشيء، وردّ عليها بشيء آخر، وتوجّهت الناقشة نحو مصيرها المحتوم: عدم تفاهم وغضب مكظوم من الجانبين. غيّر الموضوع، وخوت الموضوع وأنهيا المكالمة بحديث عن لقاء قريب لا يعلم أيّهما متى سيتم ولا أين. يوسف، بعد أن سأل عدة أسئلة و لم يتلقّ إجابة واضحة من

أبيه، قرر أن يأتي لزيارة أخيرة للبيت، وأيضًا ليرى سلمى ابنة أخته. "الآن تذكر أنها في نيويورك، بعد ثلاثة أسابيع من وصولها!" رحب درويش بالفكرة، لكن دون حماس حقيقي، فهو لا يعرف ماذا يفعل بابنه حين يأتي. بلوة يوسف بالصمت معظم الوقت، ويرة بالقضاب على أسنانه الثلاثة حتى يستسلم الأب ويكف. ثم يحل الصمت بينهما. يقضي يوسف بقية الوقت في التنقل بين أرجاء المنزل الواسع، يشاهد التليفزيون أحيانًا أو يعمل على كمبيوتره، حتى يحين موعد رحيله. كان يفعل هذا وهو في الثالثة من عمره – حين انفصل عن أمه – ولا يزال يفعل هذا بعد مرور أربعين عامًا على ذلك. سأله يوسف إن كان يريد شيئًا من مونتريال، فطلب أن يأتيه ببعض البصل؛ لم يعرف ماذا يمكن أن يطلب منه غير ذلك.

حاول إعطاءه كتبه القديمة. قال له في التليفون إن لديه ألفين من الكتب الزائدة، وسأله عرضًا إن كان يريدها. ضحك يوسف وشكره، ثم أبدى استعداده لتخزينها في بدروم منزله. وقف درويش يتأمل رفوف المكتبة القديمة. أول مرة ينظر لهذه الكتب منذ سنوات. مرّ بجوارها مئات المرات ينظر إليها ولا يراها. صعب عليه أن ينظر لهذه الكتب ويقرر التخلص منها، كأنه يلقي بأجزاء من نفسه. هذه هي الكتب التي ساهمت في تشكيله، في جعله من هو، أو بالأدق من كان وهو في ثلاثينياته، قبل أن يأتي للولايات المتحدة. تساءل فجأة إن كان قد تغير بعد ذلك؟ يعرف أنه تغير، لكنه يتساءل إن كان قد راجع نفسه بعد هذه المرحلة من حياته، أم أنه قلب الصفحة دون مراجعة لما تغير فيه، ومضى قدمًا مطمئنًا وضع

الكتب في مكتبة خلفية لا يراها حتى حين تقع عليها عيناه؟

واصل قرز الكتب وهو يفكر؛ لماذا لم يشرح لأبنائه سبب بيعه البيت؟ لماذا لم يقل لهم إنه يرتب أموره قبل الرحيل الأخير؟ "سرطان متقدم بالرئة"، هذا ما قاله فريق الأطباء. حين رفض العلاج الكيميائي أخبره الدكتور بصراحة أنه لن يعيش طويلاً بدونه، ربما عامًا أو اثنين. رد عليه بأنّ عامين بدون علاج كيميائي خير من خمسة به. تزمّ الطبيب من عناده، وأوضح له أن نمط حياته الحالي لن يجعله يصمد عامين دون علاج كيميائي. قال إنه مستعد لتغيير نمط حياته، لكنه لن يقبل بالعلاج الكيميائي. شرح له طبيبه أن ذلك يعني اعتزال التدريس، والتوقف عن قراءة الصحف ومتابعة الأخبار، والانتقال للعيش في شمال الولاية حيث الهواء والماء والطعام أفضل وأكثر صحية. لن يتوقف السرطان عن الاستشراء، لكن سرعة تغلغله في الرئتين ستقل. لم يأخذ الأمر من درويش كثير تفكير، فطيلة عمره وهو يحلم بالسكن في منزل صغير منعزل في الغابة، حيث الهواء النقي والخضرة والماء، والأهم من ذلك حيث يمكنه الانعزال عن البشر. وافق من حيث المبدأ، وبعد أسبوع اتصل به الكتب العطاري وأخبره أنه وجد ما يناسبه؛ شاليه يُطل على بحيرة متوسطة الحجم في المنطقة الجبلية الواقعة في شمال شرق ولاية نيويورك والقاخمة لولاية فيرمونت، ليس بعيدًا عن مدينة سيراكيوز التي تضم مستشفى متقدمة يمكنه متابعة حالته بها. ذهب في زيارة سريعة للمكان. هناك، وجد أن الشاليه يطلّ مباشرة على البحيرة، وتحيطه أشجار باسقة وخضرة كثيفة من الجانبين بحيث لا يبدو منه أي بناء آخر على مدى البصر. اتخذ قراره وهو واقف أمام الشاليه ينظر لسطح البحيرة.

www.miazna.com-RAYAHEEN

كان التوقيت سيئًا، فالفصل الدراسي على وشك البدء، ومن غير اللائق أن يترك التدريس فجأة هكذا، لكنّه فعل. فوجيء رئيس القسم – الذي كان تلميذ درويش منذ خمسة وعشرين عامًا – بقراره، فلم يكن في سلوك أستاذه القديم ما يُوحي بمثله التقاعد. بل على العكس، كان منهمكًا في مشروعات تطوير القسم، ويقود فريق البحث الذي فاده عبر سنوات طويلة بمنح التصميم. لم يشرح السبب في رحيله مكتفيًا بالتصميم عوضًا عن التفسير. حاول رئيس القسم إثناءه لكن درويش لم يترك له مساحة للتفاوض، وهكذا، في خلال أيام معدودة، بعد ثلاث أو أربع مناقشات مع مسئولي الجامعة العريقة، أنهى الدكتور "درويش بشير" مسيرة نصف قرن من الحياة الأكاديمية المتميزة. في الأسابيع التالية صفى بقية ارتباطاته في نيويورك، وباع المنزل، وبدأ يُخطط لحياته الجديدة التي أوصاه الأطباء بأنْ تكون أبسط وأقل تعقيدًا.

لماذا لم يقل أي من هذا ليوسف أو ليلى؟ لماذا لم يقل هذا لرميله وتلميذه القديم؟ لماذا لم يقل هذا لأي من معارفه؟ لم يقل لأحد لأنّه لا يريد دراما. يكره الدراما، ويكره أكثر تحميل الضحية عبء التعاطف مع مصابه. لماذا يعني أن يقف أمامك شخص ما ليبدي الأسف على مصيرك؟ مَن يقبلك هذا؟ وما المفروض أن تفعله أنت صاحب المأساة: أن تخفف عنه أسفه؟ لا، شكرًا، لا يريد أيًا من هذا. لا يريد عرضًا لعواطف الناس الذين يعرفونه، صادقة كانت أو ملتبسة. لا يريد إفساد أيامه الأخيرة؛ نصحه الأطباء بتفادي ما يُضايقه، وهذا التعاطف يضايقه. الحقيقة أنه لا يرى كارثة في دنو أجله بل على العكس، شعر براحة عندما أخبره الأطباء،

بذلك، وظلّ يكبت الابتسامة التي تحاول احتلال وجهه حتى انصرف من عندهم. أراد له القدر أن ينتصر حتى النهاية، حتى على الموت. من المفروض أن يأتيك الموت بغتة، لكنّه الآن يعلم بقدومه. تظاهر بالعبوس لأنّ هذا هو ما يجب فعله في تلك المواقف، لكنه شعر بخفة لم يعهدها، كأنّ عبئًا ثقيلاً حلّ من على كتفه.

يدرك أن رحيله لن يكون له أثر يُذكر. سيموت مثل من ماتوا، سيذكره من يحبونه بود، وسيذكره الآخرون مثلما نشاء لهم أهواؤهم. لا يعنيه من ذلك شيئًا. سيموت مثل كلّ البشر، ليس في هذا ما يفاجئه. درويش في السبعين، ويرى أنها نعمة أن يعرف كم تبقى له من الوقت. فهي فرصة لترتيب أموره الأخيرة بيده، وكذلك لفعل ما نسيه أو تكاسل عنه. من الآن فصاعدًا لن يفعل شيئًا لا يحبه، لن يجامل أحدًا، ولن يتحمّل أحدًا، ولن يقضي وقتًا مع أناس لا يحبهم، ولن يلجأ لحلول وسط أو يخطط لمستقبل بعيد. لم يعد هناك مستقبل بعيد. وسيقوم بكل الأمور التي أجّلها: الحياة في منزل منعزل على بحيرة في غابة أو جبل، قراءة الكتب التي لم يتح له الوقت لقراءتها، وكتابة الكتاب الذي أراد دومًا كتابته عن مستقبل العرب. عاش حياته يدرس تاريخ العرب ويحلم بالكتابة عن مستقبلهم ولا يفعل شيئًا. لم يعد هناك داعٍ للتحسّب. وهاهو يعمل على مشروع الكتاب، وسيلقي بالناشر في أول الأسبوع القادم للاتفاق معه على التفاصيل، ثم يبدأ الكتابة حين يستقر بالشاليه.

اتصل بليلى في القاهرة، وأرغمها على إرسال سلمى لقضاء شهر معه. حاول في البداية دفعها هي للمجيء لزيارته لكنّها رفضت بشدة،

مثلما رفضت طيلة الأعوام الماضية. فشل في إقناعها بالمجيء، لكنه نجح في إرغامها على إرسال سلمى. جاء بالبنت كي يراها مرةً أخيرة قبل موته، وكي يخرجها من المُعتقل الذي تحبسها فيه أنّها المتوحدة، يتيح الفرصة لها لترى الحياة بعيدًا عن الأغلال التي تُقيّد العقل والروح في مصر. من يدري، رُبّما يقربها الأمر باستكمال دراستها والاستقرار هنا فيما بعد، والنجاة من المستقبل البائس الذي تعدّه لها أمها. وعندما قال يوسف أنه آت للزيارة قرر ترتيب حفلة عيد الميلاد هذه، ودعى بعض الأصدقاء والمقرّبين. قرر دعوة كلّ من يمتّ له بصلة في أمريكا، كي يروا سلمى، وكي يرغم نفسه أخيرة قبل موته ويُرتّب معهم بعض الأمور العملية. يريد أن يمنح مالاً لبعضهم، وأنْ يساعد بعضهم في عمله، وأنْ يودّعهم، على الأقل من ناحيته هو. وفي الثامنة والنصف صباحًا سيرى سلمى، ويضع كلّ ذلك على الورق في وصيته، ويرتّب أمور الجنازة والدفن. وبعد ذلك ينتقل للشاليه، ويتفرّغ لكتابة كتابه الأخير.

كان بودّ الاحتفاظ بكيتي، لكن تعذّر ذلك. فرتّب للكلب العقاري له سيدة تعتني بالشاليه، وتعد الطعام، وتتولّى شراء ما يحتاج. وتمكنها أيضًا أن تقود السيارة حتى سراكيوز، حين يصبح من الصعب عليه القيادة بنفسه. اشترى قاربًا صغيرًا: يحلم بالجلوس والتأمل وسط سكون البحيرة دون حركة أو صوت، غير انكسار الأمواج الصغيرة على حافة القارب، ربّما تعلّم الصيد. اشترى شاشة التليفزيون والستاعات الضخمة التي رفض شرائها منذ سنوات لفُحش ثمنها، كما اشترى سيارة نصف نقل

تُناسب المناطق المحيطة بالشاليه. كلّ شيء أصبح جاهزًا للانتقال، عليه فقط فرز الكتب.

حين وقعت عينه على كتاب تاريخ الشعوب العربية لألبرت حوراني لم يتعرف عليه. ظلّ ينظر له للحظات غير متذكّر من أين أتى، أو ماذا كان موضوعه. وفي لحظة واحدة شعر وكأنه ارتد أربعين عامًا للوراء، وحضرت أمامه جين وربّما وزينب وكأنهنّ وافقات معه ببيروت للاحتفال في أزمنة ثلاث، ثم ارتفع عليه الأمر كلّه، وبدأ يشعر بدوار سريع. مدّ يده يمسك بالمكتبة تاركًا الكتاب يهوي إلى الأرض، لكن الدوّار لم يتوقف. يعرف هذا الدوار جيدًا، لن يتوقف الآن. حاول الجلوس شيئًا فشيئًا على الأرض، لكن الدوار كان أقوى منه. فقد توازنه، حاول التشبث بالمكتبة وهو يسقط على السجادة الصوف الممتدة على خشب الأرضية. انتظر لحظة وهو ممدّد على السجادة، ثم بدأ يُحرّك أطرافه. كلّ شيء يبدو في مكانه: لم يتحطّم شيء منه بعد. زحف ببطء نحو المكتبة، واستند بظهره إليها، وظلّ جالسًا يلتقط أنفاسه. خال بخاطره أنه أحسن صنعًا حين أصرّ أن تكون الأرضية من الخشب؛ فلو وافق زينب، ووضع سيراميك بدلاً منه لكانت عظامه قد تهشّمت. يأتيه هذا الدوار كثيرًا، ولم يفلح طبيب واحد في علاجه. قالوا له إن ضغط دمه ينخفض فجأة لكنهم لا يعرفون لماذا؟! ما فائدة الطب الذي يشرح لك دائمًا مرضك دون أن يفلح في علاجه!

استقرّ على السجادة. خال بنظره في غرفة المكتبة ورفوفها الخشبية البنية اللون المحكمة الأناقة. ستارة بيضاء رقيقة تتسدل أمام النافذة

العريضة وشجر الشارع يبدو من خلفها. لا صوت يصل للغرفة بفضل ازدواج زجاج النافذة. السقف به عروق خشبية من نفس لون المكتبة. لا أثر لطبقة تراب واحدة على أي من الكتب. "أحسنت يا كيتي!" نظر للكتاب الملقى على الأرض بالقرب منه. من أين طلع هذا الكتاب بعد كلّ تلك السنوات؟ كيف كان هنا طوال الوقت ولم ألحظه؟ خفّت الدوخة شيئًا فشيئًا، فتحرّك على أربع حتى وصل للكتاب، وأمسك به، وعاد ثانية يستند بظهره للمكتبة. قلّب في صفحات كتاب حوراني وهو يبتسم. "كيف نسيت هذا الكتاب؟ هذا الذي كان أهمّ شيء في حياتي في وقت من الأوقات؟" اشتراه من لندن، ليس رغبةً منه في تعلم تاريخ العرب، فهذا هو تخصّصه، وإنّما كهدية لصديقته البريطانية جين. فهو سهل القراءة، ويمكن أن يكون مدخلاً جيدًا لمن لا يعرف تاريخ العرب، ويرغب في تعلم الكثير من خلال كتاب واحد. يبدأ الكتاب بنبذة عن ظهور الإسلام وتعاليمه، ثم يشرح تاريخ انتشاره خارج الجزيرة العربية، ويعطي الراحل المختلفة للمجتمعات والسياسة العربية وصولاً إلى العصر الحديث، وكلّ ذلك في بضع مئات من الصفحات. أعدادٌ لها مبالغًا بأنها ستجد فيه الحلّ الشافي لجهلها المطبق.

التقى بجين في القاهرة وليس في لندن رغم أنه قضى خمس سنوات لإعداد درجة الدكتوراة هناك، وكانا يجدان في ذلك الأمر متنفّسًا للدعابة مع أصدقائهم القليلين. جين جميلة ورقيقة، طويلة، شعرها الكستنائي مُنسدل على كتفيها ما لم تجمعه وتربطه بما تقع عليه يدها – في الأغلب قلم رصاص – وطبية الخلق. جاءت إلى القاهرة في منحة تدريبية لمدة عام

لتعلم اللغة العربية فازت بها في مسابقة ما، ثم أحبّت المدينة وقرّرتها فاستقرت بها. تعارفا وتقاربا حتى صارت شبه مقيمة معه بشقّته بالجزيرة خلف حديقة الحيوان. راودته فكرة الزواج منها منذ بداية تعارفهما؛ فجين تجمع كثير من المواصفات التي يبحث عنها. سافر معها لبريطانيا وزارا والديها المقيمين في إحدى ضواحي جلاسجو، سارا سويًا في البرية عند النهر الذي كانت تلعب حوله وهي صبية، ونظرا للمراعي الممتدّة إلى ما يبدو وكأنّه لانهاية. أخذته لبار الضاحية حيث كان الشباب الصاخب يعاكسها وهي مراهقة، والتقيا بجيرانها الذين أثروا "المشاهدة المصري الذي أحضرته جين". في كلّ ذلك كان يشعر أنها المرأة التي يبحث عنها طيلة حياته. لكن شيئًا فيها كان يُثير قلقه، ومن ثم لم يُعرفها على ليلى أو يوسف حتى يحسم أمر علاقتهما.

جين طيبة ومستقيمة الخلق، لكن علاقتهما عصر مرتبكة. خرجت له في لقائهما الأول كيف أحبّت طيبة المصريين، وحرارة العلاقات الإنسانية بينهم، ووجدت فيهم ما كانت تفتقده طيلة حياتها في بريطانيا. ضحك في أعماقه؛ فهو شخصيًا يحب برودة الإنجليز وتباعدهم، ويجد في احترامهم لخصوصية بعضهم البعض ما يفتقده في حياته بمصر. وجدا نفسيهما في وضع معكوس: هو يفتقد الناس والحياة في مصر وهي تدافع! "نعم هذه تكلّفٌ، من الناحية القانونية تكذب، لكنّها ليست كذبة حقيقية"، و"هذا ليس ضعفًا، بل تعطّل"، "لا، هذا السلوك ليس عاديًا، بل نوع من العرفان"، و"لطفًا ليس هذا سلوكًا طبيعيًا، لكن اختلاف في رؤية الأدوار والمسئوليات". لم يتقبّل أيًا من تفسيراتها، لم يتقبّل أبدًا أن تكون للحياة في

العالم العربي قواعد مختلفة. العرب ليسوا طائفة شاذّة من البشر، وقواعد الأخلاق العامة تنطبق عليهم مثل غيرهم. أما القول بغير ذلك فهو نوع من التعالي للتستّر في شكل تعاطف.

أنّ تقبل الكذب من العرب وترفضه من غيرهم معناه أنك ترى فيهم نقيصة أساسية تُبيح لهم ما يُحرّم على الناس الطبيعية، كأنّهم يحملون شهادة جنون. قال لها ذلك مرارًا، وأصبح تعاطفها مع نقائص الناس في مصر وأخطائهم يستفزّه. طلب منها أن تقرأ تاريخ هؤلاء الناس كي تفهم أنهم ككافة البشر، وأنّ نعرف كيف وصل الحال بهم لما هم عليه، وكي تتأكد بنفسها أن الخلل ليس في تشجيعهم على التخلف، بل العكس حاسبتهم كناضجين ومسئولين؛ كي لا يستسهلوا ويستسيغوا هذا التخلف. قالت إنها لا تجد الوقت للتبحّر في التاريخ مثله، ومن هنا جاء ألبرت حوراني. أعطاها الكتاب وأبدت سعادتها به. قرأت فيه ثم تركته سريعًا، وقالت إنه ممل، وإنها تفضل التعلّم من خلال ملاحظة الناس.

لكنّها لم تتعلّم من خلال ملاحظة الناس، بل ازدادت أكثر فيما كان يراه تقصيًا لدور السائحة البلهاء. قالت له إن المشكلة تكمن في تفكيره الذي يحول بينه وبين فهم التعقيدات المصرية. فاحتجّ بأنه هو ابن البلد، ولكنّه يميز بين التعقيدات وبين سوء الأخلاق، وأنّ الناس في مصر يحتاجون لإعادة تربية، ربّما بسبب الجهل أو الفقر أو سوء التعليم، ولكنّ الحصيلة واحدة وهي وجود تدهور عام في الأخلاق. قالت له إنه ضحية تعليمه الغربي، وإن السذاجة الأنجلوساكسونية التي تفتقصها هي التي تفترض خطأ إمكانية إصلاح سلوك الناس بقوّة الحجة ومناشدة الضمير، وذلك ما

يجعله يصطدم بالناس طيلة الوقت، لأنّه يعظ ولا يتفهّم.

ضحك وسألها ساخرًا إن كانت هذه تهمًا أم مزايا. احمرّ وجهها من سخريته، وضربت له مثلاً بموظف الجوازات الذي ظلّ يماطل في إنهاء أوراق تأشيرتها حتى غمزته هي بخمسين جنيهًا. احتجّ وانتهاء، وسلّم أن هذه الرشوة الصغيرة مُساهمة في الفساد الكلي، وعندما حاولت تذكيره بتعقيدات الظروف – الموظف الذي يتقاضى مرتبًا رمزيًا تعرف الدولة أنه لن يكفيه، وتفترض أنه "يكمل عليه" من أصحاب المصالح وغير ذلك– رفض هذه التفسيرات باعتبارها حججًا. سألته كيف يُميّز بين الصواب والخطأ في حالة مثل هذه؟ فابتسم ابتسامة المطمئن، وربت على كتفها قائلاً إن هذا أوضح مثال على فساد منطقها، فالصواب والخطأ بيّنان، لا يختلط بينهما إلا شخص تعود على سوء الأخلاق. ردّت بأنّ ما يصفه بسوء أخلاق المصريين ما هو إلا نمط آخر من الأخلاق له جماله الخاص. تستفزّه هذه النعماء، تُشعره بأنه مقترن بمجموعة لا يقتصها إلا أن ترتدي الهلاهيل وتجري خلف العدّ التجاذيب. اتهمها بأنها تُعوّض فشلها في التأقلم مع الحياة في بريطانيا بتقمّص هذا الدور الذي يجعلها تشعر بالتفوق، وأنها ضحية أساطير غموض الشرق، فقالت إنه هو المتورط بأساطير النظام في الغرب. نظر إليها ساخطًا في بادئ شيء كامل، ثم تعلّل بالمحاضرة التي عليه التحاق بها، ومضى.

سارت حياتهما بعد تلك المناقشة في هدوئها المعتاد: هو يدرّس بجامعة القاهرة على بعد خطوتين من المنزل، وهي تعمل بشكل دائم في مشروعات فنّي مع منظمات اجتماعية فنّي، من مساعدة الزبالين إلى رعاية

www.mlazna.com-RAYAHEEN

أطفال الشوارع في وسط البلد. لكن الخلاف بينهما حدّ من علاقاتهما الاجتماعية، وقلّلت طريقة تفكيرها من رغبتي في مشاركتها مشاكله سواء تلك المتعلّقة بالعمل، أم بعلاقته المتوترة بطفليه وأمهم، وهي المسألة التي كانت قد بدأت تأخذ حيزًا متزايدًا من حياته. فكلّ فكرة كانت تستدعي شروحًا ومناقشات وخلافات لا يمكن حسمها. اعترف لها يومًا أنه يجد صعوبة في التعامل مع الطفلين. فيوسف عنيد ولا يستجيب لتوجيهاته، يتجاهل ما يقوله له أو يتظاهر بأنه لا يفهم. أما ليلى فتجيد الدفاع عن نفسها، وعن أمها كلّما وجّه لها أبسط ملاحظة، مما يجعلها دائمة التحفّز بل وعدائية أحيانًا. سألته جين لم يوجه لهما كلّ هذه الملاحظات، فرد بأنّ سلوكهما العام لا يليق بهما، وهو لا يستطيع تفويم الأم مصدر هذه السلوكيات، ومن ثمّ يحاول استغلال الوقت الذي يقضيه مع الطفلين في تقويمهما. اقترحت جين عليه أن يتعلّم قبولهما كما هما بدلاً من محاولة تقويمهما. حاول شرح اعتراضاته فلم تفهم، وظلّت تردّد ما قالته حتى سكتُّ تفاديًا لمزيد من الخلاف، وصار يتجنّب إثارة هذا الموضوع. ثم بدأ يتفادى مناقشة الموضوعات الأخرى، وأخذت دائرة الموضوعات التي يتفادى الخوض فيها تتسع حتى شملت كلّ شيء، وانتهى الأمر بهما لصمت مطبق. لم تطل الحياة بينهما بعد ذلك كثيرًا. ابتسم وهو يتذكّر كلّ ذلك، ويمسح التراب عن غلاف الكتاب الأبيض: "هل يمكن أن ألقي بهذا الكتاب إلى العدم؟ هذا الكتاب الذي كان علامة النجاح والفشل لنسالي، أينتهي به الأمر إلى القمامة أو على أفضل الفروض إلى إعادة التدوير؟ أخذ يتخيّل صفحات الكتاب وهي تغرق في محلول تزيل كلماتها حبرًا فشيئًا

حتى تغدو مجرد صفحات بيضاء طافية. أهكذا ينتهي الأمر بالكتاب؟ ماذا سيقول جين لو عرفت مصير الكتاب: أسيقول إنها كانت على حق حين رفضت قراءته؟

ربما قرأت الكتاب. كانت جالسة في غرفة المكتب بشقته الجديدة بالمعادي حين مدت يدها وسحبت الكتاب من على أحد الأرفف. نظرت إليه وصاحت بطلبة بأنّ هذا بالضبط هو ما كانت تبحث عنه. حدّق فيها مُستغربًا فأسرّت له وهي تتلعثم لأيّ مدى تجهل تاريخ المنطقة، رغم أن حياتها وحياة عائلتها شكّلها هذا التاريخ. أضافت، وكأنها تربح من على صدرها عبئًا باعترافها – أنها تجهل حتى الأشياء الأساسية، كالفارق بين الخلافة الأموية والعثمانية. لمّلكه الدهشة، ونظر إليها محاولاً إخفاء صدمته بابتسامة مختصرة. سأل نفسه إن كان به خلل نفسي ما يجعله ينجذب للجاهلات دون وعي منه. لكن ربما أستاذة في القانون الدولي لا عارضة أزياء! لم يقابلها في بار، بل في مؤتمر علمي قدمت فيه بحثًا عن التحكيم الدولي. كيف حصلت على درجاتها العلمية؟ ولماذا أخذت هذا الطريق مادام لا يُثير اهتمامها؟ ظلّ بعد ذلك بفترة طويلة يفكّر في معنى هذا، وما إذا كان مؤشرًا على مشاكل أكبر في شخصيتها. فكّر في الافتراق عنها قبل أن تتطوّر الأمور بينهما، لكنّ الأمور كانت قد تطورت بالفعل، وتركت ربما مركز البحوث الذي تعمل به ببيروت، وانتقلت للقاهرة كي تكون معه، ومن ثم كان يجب عليه المحاولة على الأقل. اقترح عليها قراءة كتاب حوراني كبداية لعملية إعادة تأهيلها التي أخذ على عاتقه متابعتها. قال لنفسه إنه مادام يستطيع تعليم الفتات من الطلبة الجهلة الذين يردون

عليه كلّ عام، فلابد وأنه قادر على تعليم امرأة أخرى، خاصة وأنها هي التي أبدت إعجابها بالكتاب، وأعلنت رغبتها التخلّص من جهلها.

لم يرد تكرار قصة جون وفرض الكتاب عليها، فسألها مباشرة إن كانت تريد مساعدة في "سد هذه الثغرة" في تعليمها، فرحبت وشكرته. أعطاها الكتاب وبعدها بشهر سألها عن رأيها فيه، فأبدت إعجابها الشديد به مستشهدة ببعض أبياته. لكنه حين ناقشها بعد ذلك بأسابيع في موضوعات ذات صلة بالكتاب اكتشف أنها لم تقرأ منه سوى شذرات، وكانت تقلّب فصولاً بأكملها وتدّعي أنها قرأتها. صدم. سألها لم تفعل ذلك؟ فأجابت في انكسار أنها خشيت على مكانتها في عينيه إن اكتشف كم وجدت الكتاب صعبًا على الفهم. صُدم أكثر: كيف تجده صعبًا وهو من أيسر الكتب؟ ثم كيف تقدم على الكذب في أمر كهذا؟ والأسوأ من كلّ ذلك هو كيف تخاف منه لهذه الدرجة الهينة؟ وإن كان هذا حالها فلم تقبل أن تعيش معه وهي تشعر بالضآلة؟ أيّ نوع من النساء هي لترتضي لنفسها هذه الحياة؟!

لكن ربما لم تكن بالخنوع الذي ظنّه؛ كانت عاشقة ومستعدّة للتضحية بأيّ شيء من أجل البقاء معه. وعندما فهمت أنها قد خسرت تقديره الفكري لها لجأت لشيء آخر لاستبقائه. كلّ من يعرف درويش يدرك سريعًا أن علاقته بطفليه هي نقطة ضعفه، فهو يفتقد الحياة معهما منذ انفصاله عن أمهما، ويشعر بالحنق على أمهما لأسلوب تربيتها لهما. حاول جعلهما يقضيان شهور الصيف معه، لكن الأم كانت تجد وسيلة ما لعرقلة ذلك، وذيّاك فشيئًا بدأ في الإعراض عن الإقامة معه، إذا تقوّدًا

على الحياة مع الأب، أو لِمَا للتنقل الدائم بين منزليهم من عدم استقرار نفسي وعائلي، وأسئلة من قبيل أصدقائهم، أو تأثرًا بما يسمعونه. وحين يأتيان لزيارته أو لقضاء بعض الوقت معه يسود التوتر علاقتهم. يوسف، الغارق في عالمه الخاص، بادي العناد. وإن لم يُوجّه عناده له مباشرة فهو يصبه على كلّ ما حوله. لا الطعام يعجبه ولا الشراب، ولا الخروج ولا الدخول، ولا النوم ولا اليقظة. دائم الشكوى وسريع الغضب والانزواء، ويجد دائمًا سببًا لإفساد أيّ بهجة تجمعهم هم الثلاثة. أما ليلى فقد تحوّلت من الدفاع إلى الهجوم، بسيل من الاستجوابات حول فشله وأنها في الحفاظ على الأسرة التي خلقاها سويًا. كانا غاضبين، كلٌ بطريقته. حاول تفكيك غضبهما فلم يستطع: يوسف مغلق بالضبة والمفتاح، لا يرسل شيئًا، ولا يبدو أنه يستقبل شيئًا. وليلى تقول أشياء كثيرة لكنه لا يعرف ما إذا كانت تعني ما تقول، وما إذا كانت تُدرك حقيقة مشاعرها. ورغم ذلك واصل المحاولة، وقال أشياء كثيرة على أمل أن ينفذ بعضها لهما كي يشعرا لأي حد يحبهما. لكنه لم يعرف ما ينفذ إلى نفسيهما. وشيئًا فشيئًا استقرّ بينهم هم الثلاثة روتين يقوم على حب جارف وغضب من ناحيته، وغضب ممزوج بالحب من ناحيتهما، وألم شديد للثلاثة اتفقوا ضمنيًا على أهميته مسئوليته.

فهمت ربما هذه المعادلة المعقّدة بسرعة، وعملت على استغلالها للتسرّب في حياة درويش. دبّرت أمرها بحيث وجد نفسه مضطرًا لتقديمها لليوسف وليلى. وبخبرتها النسائية نجحت في التسلّل لقلب البيت الغفل والراغض لارتباط أبيها بأية امرأة. كانت ليلى قد بلغت الخامسة عشرة، ورأت ربما

على الفور كيف يمكن النفاذ لها! أخذتها لبيروت في رحلة حريمي بعد أن اقترحت موافقة درويش بتزويج من توسّل ليلى والطمأنة من جانبها. وهناك بهرتها بإمكانيات الجمال والأناقة، وأرتها عالمًا آخر قلبها المراهق ظلت ليلى مسهورة حتى بعد عودتها وهي تريه الصور. لم تكن هذه الرحلة سوى عيّنة مما يمكن أن تفعله ربما لها، كما أفهمتها. ليلى رأت فيما فعلته ربما علامة على إمكانية دخولها لعالم الجميلات الذي طالما اعتقدت أنه مُخصّص لغيرها من البنات، العالم الذي لاتستطيع أمها مساعدتها على دخوله. وبهدوء، نقلتها البنت من خانة الأعداء لخانة الحلفاء.

بعد التحالف مع ليلى، بدت ربما تفوقها لبقية مناطق حياته، بدءًا بيوسف وانتهاءً بملابسه هو وحياته اليومية. شيئًا فشيئًا أعادت تشكيل العالم الذي يعيش فيه، واستراح لهذا، فطالما أراد امرأة تتولّى ترتيب حياته المتعثرة. وكانت ربما بارعة في ذلك. لكنّه ظلّ غير مرتاح لجهلها، ليس فقط بتاريخ الغرب، فقصتها مع كتاب حوراني كانت إشارة لجهل أوسع وأشمل. لكنّه حاول التغاضي عن ذلك والحفاظ على علاقتهما، وظل يفكر جديًا في الزواج منها. وتفاديًا لاصطدامه بجهلها عمل على إبقاء أحاديثهما في إطار الأمور العملية فقط - من سيذهب؟ أين، ومتى؟ وأي فيلم يشاهدون؟ وماذا يأكلون؟ وأين يقضون العطلات؟ ومن من الأصدقاء يدعى لأي مناسبة؟ وكيف تحل مشكلة يوسف مع المدرسة أو ليلى مع صديقاتها؟ وغير ذلك من الموضوعات الحياتية. وكلما تطرقت ربما لأمر يتعلق بحوائه الجامعية أو بأمر عام أتهى الحديث بسرعة. سارت الأمور بينهما بهدوء، لكنها كانت تدرك عواقب عدم مشاركتها له حالة

الأثير وتحاول من وقت لآخر الدخول في هذا العالم، وكلّما فعلت كلّما اتضح جهلها أكثر، وازداد ضيقه أكثر، فتجزع هي أكثر، وتسعى لمواجهة الخطر بزيادة تغلغلها في حياته وفتح الباب الموصد أمامها، مما يدفعه لمزيد من الضيق بها، وهكذا حتى وصلا للنهاية المحتومة.

ظهره يؤلمه. هل تأذّى من هذه السقطة البسيطة؟ تولّه بجلسته على الأرض. الأرضية الخشبية ليست مُريحة بالقدر الذي ظنّه. هذه أول مرة يجلس فعليًا على الأرضية رغم كلّ الخلاف بينه وبين زينب حولها. ماذا كانت أهمية الخشب إذًا؟ الساعة تقترب من السادسة، ولم يقرر ما يكفي من الكتب. شعر مرةً أخرى بالفشل في استغلال الوقت بشكلٍ أمثل، لكنّه عزّى نفسه بأنه سيحظى بوقت كاف حين يتقل للشاليه. يجب أن يضع هذا الكتاب المشئوم وذكرياته جانبًا، ويعود لفرز الكتب. يوسف فرز عدة مئات من الكتب خلال الساعة الباقية على وصول يوسف. هل يعطي يوسف هذا الكتاب؟ هو لا يحبّ القراءة، لم يحبّها في يوم من الأيام، وربما عمل في منظمات الإغاثة الدولية كي يتفادى القراءة! فتوزيع أجولة القطن لا يحتاج لقراءة كثيرة ولا خلسًا! لكن لو طلب منه الاحتفاظ بهذا الكتاب فسيفعل. لكن ماذا سيفعل يوسف بالكتاب؟ يعطيه لزوجة المستقبل أم لصديقاته كي يقرأنه؟ وأين هي هذه الزوجة وهؤلاء الصديقات؟ لماذا لم يقابل أيًا منهنّ أو يسمع عنهنّ؟ هل فقده الأمل في النساء لهذه الدرجة أم أنه يُحمّل نفسه ذنبًا لا مبرر له؟ ربما هو صمته الذي يدفعهنّ عنه. ربما كراهيته للقراءة من يدري، ربما يقع في غرام نساء يعطيه ألبرت حوراني كي يقرأه ولا يستطيع فيتركنه. أمسك

www.miazna.com-RAYAHEEN

بالكتاب بين يديه يقلبه: "ماذا أفعل بهذا الكتاب؟ ولماذا لا أستطيع أن أحمل نفسي على التخلّص منه؟"

زينب قرأته، أو على الأقل بدأت في ذلك، وظلّت تقرأ فيه لسنوات طويلة بإمعان ودقة ولكنّ ببطء، لا يصدق، ولم تنته منه حتى وفاتها. فهم درويش منذ نهاية العام الأول أنها لن تُنهيه أبدًا، وبدأ عملية اليأس منها. ماتت المسكينة قبل أن تتفهّى من حكم المماليك. ما الذي يجعله يبتسم الآن وهو يتذكر ذلك؟! يسأل نفسه ولا يجد إجابة. الحقيقة أنه لا يفهم الكثير من ردود أفعاله الخاصة بزينب، بما فيها زواجهما. لماذا تزوجها رغم اختلافهما البيّن عن النموذج الذي كان في ذهنه للمرأة التي يريد الاقتران بها؟ لا يعرف، رغم كلّ هذه السنوات، ولم يفهم أحد سر زواجهما؛ لا ليلى ولا يوسف ولا أصدقاؤه ولا أقرباؤه أو زملاؤه، بل ولا زينب نفسها.

التقى بها في المستشفى الذي تعمل به حيث كانت أتته تخضع للعلاج. لطيفة ورقيقة وعذابة وذكية؛ لكنّها تحتاج طيلة الوقت وتصمت إن حدّثها أحد. حاول التحدث معها عدة مرات، لكنّها كانت قليلة الكلام، وكلّما سعى لإطالة الحديث معها كلّما احتمت هي بالصمت. قالت له بعد ذلك إنها كانت تلوم نفسها فور مغادرته مكتبها على هذا الصمت، وتظلّ تفكّر في كلّ الأشياء التي كان يتعين عليها قولها وصمتت عنها، وتقسم أن تقول هذه الأشياء في المرة التالية، لكنّها لا تفعل. وظلّا هكذا حتى غادرت أتته المستشفى، لكن بعد عدة شهور أصبحت الأم عاجزة عن الحركة، فاتصل برئيس القسم، وطلب منه إرسال أحد شباب الأطباء،

لزيارتها بالبيت، واقترح زينب، وهكذا أصبحا يتقابلان في بيته عندما تأتي لزيارة أمّه مرة كلّ أسبوع، ثم تطورت الأمور بينهما بسرعة.

كان يشعر بانجذاب شديد لها، لكنّه أيضًا يعي أن عشرين عامًا يفصلون بينهما، وعشرين شيئًا آخر. حين تطورت العلاقة بينهما بعد ذلك ظلّ يُشير لفارق السنّ بينهما، وهي تتبسّم عليه قائلة إنه سيمشي في جنازتها. لكنّ السن لم يكن الفارق الوحيد بينهما: فهو سريع وهي بطيئة، هو شديد التركيز وهي تائهة، هو حادّ الطباع وهي حساسة، هو طموح ومصمم وهي حالمة ومتشائمة، هو شديد الاهتمام بالأمور الفكرية وهي لا، هو شديد الكبرياء لدرجة الغرور وهي شديدة التواضع لدرجة التهاون، هو حريص على حماية صورته أمام الناس وهي مستسلمة لاستهانة الناس بها، هو يكره الناس لكنه يجبر نفسه على الانخراط معهم وهي تحب الناس لكنّها تنأى عنهم، هو متأوّر وهي مريحة، هو يلمع وهي هادئة، هو خبير بالحياة وهي مبتدئة. لم يكن متأكدًا أن علاقتهما يمكن أن تدوم، لو أن ارتباطهما فكرة سعيدة، لكنّه وجد نفسه منجذبًا إليها بشكل لا يقاوم.

ذات يوم قرر أن يسبر غطس مشاعره. كان مريضًا وتائهًا بتأثير الحمّى والدواء، وعندما أفاق وجدها جالسةً بجواره تمسح على وجهه بمنديل مبلل. أمسك بيدها وقبّلها. تهتست شعره، ثم قبلته بحنان على يده، وسألته مباشرة إن كان يحبّها. ابتسم وقال بمثل هذا. ابتسمت قائلة إنها تحبه منذ رأته، وإنها لا تعرف كيف ستعيش بعد أن يتركها. سألها لم تفترض أنه سيتركها فأجابت بأنها ليست صيغة، وأنها تعلم أنها ليست جيدة بما يكفيه، وأنه لا محالة تاركها. ابتسم وقال لها إن ذلك سيكون

من حسن طالعها، فهو شخصية مُتعبة – مفتري قليلاً وعصبي شويتين. صمتت، وقالت ببطء، وتصميم إنها تعلم ذلك، لكنّه لا يخيفها. مال عليها، وسألها إن كانت تقبل الزواج به، فطبعت على خدّيه قُبلة طويلة ودافئة، وقالت "نعم".

ما الذي جعله يتزوجها؟ جاءه هذا السؤال من ليلى مصحوبًا بغضب، ومن يوسف مصحوبًا بتشكّك، ومن بقية الأصدقاء والمعارف مشوبًا بالعجب. وقد أسعفته حنكته بإجابات شتّى لكل منهم، وأعطى زينب كلّ هذه الإجابات معًا كلّما سألته، وكانت تسأله كثيرًا وكأنها تختبر صدق إجاباته، لكنّه لم يجد إجابة تُقنعه هو نفسه. تزوجها، وبعد وقت قليل جاءه عرض من جامعة نيويورك للعمل بها. كانت سمعته قد بدأت في التوطّد كمتوزّع جاد، ونشر عدّة أبحاث في دوريات علمية مرموقة. جاءه هذا العرض فلم يتردّد كثيرًا.

كان قد مرّ على عودته لمصر من لندن سبع سنوات تراكمت خلالهم قناعته بألاّ فائدة في البقاء بهذا البلد. عاد من بريطانيا بعد الدكتوراة لأنه شعر بمسئولية إزاء أهله ووطنه، لكن سبع سنوات من التدريس لطلبة جهلاء لا يفقهون ولا رغبة لديهم في التعلّم جعلته يغيّر رأيه. سبع سنوات من الفشل في تطوير التعليم بالقسم، رغم الوعود ورغم التمويل ورغم التصريحات، أقنعته ألاّ فائدة. سبع سنوات من النقاش العقيم مع زملاء أساتذة وكتاب فقدوا المنطق ولم يعودوا قادرين على وصل الأسباب بالنتائج أقنعته بضرورة الرحيل. سبع سنوات من التعامل مع مجتمع أدمن مشاكله ووضعه كضحية وصار يُعادي من يحاول لفت النظر لضرورة

الخروج من هذا الوضع أقنعته بأنّ هذه أمة في سبيلها للغرق ولن ينقذها شيء أو أحد. ومن ثَمّ قرر النجاة بنفسه. زينب وافقت على الرحيل من مصر التي قالت إن الحياة فيها خانقة للنساء. أما ليلى فقد رفضت البعد عن أصدقائها وقرّرت البقاء مع أمها، ودعمت يوسف بالنيابة للبقاء.

رحل درويش مع زينب تاركًا الطفلين وهو عازم على استمالتهما للانتقال معه لاحقًا. تأسيه الحياة في نيويورك وكأنها خُلقت على مقاسه. ووجد في الجامعة المناخ الذي ظلّ تائق له. استقرّ بها وازدهر عمله وتألّق. أما زينب فوجدت الحياة في نيويورك قاسية. في البداية تعين عليها اجتياز اختبارات شتّى لمعادلة شهاداتها الطبية، رغم أنها كانت تمارس الطب فعليًا في إحدى كبرى مستشفيات مصر. وأخذت هذه الاختبارات الكثير من وقتها وطاقتها التي احتاجتها للتأقلم مع بقية جوانب الحياة الجديدة. وأثّر ذلك سلبيًا على حالتها النفسية وقدرتها على مواجهة مسئوليات البيت والزواج. لم يعجبه ذلك، لم يعجبه البتة. وعبّر عن امتعاضه بوضوح. لم تجد زينب الوقت الكافي للعناية به، أو بالمنزل العتيق الأنيق الذي اشتراه في الناحية الغربية للمدينة وكان فخورًا به. فشلت في الوفاء بوعودها الخاصة بالعناية بالديكور والأثاث، بل حتى باختيار ألوان وأنواع الستائر. لم تكن زينب في يوم من الأيام خبيرة بهذه الأشياء، ولكنّها زعمت أنها ستتعلمها في نيويورك، وطبعًا لم يكن هناك وقت كافٍ لتعلّم أي شيء. كلّ صباح تُواجه بقرارات عليها اتخاذها فورًا ودون معرفة كافية بالعواقب؛ إن أخطأت توقّفت أمور الحياة عما يثير حنقه، وإن أخطأت – وهو ما يحدث كثيرًا – زاد حنقه أيضًا، وإن

تظاهر بتفهّم الأمر. لكن محاولاته لم تنطلِ عليها، كما صرّحت بعد ذلك في مشاجراتهما العديدة.

لم يقتصر إهمالها على شؤون البيت، بل امتدّ لكلّ شيء آخر، فلم تعد تجد الوقت للاهتمام بنفسها، ولا أن تكون جزءًا من حياته الاجتماعية في نيويورك، وأصبحت ميّالة للانعزال والاكتئاب. تحوّلت امتحانات المعادلة إلى هم مُقيم، تصحو في الصباح ووجهها مقبض وكأنّ أحدًا دهس كلبها لتوه. ثم تُبدّد الصباح مُتنقّلة بين أرجاء المنزل دون أن تفعل شيئًا مُحددًا. وبحلول الظهيرة تكون قد استغلت كلّ وسائل التسويف المعقولة والغير معقولة، فتضطر للبدء في المذاكرة، وتظلّ تتأمل مع مواد وأشياء غير مفهومة لها حتى الخامسة، فتقوم لتعد العشاء. لكنّ شيئًا ما يحوم نحو الجهة اليمنى من رأسها، وإن أبدى أقل ملاحظة على ما تفعله سقطت في الصمت والتعاسة.

قالت زينب إنها بطيئة، لكنّها ليست غبية. وكانت هناك إشارات الرادار لديها تسجّل بدقة تدهور تقديره لها. أخبرتها في ذلك كثيرًا. قالت إنها تفهم أسبابه، لكنّها لا توافق عليها. حاولت شرح الأمر من وجهة نظرها، وكيف أنها تحتاج للشعور بالحب والإعجاب كي تزدهر وتتألق. قالت إنها لا تطيق ميله للتحكم عليها طيلة الوقت، وإن مراقبته المستمرة لها تجعلها ترتبك وتتعثر. ذكّرته عشرات المرات باختلافهما، وبحبّه لها، وسألته عشرات المرات لم يقول إنه يحبها إن كان يبغض كلّ هذه الاختلافات ولا يطيقها! حاول أن يشرح لها أنه يفهم منطقها، لكنّه لا يسيطر على شعوره بالضيق من أخطائها. وعندما بدأ يحاول، وقالت إنها ستحاول

هي أيضًا، لكنّها لم تجد في نفسها القوة للمحاولة، ولم يستطع هو إخفاء حنقه عن رادارتها المتقدّمة. ومع استمرار التدهور هدّدته بالرحيل إن شعرت بفقدانها لحبّه. ضحك وسألها أين ستذهب، فقالت ببساطة إنها ستخطئ. وبالطبع لم يصدّقها.

ذات صباح أعلنت أنها قررت الانسحاب من امتحانات المعادلة أو "تأجيلها". اعترض لعلمه بأهمية الأمر لها، لكنّها أصرت. قالت إن استعادتها لسيطرتها على حياتهما وتغلّب استمرار التدهور في علاقتهما أهم من أيّ شيء آخر. واصل الاعتراض، فماذا يبقى لها إن تخلّت عن الطب؟ لكن ردودها كانت واضحة ومقنعة. نعم هي طبيبة وهذا هو الشيء الأساسي الذي يُميّزها عن غيرها، لكنّها أيضًا امرأة وزوجة محبة، ولا تستطيع تعريض زواجهما للخطر. ستستعيد سيطرتها على حياتها أولاً، ثم تعود لهذه الامتحانات اللّعينة في العام القادم أو الذي يليه. لم يوافق على قرارها، وسألها ساخرًا عمّا إذا كان الأمر سينتهي بها ربة بيت، فانخرطت ضاحكة، وقالت إنها ستدرس أشياء أخرى، وستقرأ عن الموضوعات التي ظلّت طيلة عمرها تريد تعلّمها ولم تتح لها الفرصة. سألها متهكمًا مثل ماذا؟! فأجابت ببساطة: "الموضوعات التي تدرسها أنت، تاريخ العرب مثلاً". لم يعرف بم يجيب، خطر على باله أن يقترح عليها كتاب هورالي الشهير ثم عدل فورًا عن ذلك. لكنّها عادت بعدها بيومين، وسألته إن كان لديه كتاب عن تاريخ العرب، فقام وأحضره ووضعه في يدها دون أن ينبس بكلمة.

ثم جاءت ليلى ويوسف للإقامة معهما بعد موت أمهما. طول عمره

يعتقد أنه من الأفضل له وللأطفال أن يعيشوا سويًا. فمن ناحية يُداوي جرحه القديم، ومن ناحية أخرى يساعدهما على تجاوز عقدة الانفصال وحلحلة علاقاتهم المعقدة. جاء موت الأم مباغتًا للجميع وكان أفضل شيء هو سفر الأطفال كي يغيروا الجو كلّه، كما أن جامعات نيويورك ستفتح عقليهما ونفسيهما على آفاق أرحب. ما لم يدركه وقتها هو أن الأشياء والناس لا تسير بالضرورة وفقًا للمنطق، بل تتبع آلياتها الخاصة. ليلى أعلنت حرب التحرير فور وصولها، في حين أعلن يوسف الاستقلال. ليلى التي قررت الحلول محل زينب في حياة أبيها قالت إنها لا تفهم سر اختياره لهذه المرأة وإن ربما كانت أفضل منها ونسب. وكلما بذل جهدًا في شرح مميزاتها لليلى كلّما أمعنت في التحقير من شأنها. وعلى عكس توقعاته، لم تفلح الحياة المشتركة، ولا الظروف الملائمة التي توفّرها الحياة في نيويورك لفتاة في سن ليلى بأنْ تغيّر أو تخفف من عدائها لزينب. بل على العكس، بدا أن هذا العداء يتزايد ويتحوّل لنزال مستمر حتى ساء التوتر البيت، تكاد تلمسه باليد في كلّ كلمة وحركة صغيرة؛ تغيير قنوات التليفزيون، تشغيل الموسيقى، درجة الإضاءة، مواعيد النوم، أماكن الجلوس والمذاكرة، اختيار فيلم في السينما، اختيار الطعام، إبداء الرأي. كلّ شيء تحول لنزال تسعى من ورائه ليلى للتقليل من شأن زينب في حين تحاول تلك الدفاع عن نفسها وإثبات جدارتها. أما يوسف، فقد دخل ما قبل له إنها غرفته عند وصوله، و لم يخرج منها حتى أنهى دراسته الجامعية بعد ذلك بأربعة أعوام إلا للطعام أو الخروج من البيت. لم تفلح محاولات أبيه المستمرة في جعله يجلس خارج غرفته: يناديه لا يرد، يذهب للبحث عنه،

فيجد سماعات الكمبيوتر مستقرة على أذنيه. ينظر يوسف له مستفهمًا وهو يزيح السماعات قليلاً: إن وُجه له سؤالاً أجاب عليه باختصار، وإن كان لدى الأب معلومة استمع إليها وأومأ أو علّق عليها باختصار، ثم ابتسم ابتسامة موحدة لجميع الأيام والأوقات، وأعاد السماعات لأذنيه، واستغرق فيما كان يصدره.

فشلت الحياة المشتركة في كسر الحواجز بينهما و لم يعد يعجبهما شيء. عندَ سخط ليلى وصمت يوسف تشمل الجدران والجامعة ونيويورك نفسها. وفشلت زينب بطبيعة الحال فيما لم ينجح هو فيه. ضاق بذلك، ممّا في سرّه أن تكون زينب ساحرة، تستطيع بحركة من عصاها أن تأسر قلبي يوسف وليلى. وفي حين أدركت زينب مدى الله فرّتها شعرت بلومه السري لها، و لم تفهم لم يلومها. لم يلومها على كلّ شيء؟ تنظر إليه وترى ضيقه بحياته وبها يزيد، ويُشعرها ذلك بالظلم وبالفشل معًا. تناقشه، وتشاجره، وتصالحه، لكن جرحًا ما يظل. ومع كلّ مرة كان اليأس من تغيير الوضع يزايد.

استقرّت الأمور في المنزل عند درجة الغليان، وأصبح الطابق الأرضي للبيت ساحة حرب مستمرة، تُعرّض حياتك للسهام إن خطوت من المطبخ لغرفة المعيشة. انتهى به الأمر لليأس من الثلاثة، ومن ثم حذو ابنه، واحتمى بغرفة مكتبه ورفوف كتبه في الطابق العلوي، وصار يقضي أوقاتًا أطول في الجامعة. واتخذت ليلى من غرفتها في الطابق الأرضي مركزًا للعمليات: تقضي بها معظم الوقت وهي تتربّص بالثلاثة، فإن لمحت زينب أو لمحته تحركت على الفور للساحة طلبًا للنزال. وبعد عدة

www.miazna.com-RAYAHEEN

شهور، شعرت زينب بالإنهاك، وبأنها تحارب على كلّ الجبهات في وقت واحد دون نصير أو حليف ودون سبب واضح يدفعها للصمود. لم تعد تريد إثبات جدارتها لأحد: لا لليلى الغاضبة، ولا ليوسف المغلق، ولا لزوجها الذي انسحب. أدركت أنه قد يأس منها، ولم يفكر عندما ساءت فهمه عليها بأسها الخاص. استسلمت، وبدأت عملية الذبول الطويلة التي أودت بحياتها. ذبلت شيئًا فشيئًا، وهو يراقب ذبولها، ويزداد حنقه عليها. يحمّلها في سره مسئولية كلّ ماحدث، بما في ذلك ذبولها. وحين رحلت ليلى لكاليفورنيا في منحة الدراسة الماجستير، ثم رحل يوسف في منحة مشابهة لمونتريال، لم يبق بالبيت سوى صمته وذبولها. لم تدخل امتحانات المعادلة أبدًا، رفضت هازلة حين ذكّرها، وغضبت حين ألح. اتفق مع طالبة تدرس التصميم الداخلي على إعادة ترتيب المنزل—وألقى بالستائر القبيحة التي كانت قد اختارتها على عجل في القيامة—واستخدم كبتي لتولّي مسئولية التنظيف وإعداد الطعام. أصبحت زينب تقضي يومها بين الأريكة وبعض المحلّات وشاشة الكمبيوتر أو التجول في الأسواق دون شراء بذكر، لكنّها واظبت على قراءة كتاب جوراني. تقرأ فقرة أو اثنتين كلّ يوم، وتكتب ملاحظات في كراسة بجوارها. كلّما عاد زوجها من الجامعة وجدها في إحدى الأرائك نائمة، والكتاب فوق صدرها، يوقظها، فتجعل ثم تجمع حاجياتها مرتبكة وتذهب للفراش، حتى عاد ذات مساء، وأيقظها، فلم تستيقظ.

خمسة وعشرون عامًا. مرّ على ذلك خمسة وعشرون عامًا. واجه رحيلها بحيادٍ من الجديد. لم ينفجر باكيًا، بل أتى حزنه في صورة سكون

وإذعان، كأنه امتداد لليأس الذي أصابه منها. لم يعد للنساء بعد زينب؛ لم يتخذ قرارًا واعيًا بذلك، وإنما عرفت نفسه عن النساء والعلاقات الحميمة بشكل عام. لم يفكر كثيرًا في رحيل زينب، تفادى التفكّر فيه وفي معناه، ربّما كان رحيلها أكبر من قدرته على التحمّل، وكانت هذه طريقته في التعامل معه، بإخفائه أو تجاهله، أو بإغلاق الموضوع برمّته. لم يستخدم كلمة الموت مرة واحدة؛ قال رحلت، غادرت، مرت، ولم يقل أبدًا زينب ماتت. لم يعد يفكر فيما حدث، وإنما طواه ووضعه في مكانٍ ما وتركه هناك، مثل بقية أموره العاطفية، مثل هذه الكتب، مثل أشياء أخرى كثيرة. كأنّ حياته العاطفية ساعة توقفت عن العمل. دخل هذا الجزء منه في حالة بيات شتوي طويل، وبقي الجزء الآخر الذي يعرفه ويسيطر عليه: التدريس والبحث والكتابة. أصبح أكثر اهتمامًا بطلبته، ويقضي وقتًا أطول معهم في الشرح والنقاش، وتطوّع للمشاركة في كلّ اللجان المكلفة بالجامعة، وقبل الإشراف على الرسائل العلمية لكلّ من طلب منه ذلك، وأفرغ بقية وقته في البحث والكتابة حتى ذاع صيته، وأصبح قبلة المؤتمرين في أمريكا الشمالية كلّها. جاءته بعض العروض من مصر للعودة والتدريس بها. جاءته عروض أخرى من دول ودور نشر عربية، للتدريس ولو لعام، للكتابة أو النشر، ورفضها كلّها. لم يكن يرى أيّ فائدة في جولاة الناس أو في محاولة تعليمهم أو تغييرهم. لم يعد يرى فائدة في محاولة تغيير أيّ شيء، لم يعد حتى يحاول. حلّ محلّ السعي شعور هادئ بالرضا عما في يده، دون مطمح فيما يقع خارج سيطرته، لا يفرح عما أوتي، ولا يحزن لما حُرم.

استسلم حتى فيما يتعلق بليلى ويوسف. قبل بعجزه عن إخراج

ليلى من غضبها وبوسف من توقعه. أنهت ليلى دراستها العليا بركلي و لم تعد لنيويورك، فلم يحاول الضغط عليها للعود. عملت كمحامية عدة سنوات في لوس أنجيليس، ودخلت في عدة علاقات لم تدم أية منها. يتصل بها من وقتٍ لآخر، يسمع أخبارها ويعلّق بشيء أو بآخر، وينتهي الحديث بغضب مكتوم، لا شيء أكثر من ذلك. بعدها بسنوات قليلة عادت ليلى لمصر رغبة منها في "عمل شيء مفيد". أبدى استعداده لكنه لم يتمنها. انفصلت به بعدها عن مصر، وقالت إنها تعرفت على طبيب مصري، تلمسان، ثم تزوجته وأنجبت سلمى. صارت تأتي هي وسلمى – وأحيانًا تلمسان – لقضاء الصيف في نيويورك. يقيمون معه بالبيت، لكنّهم لا يقضون وقتهم معًا، وكأنّهم يتشاطرون فندقًا. تكاد كيتي تكون حلقة الوصل بينهم. أحبّ سلمى، لكن ليلى كانت تحرص على عدم تطور علاقتها به إلى ارتباط. أبقت الكلّ بعيدًا، وهو يرى ذلك ولا يحاول حتى مقاومته. ثم أخذت هذه الزيارات تقصر وتتباعد حتى توقفت منذ سنوات. انفصلت ليلى عن زوجها – ترى هل غفرت له ساعتها انفصاله عن أمها؟ – وعرف بعدها أنها انجبت وتشدّدت في حياتها؛ قال لها في التليفون شيئًا أو شيئين اعتراضًا على ذلك، فتوتّرت المحادثة بينهما وتوقفت، وأذعن. أما يوسف فوجد لنفسه وظيفة مع الأمم المتحدة أخذته لبؤر الصراع في أفريقيا واحدة بعد الأخرى، وخلّ دومًا بلا زواج. لم يحاول إثناءه عن هذا العمل الذي وجده تضييعةً للوقت والحياة، و لم يحاول دفعه للزواج. من هو كي يفعل أيًا من هذا؟ وحين ترك يوسف

عمله بلا سبب واضح، وعاد ليعيش في مونتريال بلا وظيفة أمضى دهرين العمل على كتاب لم يقل درويش لأنه شيئًا. ما الفائدة؟ ليس الأمر أنه لا يهتم بأمرهما، لكنه لم يعد يُحاول توجيه حياتهما. لم يحاول وقف ليلى أو تعليل يوسف، لم يحاول جمع شملهم من جديد أو خلحلة عقدهم القديمة. استسلم؛ لا أحد يغير أحدًا.

خمسة وعشرون عامًا وأكثر منذ أذعن للدنيا. فماذا حدث له الآن وهو جالس على الأرض الخشبية أمام مكتبه القديمة؟ يمسك بكتاب حوراني وكأنه عثر على أداة الجريمة، ويرى الأشياء فجأة في ضوء آخر. يهدوء ودون دراما يشعر أنه فهم، كأنه يفيق من حُلم طويل. "هكذا يكتشف المرء حياته: جالس على الأرض يفرز كتبه القديمة قبل إلقائها في القمامة؟" يسأل نفسه: كيف لم يفكّر في هذا من قبل؟ بعد خمسة وعشرين عامًا من موت زوجته يخرج النور من بين صفحات كتاب قديم؟ يرى زينب كأنها أمامه، تبتسم ابتسامتها الحيّة الواسعة، وفي عينيها رجاء. هذه النظرة هي أكثر ما أحبّ فيها. رآها كثيرًا، لكنّه لم يفهمها. يراها الآن ويفتقدها فجأة وبشدة. أبأتي كلّ هذا من كتاب حوراني! لم يلمس هذا الكتاب أو يره منذ وفاتها. هل هو الذي أعاد ذكرى زينب إليه الآن؟ يحنّ إليها من جديد، مثلما كان يحنّ إليها وإلى صحبتها حين قابلها، وحين سألها أن تتزوجه. لو كانت هنا الآن لسألها الزواج من جديد. وفيها أدرك أنه يريد قضاء بقية حياته معها هي ولا أحد سواها، والآن عاوده نفس الشعور. هذا الشعور الذي اختفى تحت وطأة المتاعب اليومية والفوضى وامتحانات

العادلة والفشل المشترك ثم مات مع موتها. لكن لم يعد الآن للحياة؟ الآلة ذاهب إلى موته هو الآخر؟ أم هو الغطاء الحديدي الذي وضعه فوق قلبه منذ ماتت يزاح الآن، فيخرج ما كان تحته؟

يحاسب نفسه الآن: أيكون قد اقترف الخطيئة التي يعظ ضدها كلّ يوم؟ هو الذي يعلّم الشباب كيف يراجعون مسلّماتهم ويشكون فيما تعلموه ويبدؤون من جديد، متى راجع مسلّماته؟ متى وضع نفسه محلاً للشك أو التساؤل؟ فيم كان كلّ هذا الاهتمام بمعرفة نساء بتاريخ العرب؟ كيف ترك حوراني يقرر مصير حبه؟ كيف ترك القواعد والمعايير تخنق المرأة الوحيدة التي أحبّها وتخنق حياته معها؟ كيف لم يفهم، طيلة هذا الوقت، أنه تزوّجها لأنه أحبّها؟ أحبّها رغم عدم مطابقتها للنموذج الرسوم في ذهنه، فلم ترك النموذج يقود حياته معها؟ لم لم يستسلم للحب؟ أليس هذا ما حاولت زينب أن تشرحه له حين كانت تسأله عن سبب زواجه بها إن كان معترضًا على كلّ ما فعلته؟ لم يسمعها. الآن يدرك أنه لم يسمعها، أنه كان يعظها، مثلما كانت جين تقول: يعظ. لا يصدّق أنه وقع في هذا الخطأ الساذج: رجل لا يستمع لما تقوله زوجته، بالتفاهة! لكن لماذا لم يستمع؟ بتساءل إن كان قد فعل ذلك تحت ضغط خطية الأولاد عنده وحدها؟ أيحاول الآن لومهما على أخطائه؟ لا، هو المسئول عن أخطائه، بل وعن أخطائهما. هو الذي زرع فيهما بذرة ما كان يشكو منه وأشاعهما ليبها نفس الطريق. ليلى الثائرة، موتورة وتعيش وحدها في غضب. أحبت أربع شباب وهي في الجامعة، وتزوجت بالخامس، وفي كلّ مرة كانت تصرخ لأبيها أنها "وجدت الرجل الذي تبحث عنه". الرجل الذي تبحث عنه!

المرأة التي يبحث عنها؟ من يدري، لعل لديها نسخة من كتاب حوراني، ويوسف الأعزب الأبدي، تُرى ماذا يحصل في جُعبته؟ يحاسب نفسه الآن: كيف سمح بكلّ هذه الفوضى؟ بل كيف لم يسمح ببعض الفوضى؟ أترى لو أنه لم يسعَ للسيطرة على كلّ شيء بهذه الدرجة كانت الأمور ستكون أفضل؟

نظر في ساعته. تقترب من السابعة ويوسف على وشك الوصول. لا جدوى من مواصلة فرز الكتب؛ فلنلعب كلّها للجحيم. ما الفارق؟ سيتصل بليلى ويطلب منها المجيء إلى بروكلين، وإن رفضت هذه المرة سيقول لها إنه يموت، ويريد أن يراها للمرة الأخيرة. لو استطاع للعب لزيارتها في مصر، لكنه لم يعد يقدر. ربّما يمكنه استبقاء سلمى حتى تأتي أمها، ربّما أقنع الأم بترك سلمى تلتحق بالجامعة هنا، من يدري، ربّما بقيت ليلى هنا أيضًا ولو بعض الوقت. وسيحاول إقناع يوسف بقضاء فصل الشتاء معه بالشاليه. يمكنه العمل على كتابه المرعوم هناك، أفضل من برد مونتريال القارص. سيعترف لهما بمرضه وموته الوشيك، سيصدمهما ذلك، وربّما يغضبان لإخفائه الأمر عنهما أو حتى لأنه مريض وعلى شفا الموت، فهما يتوقعان منه أن يكون قويًا وصلدًا وأبديًا. هذه هي الصورة التي طبعها في عقليهما، هذا هو المثال الذي وضعه لهما ودفعهما كي يقلّداه. سيغضبان ويشعران بأنه يتخلّى عنهما بموته الوشيك. لكنه سيفتح قلبه لهما، ويعترف بأنه أخطأ في تربيتهما: لن يحاول التهرّب من المواجهة، سيعترف بأنه أخطأ، وبأنه يُخطئ، وبأنّ الكلّ يُخطئ. سيحاول أن يكون إنسانيًا أكثر، ربّما يدفعهما لمراجعة أنفسهما هما الآخران. هذه هي فرصته الأخيرة:

ربّما تفتح الصدمة قلبيهما، ومع بعض الإلحاح قد ينجح في حملهما على الحديث إليه بعد، على إخراج ما يدفنونه في أعماقهما. ربّما تنجح الصدمة في دفعهما للتفكير في حياتهما بشكلٍ مختلف، للتفكير في أخطائهما وفي مسئولياتهما عمّا حدث لهما فلا يكرّران الخطأ. يدرك أنه لن يستطيع فعل كلّ هذا في حديثٍ واحد، أو في زيارةٍ واحدة، بل سيتطلب الأمر مثابرة ووقتًا. مازال أمامه عامٍ، أو اثنان.

إن نجح سيكون ذلك أفضل ما يتركه لهما. لا يريد منهما تعويضًا عن الغياب، لا يحلم بحياةٍ مشتركة سعيدة في المستقبل، فلم يعد هناك مستقبل. كلّ ما يطمح إليه أن يساعدهما على تجاوز أخطاء الماضي. ومن يدري، ربّما يأتي يوسف وليلى لقضاء بعض الوقت معه في الشاليه، ولو لبعض الوقت. وربّما بعد أن يموت على ضفاف تلك البحيرة، يتذكّران أوقاتهما الأخيرة معه أكثر من تذكّرهما لجراح الماضي، وتكون أيامهم الجديدة تلك هي كلّ ما يبقى لهما.

قرر أن يفعل ذلك، الليلة. سيبدأ بالحديث مع يوسف، لن يتركه يلوذ بالصمت. ثم سيتحدث مع ليلى بالتليفون، ربّما في الصباح، بعد أن يتحدث مع سلمى عن فكرة بقائها هنا للدراسة. نظر في ساعته ووجدها قد تخطّت السابعة. شعر بغصّة: مالذي أخّر يوسف كلّ هذا الوقت؟ سيصل للدخول في الثامنة، ويعني هذا أنهما لن يُتاح لهما الوقت الكافي للحديث. سيضطر لتأجيل الحديث معه للصباح إذًا، ثم يتحدّث مع ليلى في مساء الغد. لكنّه سيقابل المحامي في الثامنة والنصف صباحًا، ولا يمكنه تأجيل هذا الموعد. قال يوسف إنه سيرحل عائدًا لمونتريال في

قطار العاشرة، ومعنى ذلك أنه لن يُتاح لهما الوقت للحديث في الصباح. لم يذهب لمونتريال بالقطار بحق الجحيم، من يفعل هذا؟ وما الذي أخّره هكذا؟ ألم يتعهّد أن يأتي في السابعة ليتوثّق التأكد من تمام شفاء عبد الجلاد؟ ألا يستطيع أن يأتي في موعده ولو مرة، مرة وحيدة قبل وفاة أبيه؟ هل يحادثه أثناء العشاء؟ يمكنه أن يلتقي به حالًا ويحادثه، لكن ذلك سيجعل الآخرين يشعرون بحرج، لا، لا يليق ذلك. سيطلب منه تأجيل سفره، كي يُحدّثه في الغد، سيقول له ذلك عندما يصل، هو الذي تأخر وعليه تحمّل نتائج أفعاله. ثم لماذا لا يسافر بالطائرة مثل البشر؟ ما قصّته والقطارات؟ نعم، سيطلب منه ذلك ويُحادثه في الصباح بعد رؤية المحامي. سيسير كلّ شيء، على مايُرام، طمأن نفسه، فقط عليه الآن أن يقوم من على الأرض، ويضع كتاب مورالي مكانه، ويستعدّ لاستقبال يوسف والضيوف.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

2

اللجوء إلى مارك

عندما لمح رامي المحصّل يفتح باب العربة عدل بلطة فسيفسه بسرعة، فهو دائم القلق من أن تكون فاتنته الداخلية ظاهرة. شد بلطة الجاكيت ليتأكد من تغطيتها تمامًا. مرّ المحصّل دون أن ينظر إليه، فهو جالس هنا منذ ساعتين. توقّف المحصّل عند الراكبة الثانية التي صعدت للقطار في آخر توقّف وفحص تذكرتها ثمّ مضى عائدًا نحو عربة القصف. القطار يمشي بالركاب الذاهبين لنيويورك في خطة نهاية الأسبوع. هذا هو وقت الذروة في أسعار السفر؛ كلّفته التذكرة مائة واثنين وعشرين دولارًا كاملة. لو كان قد أجّل سفره لصباح الغد لوفّر أربعين دولارًا، لكنّه كان سيفوت عشاء الدكتور درويش، وهذه أول مرة يدعوه لمنزله منذ سنوات. اشترى

التذكرة الأخيرة، ثمّ فاته القطار حين نام كالمعتاد في محطة واشنطن وفاته القطار. لا يصدّق أنه فعل ذلك. لكن بعد اثنين وعشرين ساعة بجلوس في القطار القادم من ميامي، كان مُتعبًا، ولايداري، كيف نام على رخام محطة الانتظار في واشنطن لكنّه نام. وعندما استيقظ أدرك أن قطاره قد رحل، ومعه موعد العشاء، وكلّ الترتيبات التي أجراها. وقبل أن ينهار تمامًا أسرع وأخذ القطار الأخير الذاهب لنيويورك. لا يعلم ما سيفعله هناك بالضبط، لكنّه سيفكر في الطريق.

بات حوالي ساعة ونصف ويصل نيويورك. لابدّ وأنّ هذه الفتاة ذاهبة لنيويورك أيضًا. تبدو في عمر ماندا ابنته. وضعت سماعات في أذنيها فور جلوسها وبدأت تستمع للموسيقى، لكنّها أبقت الصوت منخفضًا. مالت عليه وسألته إن كان الصوت يضايقه فنفى. فتاة لطيفة. هكذا تبدو، لكن من يدري، لعلّها تسرق أموالهم. تمشّى الأربعة عشر دولارًا الباقية في جيبه، وابتسم لنفسه في سخرية. لم يعد يشعر بالضغينة! حدث ما حدث ووصل إلى النقطة التي وصل إليها. لا يحمل ضغينة ضد أحد، لا ضدّ ربّ العمل، ولا ضد زوجته ولا ابنته. فعل كلّ منهم ما يُمثل عليه، فما فائدة الضغينة؟ لكنّه حزين! لم يتوقّع كلّ هذا الجفاء. وغاضب على نفسه، فلو أنه رتّى بناته بشكل أفضل، لو كان أقل تساهلًا أو تهاونًا معهم لربما عاملوه بشكلٍ أفضل. فكّر في ذلك كثيرًا في الشهور الماضية، لكن في كلّ مرة يفكّر في الموضوع ينتهي لنفس النتيجة، وهي أن أوان هذا الكلام قد فات. تُرى ما هو حال سلمى؟ أتكون مثل ابنته، أم أن تربيتها بمصر جعلتها مختلفة؟ لم يرَ سلمى منذ كانت في العاشرة من عمرها، والبنات

يتغيّرن بسرعة في هذه السن. يتغيّرن بسرعة لا أُصدّق. نظر في ساعته ثمّ في التذكرة: سيصل القطار إلى نيويورك قرب منتصف الليل، وسيتوجه مباشرة لمنزل الدكتور درويش، ثمّ يأتي مارك ويأخذه من هناك بعد العشاء، ليقيم معه في بروكلين. ويتمنّى أن يستقر عند مارك سيُعيد التفكير في كلّ هذا.

رامي الجالس في عربة القطار وفي جيبه أربعة عشر دولارًا لم يكن دائمًا هكذا. كان ربّ أسرة، ولديه ابنتان في سن الزواج، يعمل في شركة كبرى للعلاقات العامة بوظيفة مرموقة تُدرّ عليه دخلًا جيدًا سدّد به كلّ أقساط البيت الكبير الذي يسكنونه بميامي. يعيش حياة هادئة ومستقرة، وعلاقته جيدة بجيرانه وزملائه بالعمل. لم يكن أبدًا شخصًا مثيرًا للاهتمام أو محطّ أنظار الزملاء أو الجيران، ليس النوع الذي تدعوه للعشاء في منزلك كي تفاخر به بقية المدعوين، لكنّه شخص محترم ويُعتمد عليه هادئ، وودود، مُحافظ في عاداته وأخلاقه، لكنّه يقبل بالاختلاف ولا يبدّي أنفه في شئون غيره. تخرّج من قسم الدراسات العربية بجامعة نيويورك، ثمّ عمل مع الدكتور درويش في مشروع بحثي لمدة ثلاث سنوات. كان درويش يحبه ليس فقط بسبب القرابة البعيدة التي تجمعهما (ابن عم رامي متزوج من ابنة خالة درويش) وإنّما بسبب طيبته وصراحته.

كان رامي أيضًا مُثابرًا في عمله وهي صفة فارقة في حياة أيّ باحث، ونبّأ له درويش بمستقبل واعد إن واصل الحياة الأكاديمية. لكن وظيفة كبيرة بشركة مشهورة للعلاقات العامة والتسويق جعلته يقرّر أنه. وبعد أن الراتب الذي سيحصل عليه في شهر يفوق ما يمكن أن يحصل عليه في عام

بالجامعة حتى لو صار أستاذًا بها، فقبل. لم يُعجب قراره الدكتور درويش وقتها، استغرب هدر تفكيره في العرض وترك الجامعة. وغضب لأنّ رامي تنازل عن الفرصة التي أتاحها له. كان درويش يحب رامي ويقدّره، لكنّه شعر أنه خصّه بتكريم وتشريف للعمل بجانبه، ثمّ تركه رامي من أجل حفنة دولارات. بالمرخص أن تركه يرحل في امتعاض، وظلّ رامي يسأل عليه مرة كلّ عام، ويتلقّى منه إجابة مُقتضبة. لم يبادر درويش قط بالسؤال عليه، لكنّه سمح لرامي بمواصلة السؤال عنه، ودعاه لزيارته في كلّ مرة أتى فيها لنيويورك. هكذا قابل سلمى حفيدته. كانت سلمى طفلة خجولة، تسعى لصداقة من لا تعرفهم ولا تخشى الغرباء. وحين كان رامي يزور أستاذه في الصيف، كان عادةً ما يجد سلمى التي تقضي الأجازة مع أمها بنيويورك. أحيانًا كان رامي يأتي بابنته ساندا معه ويأخذ سلمى معهما للسينما أو لنزهة. لكن كلّ ذلك انقضى. لم يعد يذهب لنيويورك في الأعوام الماضية، وحين فعل لم يعد درويش يدعوه للزيارة. وانحصرت علاقتهما في المعايدات السنوية من قبل رامي ورد درويش المقتضب عليها. لذا كانت دهشته كبيرة حين دعاه لهذا العشاء. وطبعًا حرص على تلبية الدعوة حتى لو كلّفه الأمر الدولارات الأخيرة في جيبه.

منذ رحل رامي للعمل في تلك الشركة وحياته طيبة ومستقرة. وجدت زوجته ماريا، الكوبية المولد والتي تأتي عائلتها من أصول لبنانية، عملاً كمدرسة للغة الأسبانية بمدرسة خاصة قريبة من المنزل، واستطاعا إلحاق ابنتيهما بجامعة ستانفورد المرموقة، بل وحصلت الكبرى، ساندا، على منحة دراسية تُغطّي مصروفاتها بالكامل. كلّ ما كان يُنغّص على رامي

حياته هو شعوره بالوحدة. لم يكن قادرًا على شرح حقيقة ما يشعر به لأحد، وعندما يحاول أن يشرح لزوجته ماريا ما يقصده بالوحدة ينتهي الأمر بمشاجرة. لذا لساندا، الكبيرة والأكثر عقلاً من مارك، وحاول أن يشرح لها ما يعنيه بالوحدة، لكن الكلمات لم تسعفه. هو المترجم لم يجد من الكلمات الإنجليزية ما يُعبّر به عمّا يقصده بالضبط. وساعتها اختتم أكثر اجتاحه الشعور بأنّ الوحدة هي بالضبط هذا، أن تشرح لابنتك شيئًا بلغة ليست لغتك، لا يمكنها فهمك إن تحدّثت بلغتك. صمتت تلك المرة وغيّر الموضوع، لكن ساندا كانت في تلك المرحلة التي تحاول فيها البنت أن تكون كبيرة، وأن تستمع لأبيها وأمها وتحادثهما في أمور الكبار، كي تُبعد نفسها عن الصورة النمطية للمراهقة التي لا تتحدث إلا عن نفسها ولا تستمع لأحد. ظلّت ساندا تطاردها، ولمام إصرارها بدأ يحكي. في البداية قال لها إنه يشعر بالوحدة بمعنى أنه يعتمد في حياته على نفسه كلية. ذكّرته بأنّ هذا هو وضع الجميع في أمريكا فأثنى على كلامها، لكن هذا ليس العالم الوحيد الذي يعرفه، فهناك عالم آخر مازال يذكره:

— عالم به أهل وأصدقاء يساعدونك في الشدّة، تكونين متأكّدة أنهم هناك، وأنهم سيقفون بجانبك حين تحتاجين لهم، سواء كان هذا الاحتياج عاطفيًا أم ماديًا.

قص عليها قصصًا كثيرة من حياة عائلته التي كان يزورها وهو طفل في الأجازات، ومن حياة الأقارب والأصدقاء والجيران الذين بنى معهم علاقات وقت أثناء العطلة الصيفية، يعود كلّ عام فيجدها قوية، وكأنّه تركهم بالأمس فقط. قالت له إن الإنسان يبالغ دائمًا في تجميل صورة الماضي فهز

www.miaana.com-RAYAHEEN

رآه ثانيًا في أمسي. حكى لها كيف أنه لم يكسب أصدقاء حقيقيين في أمريكا التي عاش فيها طول حياته، بقدر ما كسب أصدقاء في مصر التي لم يقم بها سوى خلال عطلات المدرسة. البعض يلوم ضيق الوقت، لكن الحقيقة أن أسلوب الحياة نفسه هو السبب. سألها إن كانت تستطيع زيارة أي من أصدقائها دون الاتصال مُسبقًا، دون ترتيب موعد، ودون أن يبدو ذلك مضحكًا إن حدث في مصر. الصديق هو من تعرفين أنك يمكن أن تهبطي عليه في أية لحظة.

ظلّ يحكي وهي تستمع، وتقاطعه من حين لآخر بأسئلة، كلّما سألته كلّما انفتح في الحديث معها أكثر، حتى اعترف لها أن الوحدة تشمل التحدّث لبناته وزوجته بلغة غير لغته الأم، تشمل ألاّ يمكنهم مشاركته في الفرجة على أفلام شادية وسعاد حسني وماجدة، أو الاستماع لعبدالحليم سويًا، أن يحتاج للترجمة حين يتحدّث معهم، كأنه مازال في الشركة، ترجمة بالنهار وبالليل، وليس فقط للكلمات بل لترجمة المفاهيم. يجب أن يشرح حين يتحدّث عن شيء يحبّه أو يكرهه، أو حين يحكي لهم عن شيء جرى أو يجري في مصر. الوحدة أن يكون المرء في مكان وكلّ من يحب في مكان آخر، وعليه أن يحاول العبور لهم في كلّ مرة يحدثهم.

لم يكن رامي يخطّط أن يقول كلّ ذلك لابنته، بل لم يكن يعلم أن هذه هي حقيقة مشاعره، لكنّها لما سألته وأجاب، وشعر بالحنان والأمان استرسل في الحديث حتّى انفتح باب في نفسه وخرج منه كلّ ذلك. عندما قال رامي هذه الكلمات لابنته الكبيرة العاقلة سادنا لم يكن يعلم أنه قد بدأ سلسلة من التفاعلات ستنتهي بانهيار حياته بالكامل.

لم تنهار حياة رامي مرة واحدة، بل خُطوة خطوة في سلسلة لم يكن من الضروري أن تفضي بعضها لبعض. بل على العكس، تبدو بعض هذه الأحداث غير مترابطة وغير مبررة، لكن هكذا تسير الأمور أحيانًا، فليست كلّ قراراتنا نتيجة حتمية لما سبقها، أحيانًا نكون مُوزّعين بين اختيارين، ونجد أنفسنا وقد انحرفنا في طريق، ثمّ يسلمنا هذا الطريق لقرار جديد وهكذا. بعد عام نجد أنفسنا في مكان لم نُخطّط إطلاقًا أن نصل إليه، أحيانًا نتراجع، ولكن في معظم الأوقات لا يمكننا فعل ذلك فنواصل التقدم. وأحيانًا نكون مُصمّمين على المضي في طريق، ونكون مستعدين للتضحية بالغالي والنفيس في سبيله. ونرد على أصدقائنا إن حاولوا ثنينا عن قرارنا بأنّنا نعلم الثمن الذي علينا دفعه ولكنّ لا مناص، فهذا الأمر ضروري لنا كي نظلّ أوفياء لأنفسنا، كيلا نفقد ذاتنا أو كي نحققها، أو كي هذا أو كي ذاك، وبعد عشرين عامًا ننظر خلفنا ولا نتذكر أصلاً لماذا فعلنا ذلك.

سلسلة الأحداث التي قادت لتدمير حياة رامي من هذا النوع: سلسلة من القرارات العارضة التي يتخذها المرء دون كثير تفكير، فقد كلّ منها للآخر وفي النهاية إلى انهيار حياته التي بناها عبر ثلاثين عامًا. باع لابنته الكبرى العاقلة تكتون نفسه، وشعوره بالوحدة الذي يفتك به منذ جاء لأمريكا، وأدى ذلك البوح لأمرين: الأول أن ساذج الكبيرة العاقلة، صُدمت من كلام أبيها، وأكّد لديها اعتراف ماكانت تشك فيه منذ وقت طويل، وهو أن الأب لا يحبّهما حقيقةً، وإنّما وجد نفسه في حياة مشتركة معهم فواصل هذه الحياة. وأنها وأختها وأمهما في عذاب، والأب الصامت الذي ليس

لديه هي، يقوله لهنّ في جانب آخر.

أكدّ اعترافه ماكانت تشك فيه سرًا ولاتقرّ حتى على أن تقوله لنفسها، وهو أن الأب من نوع آخر غير هنّ الثلاثة. هنّ الثلاثة "طبيعيات" ومندمجات في الحياة حولهن، أما الأب فهو دائمًا الطرف غير المنسجم، الطرف الغريب، منذ كانا في المدرسة وحتى الآن حين تدعو زميلاتها للبيت. الأم الفضيلة القوية، صاحبة بعض الشيء، ولكنها تتصادق على كل زميلاتها وتعدق عليهن الطعام والرعاية والأسئلة، ومشهورة بين عائلات صديقاتها. الأخت حنونة لكنها لا تختلف عن البنات مثيلاتها في هذا السن. الأب هو الشيء الغريب في حياتهنّ، هو العربي المهاجر، هو الذي لديه مشكلة في التأقلم دائمًا. ساشا لم تتعاطف يومًا مع منطق المهاجرين الذين يتركون بلادهم طوعًا لمكان آخر ثم يشتكون من غربتهم. طول عمرها تشعر سرًا أن أباها تقل بسببها بعيدًا عن الحياة الطبيعية التي تريدها، والآن يبدو أنه يريد أن يشدّهم إلى ماهو أبعد. لم تقل لنفسها كل هذا الكلام، لكنه مرّ في خاطرها، ثم سألت نفسها السؤال المنطقي التالي: ماذا يريد بهذا الحديث؟ إلى أين يريد أن يقودنا؟

الأمر الثاني الذي نتج عن هذه المحادثة هو إدراك رامي لنفسه للأبعاد الكاملة لما كان يشعر به في قرارة نفسه منذ سنوات، و لم يلحظه أو يصيغه في كلمات، أو حتى أفكار واضحة. وبعد أن فعل فوجيء بحجم الهوّة التي تفصله عمّا يريد. فُوجيء بأنّ حياته كلّها سارت في طريق لم يريده، طريق صعب على نفسه احتماله. سأل نفسه لماذا لم يفكر في الأمر بهذه الطريقة من قبل؟ فكر قليلاً، ثم خلص إلى أنه ربّما فكر في الأمر و لم يجره

كثير اهتمام، فقد كان مشغولاً. كان يبني حياته، يبحث عن الاستقرار والتقدّم المهني، ثمّ تأمين وضعه المالي ووضع أسرته، وقبل كلّ ذلك يرعى زوجته وأبناءه ويهتم بتعليمهما وتربيتهما، والبيت، ومن بقي من أهله في مصر ومقتضيات المساعدة في الوفاء ببعض احتياجاتهم، كلّ ذلك كان أحدّ إلحاحًا وضغطًا على حياته اليومية وتفكيره من أن يترك له الفرصة للتفكير في وحدته. الآن، ومنذ رحيل الفتاتين للجامعة وشعوره بالوحدة يتزايد. في البداية فسرها بأنها تلك الوحدة التي تصيب الآباء بعد رحيل أولادهم، لكنّه لما حاول الغمغمة لزوجته وفشل، ثمّ بحث عن أصدقاء ليشاطرهم الحديث، ولاحظ أنه ليس لديه أصدقاء حقيقيون أدرك أن المشكلة أعمق وأكبر. ثمّ جاءت ساشا بأسئلتها وحنانها اللذين أطلقا لشاعره العنان. ومن ساعتها وإحساسه بالوحدة وبالغبن لاضطراره أن يعيش أسير هذه الوحدة بإقناعه، ويحتل مساحة أكبر فأكبر من تفكيره ومن تركيزه. وكلّما فكر في وحدته تلك أكثر كلّما زادت أعمالها في نظره، حتى لم يعد يفكر في شيء سواها.

الأمران الناتجان عن عملية البوح لساشا العاقلة أحدثا أثرًا ثالثًا عند ماريا. فعندما استيقظ القلق بساشا في أعقاب هذه المحادثة، و لم تستطع أن تستنبط وحدها هدف الأب من طرح هذه الأفكار الغامضة، قررت أن تُشرك أختها الأقل عقلاً، مارثا. فزعت الصغيرة، التي قبل الجميع دورها كمجنونة العائلة، لما سمعته، وصرخت في وجه أختها أن ذلك يعني ولاشكّ أن الأب يريد أن يأخذهم من أمريكا ويرسلهم ليعيشوا في مصر. استبعدت ساشا هذا الأمر باعتباره جنونًا مارثاويًا، لكن مارثا لم تسكت،

وظلت تشرح لساندا العلاقة بين الأمرين. الأب في السابعة والخمسين من عمره، لم يعد لديه ما يطمح لتحقيقه في أمريكا، وبعد رحيلهما من البيت يشعر بوحشة، وهو شيء طبيعي. كما أن علاقته بالأم باردة بعد عقود من الزيجة الزوجية، وهو شيء طبيعي أيضًا. ماذا يفعل؟ سألتها مارتا في تحدٍ، وأجابت دون انتظار رد أحدهما: الناس الطبيعيون يدخلون في علاقات حب جديدة أو يخونون زوجاتهم، أما المهاجرون غريبو الأطوار مثل أبيهم فيفكرون في العودة لبلادهم الأصلية. لم تقتنع ساندا، فهذه ليست أول مرة تخرج عليها مارتا بتفسيرات غريبة لأمور في غاية البساطة. فذكرتها مارتا بما حدث لميرنا ولورا منذ عامين، وهدى التي فرّت من بيت أبيها عندما حاول إعادتها بالقوة لسوريا، وغيرهنّ من أصحاب القصص المتشابهة. ثمّ عاجلتها بالحجّة القاضية: "كلهم آباء لبنات في سنّنا، فلقوا فجأة مما سيحدث لبناتهن عندما يقترين من سن الزواج، وكلهم رحلوا أو حاولوا الرحيل في هذا الوقت". لكن ساندا لم تقتنع بعد بالرغم من حجة مارتا القاضية.

كان من الممكن أن ينتهي الأمر هنا، لو أن مارتا المجنونة لم تهرع لأمها الغطسة كي تحذرها من المصيبة التي ستحل عليهن جميعًا، وما لم يكن الشك قد تسرب لنفس ساندا في نفس الوقت، حتى وإن لم تسلم بفكرة مارتا. كان من الممكن أيضًا للأمر أن ينتهي هنا لو أن الأب، السيد رامي نفسه، لم تأخذه الحماسة فجأة، ويقترح على ماريا الغلقة أن يقضوا شهور الصيف الثلاثة في مصر، هم الذين لم يقضوا في مصر أكثر من أسبوعين متصلين. ماريا، التي تحب أن تصف نفسها بأنها مزيج ثلاثي من العملية الأمريكية،

والقوة الكونية، والشطارة اللبنانية، قررت أن تأخذ بزمام الأمور في يدها. وقد أدى قرارها ذلك لتسريع سلسلة الأحداث التي ستؤدي، بعد تسعة شهور من ذلك اليوم، إلى طلاقها من رامي وإفرادها من كل ما يملك، ومن الحق في رؤية ابنتيه.

لم يكن يريد أن يتأخر على الدكتور درويش فهو مهووس بالدقة. وليس معه للبقون محمول كي يتصل به ويعلمه أنه لن يأتي. تخلى عن المحمول مع الأشياء التي وجب عليه التخلي عنها نهائيًا خلال الشهور الثلاثة الماضية. سيصل لنيويورك عند منتصف الليل، ثمّ ماذا؟ سيكون العشاء قد انتهى، ولن يرى سلمى، ومارك سيلعب بقابلته عند منزل الدكتور درويش، عليه أن يكون هناك في الثانية عشرة بالضبط وإلاّ فلن يستطيع العثور على مارك. بحث في الذاكرة وفي الشاشات المعلقة عن علامة يقيس بها تقدم القطار فلم يجد. وعندئذ خلص إلى أنه لا مفر من السؤال إن كان يريد أن يعرف ما إذا كان القطار سيصل في موعده. فكر أن يسأل الراكبة الشابة الجالسة إلى يساره، ثمّ تراجع. على الأرجح أنها لن تعرف. قرر أن يسأل المحصل، وظلّ يتحين عودته للعربة لكنّه لم يأت. بعد دقائق استجمع شجاعته، وقام متوجهًا لمقصف القطار؛ ليسأل أحد المحصلين الجالسين هناك. مرّ بين العربتين وأفكارًا سوداء تعبر رأسه عن وقوعه على الفصيان كالعادة عندما يمر بين عربتي قطار، ثمّ دخل للمقصف، وتوجه للمحصل يسأله. يهاب هذه اللحظة، لا يحب أن يسأل الغرباء، وبالذات الأسئلة التي يستشف منها جهله بالنظام. لام نفسه وهو يهمُّ بالسؤال: لو كان يعرف نظام مواعيد القطارات لما وضع نفسه في هذا الموضع. المحصل

www.mizana.com-RAYAHEEN

ينظر إليه بتحفّز منتظرًا السؤال. يلاحظ رامي قليلاً ثم يطرح سؤاله.

أجابه المحصّل دون اهتمام بأنّ القطار سيصل نيويورك متأخرًا سبع دقائق. شكره رامي بحرارة. ثم ينتبه لها المحصل، ويحثّ طريقه عائدًا. ينظر في الطريق للركاب الجالسين في مقاعدهم، ويحاول قدر استطاعته أن يبدو أنيقًا. عدّ باقة الهدايا مرة أخرى كيلا يبدو هندامه مُهلهلاً، وابتسم لطفل نظر إليه بحدّة و لم يجبه الابتسام، ثمّ عاد لمقعده وجلس ينتظر.

عندما يعيد رامي التفكير فيما حدث يجده طبيعيًا ومنطقيًا، بل وضروريًا. كان لابدّ – في رأيه هو – لكلّ هذا أن يحدث؛ المسألة كانت مسألة وقت، ولو كان حصيفًا لأعدّ العدّة لذلك بدلاً من أن يفقد السيطرة على الأمور، ويجد نفسه بلا مأوى وبأربعة عشر دولارًا فقط من كلّ ما ادّخره طيلة ثلاثين عامًا من العمل. ما يحيّر في نفسه هو البنطال، وموقفهما الذي لم يجد له تبريرًا. وبعد له تفسيرًا، لكنه ليس تبريرًا. لم يكن عليهما أن يفعلا ما فعلاه، ولا أن يقولا ماقالاه له، خصوصًا سالما. مارثا طول عمرها محدودة ويتوقع منها هذه الأمور، أما سالما، العاقلة، فكيف تفسّر سلوكه ومشاعره بهذه الطريقة، وكيف تظن أنه يمكنه أن يلحق بها أو بأختها الأذى؟ هذا ما لم يفهمه ولا يقتنع إن فهمه.

يسأل نفسه كلّ يوم تقريبًا كيف يمكن لبنيته أن يلومانه على مشاعره، على رغبته في الرحيل لمكان يكون فيه أسعد حالاً، هو الذي لم يفعل في حياته سوى تشجيعهما على البحث عمّا يسعدهما. كيف يكون بحثه عن سعادته لهديتا لهما أو لأمهما. وإذا كان قد اختلف مع مارثا، فهذا

شأنه هو، لم تأخذ البنتان جانبًا في مثل هذا الخلاف؟ لامهما كثيرًا، ولام على نفسه أكثر عدم قدرته شرح موقفه لهما بما يجعلهما يفهمانه. لكنه لم يكن جيدًا في شرح مشاعره يومًا، وكلّما همّ بالتحدث معهما انعقد لسانه وطارت الكلمات. يريد أن يقول أشياءً كثيرة، لكنّها تنتهي دومًا بأنّ تخرج من فمه في كلمات قليلة وغير محفّزة على النقاش، فترد البنت بكلمات قليلة مثلها، وتموت المحادثة. شيء ما في طريقته يطفي، المحادثة، هذا ما قالته له ماريا ألف مرة على الأقل، وهو يعلم أنها محقّة في هذه النقطة.

الأمر الذي لا يجده رامي منطقيًا أو ضروريًا، أو حتى طبيعيًا هو فقدانه عمله في نفس الوقت. صحيح أن المثل يقول "إنّ المصائب لا تأتي فُرادى"، لكن هناك أمثلة كثيرة، مثل "إنّ الضائقة تفرج حين تستحكم حلقاتها"، فلماذا تحقّق هذا المثل بالذات في حالته. بعد كلّ هذه السنوات من العمل في الشركة، وبعد الصعاب التي مرّ بها والمكاسب التي حققها للشركة، والعلاقات التي نمّاها مع زملائه ورؤسائه بل وأعضاء مجلس الإدارة، بعد كلّ ذلك يتمّ فصله، هكذا دون مقدّمات، مثل فيلم رخيص. رامي مترجم، وإن كان المسمّى الوظيفي لمنصبه أكثر فخامة؛ كاتب كبير. كبير هي ترجمة غير دقيقة لكلمة SENIOR التي فشل رامي في العثور على ترجمة دقيقة لها في هذا السياق، وهي في حدّ ذاتها مفارقة طالما تذكّره بحيث الوظيفة التي يقوم بها. ما يفعله ككاتب كبير هو أساسًا ترجمة مواد إعلانية وترويجية من الإنجليزية للعربية، مع تحويرها بحيث تُلائم السوق العربي وذوق المستهلك. وهو يفعل هذا لعدد غير محدود من الشركات

المتعاقدة مع شركتهم، أحيانًا لكلّ منتجاتها وأحيانًا لمنتج واحد. ومن ثمّ فعليه كتابة مواد ترويجية لأشياء متنوعة قد تكون حفّاضات، تليفونات محمولة، مشروبات غازية، مشروعات عقارية، جلسات تخسيس وتدليك، ساعات، شيكولاتة، سيارات، وعشرات السلع والخدمات الأخرى. يدخل مكتبه في الصباح وهو لا يعلم ماذا سيهبط عليه في ذلك اليوم؛ قد يكون طرازًا جديدًا من السيارات أو لبوسًا حافظًا للحرارة. لا يهم، وعليه أن يكون خلاّقًا ويجد شيئًا جذابًا في هذا المنتج. يأتي المنتج ومعه ملف يتضمّن مواد ترويجية بالإنجليزية، وعليه أن يقدح ذهنه في ترجمة الرسالة الإعلانية لشيء يمكن استخدامه في السوق الخليجي، أو المصري أو الليبي، على حسب.

يزيد في الأمر، بل ويُفرح في مرات أن يُوسّع السوق، ويأتي بعملاء جدد من أسواق الشرق الأوسط. فعل ذلك مثلاً مع مارك منذ عدة سنوات عندما أرسلتهما الشركة للأردن لمدة عام. لكن الشركة غيّرت فجأة عن كلّ هذا، وقررت إنهاء عقده. أتى لمكتبه في الصباح فاستدعاه مديره وأخبره أن الأزمة الاقتصادية تضطر الشركة لتركه يرحل. لا يريد أن يرحل. سأله عن علاقة الترجمة بالأزمة الاقتصادية، فقال له مديره إن الكثير من الشركات المتعاقدة معهم تقلصت أعمالها في الشرق الأوسط نتيجة الأزمة، ومن ثمّ لم يعد الأمر يستحق الاحتفاظ به. قال له هذا، وابتسم. قال رامي بعض الأشياء التي تُقال في هذه الأحوال، لكن المشهد كان مُهيئًا بدرجة تتجاوز تمثيله، فابتسم ليحافظ على مابقي له من كرياء، وأشاح بذراعيه في الهواء، بروح رياضية، وجمع خلجاته من المكتب ومضى. الضحك في الأخر أن

ماريا استطاعت، بعونة اللحامي طبعًا، أن تضع يدها على مكافأة نهاية الخدمة ومرتب الشهور الثلاثة التعويضي. وها هو وأربعة عشر دولارًا في جيبه، وحقيبة كبيرة لا تحتوي إلا على بعض الثلابس، جالس منذ ست وعشرين ساعة في قطار، ذاهب لشخص لم يره منذ سنوات في مدينة لا يكاد يعرف فيها أحدًا.

انهارت حياته خلال عام بالضبط، ولكنّ الشهور الثلاثة الأخيرة كانت الأشدّ قسوة. وقع الطلاق بعد ستة شهور من قرار ماريا أخذ زمام المبادرة، وفقد كلّ ما يملك خلال الشهور الثلاثة التالية، عدا في ذلك عمله ومستحقّات نهاية الخدمة، كما أرغمته المحكمة بألا يقترب من بيته، أو من ماريا بمسافة خمسمائة متر، وذلك لمدة عام قابل للتجديد. وتبقى معه ستمائة دولار، عاش بهم خلال الشهور الثلاثة الأخيرة، عدا في ذلك ثمن تذكرته لنيويورك. أقام خلال تلك الفترة في غرفة أحد الأصدقاء الذي كان في عمل خارج مياهي، ودعاه للإقامة مكانه دون مقابل حتى يجد حلاً لمشاكله. تخلّص من كلّ المصروفات غير الضرورية، كالتاكسي، والتليفونات، وتناوُل الطعام خارج المنزل، والذهاب للسينما وماشابه ذلك. كما ابتعد عن السلع المكلّفة كاللحوم ومعظم الفواكه وحبوب الإفطار، وبذلك أمكنه أن يعيش بخمسة دولارات في اليوم. لم يكن لديه أية فكرة عمّا سيفعله بعد نهاية الشهور الثلاثة هذه. وبالأمس، في اليوم الأخير قبل عودة الصديق، اتصل مارك صديقة بتليفون هذا الصديق يبحث عنه لغرض ما فوجد رامي.

لم يكن رامي ومارك قد التقيا أو تحدثا منذ أكثر من عامين، لكن صداقة

قوية كانت قد توطّدت بينهما خلال إقامتهما في الشرق الأوسط لحساب الشركة منذ عدة سنوات. وفيها لم يكن أيهما يحتاج للمساعدة. مارك يقدم نفسه دائمًا باعتباره ابن أفلاطون، في إشارة إلى أنه الكاثوليكية وأبيه اليهودي. ورغم انعدام صلته بالدين اليهودي إلا أن اسم عائلته –ليرمان– ومعرفته ببعض العربية مكّناه من إقناع الشركة بإرساله لإسرائيل؛ لتسويق بعض منتجات الشركات المتعاقدة معها، وذلك في نفس الوقت الذي كان فيه رامي ذاهبًا لعمان لمدة ستة، ليعمل على تسويق هذه المنتجات في البلدان العربية.

لم يكن عملهما متداخلاً، لكنّهما تقاسما جيدًا سويًا، وأدارا عملهما بنجاح منقطع النظير خلال هذا العام من مكتب صغير استأجراه في العاصمة الأردنية. كان مارك يكره الإقامة في إسرائيل، ويشكو لرامي صعوبة التعامل مع الإسرائيليين ويدخل في مشاداّت لا تنتهي معهم، ومن ثمّ قرر الإقامة في عمان التي كان يحب هدوءها وناسها. وقد جعل ذلك رامي أكثر انفتاحًا إزاءه، إلا أن الذي حبّبه فيه فعلاً هو قدرته غير العادية على اختراق حواجز الخرج والتحفظ التي يحتمي بها رامي. مارك يتحدث بصراحة ودون خجل عن مشاكله مع عائلته ومع نفسه، ومع حياته ومع الجنس الآخر، ومع عمله ومع الحياة في أمريكا، لدرجة أنست رامي أنه أمريكي. وبدأ رامي نفسه يتفتح في التعامل معه حتى أصبحا يقضيان معظم الأيام سويًا في عمان، وفي أماكن أخرى بالأردن. لم يكن رامي يدري بوجودها أصلاً. عملاً سويًا وعاشا سويًا، وسافرا كثيرًا ونجح عملهما نجاحًا باهرًا، وصنعا لنفسيهما ثروة صغيرة وكثيرًا من الذكريات.

ثمّ عاد، وبعدها بقليل تشاجر مارك مع مديرهما وترك العمل بالشركة، ثمّ انتقل للعمل مع شركات منافسة، وانقطعت أخباره وتفرّقت بهما السُبل. انشغل رامي في حياته وعمله وأهله والمحيطين به، وغاب مارك عن دائرة اتصالاته حتى ذبلت الصلة بينهما. وهاهو فجأة على التليفون بالصدفة. سأله مارك عمّا يفعله في غرفة الصديق المشترك، وعلى غير عادته تجاوز رامي حاجز الكبرياء، وأفضى لمارك بما ألمّ به خلال العام المنصرم. عرض عليه مارك فورًا الانتقال للإقامة معه في منزله ببروكلين. قال إنه يمكنه البقاء مثلما يحلو له، ويمكنه أن يترجم بعض الأشياء للشركة التي يعمل بها، فهناك دائمًا بيان صحفي أو شيء ما يحتاج للترجمة، وربما يمكنه أن يترجم بعض الأشياء لموقع الشركة على الإنترنت أيضًا. فهم يعملون مع شركات خليجية، ومن وقت لآخر يحتاجون لترجمة شيء صغير بسرعة، وهي مُعلات صغيرة لكنّها تُدرّ مالاً. ربما يستطيع أن يعمل منها خمسة أو ستة في الشهر، عما يدر عليه حوالي ألف دولار، وهو مبلغ لا بأس به في ظلّ الظروف الحالية. ثمّ من يدري، ربما يحلو مكان أو يظهر شيء. هناك دائمًا أشياء تظهر إن كنت تعرف أحدًا، ومعارف مارك كثيرون. والشقة كبيرة، ومن ثمّ لن يكون في طريق أحد.

هناك أيضًا السيارة النصف نقل الحمراء التي اشتراها مارك مؤخرًا، ويمكنه أن يستخدمها في غيابه إن أراد. قال له مارك أن يأتي ولا يشغل باله بشيء، فما الحاجة للأصدقاء إن لم يكن في هذه الأوقات العصيبة. كان لطيفًا وودودًا، تمامًا مثلما كان أيام الإقامة في عمان، و لم يكن لدى رامي أيّ حل آخر، فقبل عرضه. اتصل بأستاذه القديم قبل سفره؛ ليرى ما إذا

كان موجودًا وراغبًا في رؤيته، فعزمه على العشاء بمناسبة زيارة حفيدته. لشعره ذلك ببعض الراحة، كأنّه هو القديم وله أصدقاء ومعارف، ويبوت تدعوه. اشترى التذكرة بمعظم ما بقي معه من مال، وها هو ذا في قطار ذاهب لنيويورك لكن بعد فوات موعد العشاء، وربما موعد مارك أيضًا، حقيقةً للصاتب لا تأتي فُرادى.

خطر بباله أن يسأل الدكتور درويش عن وظيفة، لكنّه طرد الفكرة من رأسه بسرعة: لن يجرؤ، مهما كانت حالته سيئة. لا يستطيع إهانة نفسه لهذا الحد. علاقته بمارك تسمح بذلك، أما الدكتور درويش فأمر آخر، عليه الحفاظ على ما بقي له من احترام في أعين الناس الذين يعرفونه ويحترمونه. لا يستطيع أن يفقد هذا. كما أن الدكتور درويش لن يمنحه وظيفة بعد ما جرى بينهما في الماضي حتى لو كان لديه واحدة. لا، لا يستطيع طلب المساعدة من الدكتور، لكن سلمى يمكن أن تساعده.

سلمى تعرف سامًا منذ كانت تأتي لقضاء الصيف في نيويورك، صحيح أنّهما ليستا على علاقة وثيقة، لكنّهما كانا يستلطفان بعضهما كثيرًا وهما صغيرتان. كانت سامًا تلحّ عليه أن يصطحبها حين تعلم أنه ذاهب لزيارة الدكتور درويش وأنّ سلمى موجودة. كانت الطفلتان تمضيان قضاء الوقت سويًا، أحيانًا كثيرة دون أن يفعلا شيئًا. فسلمى وقتها لم تكن تتحدث الإنجليزية سوى بضع كلمات وجمل مفككة، وطبعًا سامًا لا تعرف العربية. لكنّهما يلعبان مع بعضهما دون ملل، في غالبية الأوقات دون وجود لغة حقيقية – مجرد دمية تكفي. وكان هو يحب صداقتهما لأنّها توحي له بما يشبه إمكانية تحول ابنته لفتاة مصرية، على الأقل يومًا

ما إذا ما أصبح لديها صديقات في مصر. كما كانت ماريا زوجته تؤيد هذه العلاقة؛ لأنّها تتيح لها التخلّص من سامًا بضعة أيام. وحين يذهبون لمصر في الأجازات كانت الفتاتان تلتقيان – دون أمهاتهما اللذين يرتاحان للزيارة بالتليفون. كبرت سلمى وتوقفت أمها عن المجيء لنيويورك لسبب لا يعلمه رامي، لكن الفتاتان وجدا بعضهما بالصدفة على إحدى شبكات التواصل الاجتماعي الموجودة على الإنترنت، وأصبحتا تتبادلان الرسائل من وقت لآخر.

لم تذكر له سامًا شيئًا عن سلمى منذ بدأت الأحداث، وهو لا يعلم شيئًا عن موقفها مما حدث بينه وبين البنون، أو حتى ما إذا كانت تعرف عما حدث. لكنّه يريد أن يراها كي يحكي لها ويسألها عن رأيها، ربما تساعد. ربما يمكنها أن تقنع سامًا بأنّه لم يقصد إيذاءها أو إيذاء أختها، بأنّه لم يفكر في اختطافهما أبدًا، بأنّ ذلك ظلم وجنون. وربما لو اقتنعت سلمى لأمكنها أن تقنع سامًا بحسن نواياه. ربما لأمكنها تذكيرها بأنّه أبيها. أو على الأقل، يمكنها أن تخبر سامًا نيابة عنه أنه يحبها رغم كلّ ما فعلت، هي وأختها المجنونة. وربما لو اقتنعت سلمى، ثمّ سامًا، ثمّ مارك، لأمكنه أن يراهما من جديد، بعد أن تستقر أحواله مع مارك في بروكلين، بعد أن يجد عملاً جديدًا، ويقف مرة أخرى على قدميه. لكن ماذا سيفعل الآن؟ ربما يستطيع العثور على سلمى في الصباح، إن لم تكن عائدة لمصر فورًا – لا، لا بد أنها باقية على الأقل لليوم التالي. ولكنْ هل سيجده مارك الليلة، وكيف؟ وماذا لو لم يعثر على مارك هذه الليلة، أين يذهب؟

طرد هذا السؤال فورًا. ذكّر نفسه بعدم جدوى الخوف. صحيح أن

أحداث العام الماضي كانت كابوسية، لكنها في نفس الوقت حرّرته من خضوعه لمخاوفه السرية. عندما يحدث لك الأسوأ، لا يبقى عندك الكثير كي تخاف عليه. ما اكتشفه رامي خلال العام أنه قد عاش حياته كلّها وهو يخاف، ويكتم الخوف عن نفسه. أدرك، بعد أن انهار كلّ شيء من حوله، أنه كان يخاف بالضّبط من حدوث ذلك. ظلّ يعمل ويكافح، ويبني علاقات حسنة عن حوله، ويتفادى المشاكل، يتخلص للنظام ويتفادى أيّ أمر يمكن أن يضعه في موقفٍ مخالفٍ للقانون أو للعرف. إقراراته الضريبية ملأها بعناية، الأمانة، دفع كلّ فواتيره في موعدها، لم يخالف قانون المرور أبدًا، لم يرفع صوت الموسيقى يومًا في بيته، لم يُخرج القمامة في غير موعدها، لم ينظم حفلاً في غير أيام نهاية الأسبوع، لم يشعل نارًا في غابة خارج الأماكن المسموح فيها بذلك، لم يشوِ لحمًا على الشاطئ، لم يفعل أيّ شيء يمكن أن يُفسّر على أنه استهتار بالقواعد العامة، سواء كانت قانونًا أم مجرد عادات، وذلك على أمل أن يحتويه النظام ويحميه، فلا يجد نفسه يومًا في المواقف التي يجد فيها الكثير من المهاجرين أنفسهم: في الشارع، مطرودين من أعمالهم وحياتهم الاجتماعية تتهاوى من حولهم. لكن ذلك بالضبط ماحدث له. واستطاعت ماريا، التي كانت دومًا أكثر منه حيلة وأسرع، أن تُحنّك النظام لصالحها وتلوي قواعده، بحيث وجد نفسه في الشارع وحياته تتهاوى. لم يُصدقه أحد، لم يقف أحدٌ لنجدته، حتى بقال الحي لم يدعه يأخذ سلعًا دون دفعها حين رفضت ماكينة الدفع قبول بطاقة ائتمانه. انقضّ عليه الجميع تمامًا مثلما كان يخشى.

في منتصف الطريق، في وسط تسلسل الأحداث الدرامية التي وقعت

له، توقّف أكثر من مرة ليفكّر فيما يحدث. هل كان ذلك حتميًا فعلاً؟ ألم يكن يستطيع التراجع في المنتصف؟ لو كانت ماريا قد عزّت له عن تفهّمها لمشاعره في بداية الأمر بدلاً من تهديدها له، لربّما لم يكن الأمر قد تطور بالشكل الذي تطوّر إليه. لو لم تكن مارثا بالسفالة التي أبدتها بعد ذلك مباشرة – وبدعم من ماريا، لربّما لان موقفه ساعتها. ولو لم يكتشف أن ماريا كانت تسجّل محادثاتهم سرًا لما صمّم على الطلاق بهذا الشكل، لكن خيطًا أسلم لآخر، حتى وجد نفسه في هذا القطار.

أثناء الشهور الثلاث الأخيرة، بعد أن توقّف عن محاولة استئناف الأحكام الصادرة لصالح زوجته، بعد أن استسلم للقدر الجديد – بل ووجد فيه بعض الراحة، قرّر أن ينفّذ ما اتهمه به الجميع: أن يعود لمصر. ضحّى بقرّر الغذاء ليومين واشترى بطاقة اتصال دولي، واتصل بأخيه في القاهرة. استمرّت المكالمة الأولى ست وأربعين دقيقة، شرح خلالها لأخيه ماحدث خلال الشهور التسعة الأخيرة وما آلت إليه أحواله، وأخبره عزمه العودة لمصر، وتناقشا فيما يمكنه أن يفعله حين يعود. واتفقا في نهاية المحادثة على أن يتصل رامي به ثانية بعد ذلك بأسبوع، بحيث يكون قد استطاع بعض الأمور تمكّنه من اتخاذ قراره.

قضى رامي هذا الأسبوع يرسم خُطط العودة، وما يمكنه أن يفعله حين يعود. يجلس في حديقة عامة معظم النهار، ويسجل في دفتر صغير أسماء كلّ من كان يعرفهم في مصر، وآخر مرة تحدّث مع أو قابل أيًا منهم، وآخر ما لديه من معلومات عن هذا الشخص. في يوم آخر يذهب للمكتبة العامة، ويبحث على الإنترنت في الأنشطة التجارية الموجودة بمصر التي

www.miazna.com-RAYAHEEN

لها علاقة بخبرته، ويتصفّح مواقع شركات الإعلان والدعاية والعلاقات العامة، ثمّ يكتب ملاحظات حول أنواع العمل التي يمكن أن يقوم بها، وأسماء وبيانات الأماكن التي يجب أن يستطلعها. في يوم ثالث يسجل ملاحظات حول المكان الذي يمكنه أن يقيم فيه. في البداية طبعًا سيقيم عند أخيه. ويمكن أيضًا أن يقيم بشققهم الصغيرة في الإسكندرية حتى تستقر الأمور. يسجّل ملاحظة بذلك، ثمّ تذكّر البيت الذي كان والداه يقيمان به في كوبري القبة، ربّما يكون من الأنسب أن يقيم بهذا البيت، فيسجّل ملاحظة كي يسأل أخيه عنه، وهكذا. ما تبقّى في بطاقة الاتصال يكفي للحديث لمدة ست عشرة دقيقة؛ فكّر أن يشتري بطاقةً أخرى، لكنّه قرر في اللحظة الأخيرة ألا يفعل. سيتصل ويتحدّث مع أخيه عمّا لا يتجاوز هذه الدقائق، ويشتري البطاقة بعد ذلك للمكالمة التالية. وقد كان قراره صائبًا، لأنّه بهذا قد وفّر لنفسه عشرة دولارات ستُطعمه لمدة يومين كان سيخسرهم دون سبب. فالمكالمة الثانية لم تستغرق أكثر من ست دقائق، ومازال رامي يحتفظ ببطاقة الاتصال ودقائقها المتبقية في محفظته.

رامي رجل مُهذّب ووديود، ولا يحب المواجهات ويميل لاتمماس العذر للآخرين، لكن ذلك لا يعني أنه غبيط. وقد فهم من الدقيقة الأولى للمحادثة ما يريد أخوه أن يقوله له، وبعد أن قضى دقيقة ونصف يستمع لتلعثمه سأله مباشرة إن كان ينصحه بعدم العودة لمصر، فأراح أخاه من عناء اللف والدوران، ووفّر لنفسه دقائق إضافية في بطاقة الاتصال. ردّ أخيه بالإيجاب؛ ثمّ قضى دقيقتين أخريين يشرح لماذا يعتقد أن عودته في هذه الظروف ستكون كارثة؛ تضعه في موقف لا يحتمل اجتماعيًا، وتضرّ

بالأسرة كلّها، وكيف أنه لن يستطيع أن يقف على قدميه في سوق لا يعرف عنه شيئًا ودون مهنة مطلوبة في مصر، وفي سنّه هذا ومع استحالة تأقلمه مع الحياة في مصر في ظلّ تعوّده على نمط الحياة الأمريكي. وعندما سأله عن بيت الوالدين ردّ أخوه بحصيبة أن النبش في مثل هذه التفاهات لن يحلّ المشكلة، وأنه مُرحّب به إن أراد القدوم ضيفًا لأي مُدة يريدها، أمّا فكرة الاستقرار في مصر فهي أمر آخر، ومتطلباته لا يقوى عليها. شكره رامي لصراحته وتواعدا على مداومة الاتصال، وأغلق الخط قبل أن يستهلك دقيقةً سابعة بلا جدوى.

يفكر رامي في كلّ ذلك، ويهز رأسه ساخرًا من نفسه ومن حياته. يُعيد عدل باقة الهدايا للمرة العاشرة، ويرقب بقلق من نافذة القطار. الراكبة الشابة غادرت في المحطة السابقة. عربة القطار خاوية تقريبًا يبدو أن القطار يدخل محطة "بن-نيويورك". فجأة عاد السؤال: ماذا لو لم يعثر على مارك أمام بيت درويش؟ كان الاتفاق أن يأتي لاصطحابه بعد العشاء، وقال مارك إنه سيأتي قبل منتصف الليل بقليل. ماذا لو كان قد جاء وانتظره ورحل؟ أو سأل الدكتور درويش فقال له إن رامي لم يأت للعشاء، فظن أنه غيّر الخطّة ورحل؟ أين سيذهب رامي بدولاراته الأربعة عشر الأخيرة؟ ليس لديه شيء: لا مال ولا بطاقة ائتمان ولا أي شيء. ولا يعرف حتى أين يسكن مارك. يمكن أن يُحاول الاتصال به، لكن ماذا لو كان تليفونه معطّلًا أو خارج الخدمة. أين يذهب؟ وماذا لو كان مارك قد عرض عليه المجيء من باب الإحراج أو حتى الخداع؟ لكن لماذا يخدعه مارك؟ لماذا يجرّه إلى هنا ويعطيه أملًا كاذبًا إن لم يكن يريد مساعدته؟

هل يريد الانتقام منه لشيء فعله في الماضي؟ يفكّر بسرعة إن كان قد فعل شيئًا لمارك في الماضي ولا يجد. فلماذا يجرّه إلى هذا المكان كي يتخلّى عنه إذًا؟ لماذا يتوقّد إليه حتى يدفعه للقفز في قراعيه، ثمّ يتركه يهوي على الأرض؟ لكن يمكن أن يرحل مارك من الزهق، بعد أن ينتظر ولا يجده.

عقل رامي يعمل بسرعة شديدة الآن، والقطار يتوقّف داخل المحطة. أين يذهب لو لم يجد مارك أمام منزل درويش؟ أين يقضي الليلة؟ لا يمكنه أن يطلب من الدكتور درويش إيواءه، لا يجرؤ على ذلك، ويعلم أن الدكتور درويش لا يحب هذه الأشياء البتة. ماذا يفعل إذن لو لم يأت مارك؟ هل يجد فندقًا يقبل به دون بطاقة ائتمان؟ وكيف سيدفع؟ هل يمكن أن ينزل في فندق رخيص، ثمّ يبحث عن عمل ويدفع عندها؟ لكن من الذي سيوظّفه؟ لقد حاول في مباني و لم يلقَ سوى السخرية. لم يتمكّن حتى من الحصول على وظيفة ساقي في بارٍ لا خبرة له، ولا أحد يريد رجلاً في منتصف العمر وذي لكنة وسحنة عربية. ربّما يجد وظيفة في حمّال مرجر، في المطبخ. لن يلحظ أحد لكنته هناك، لا زبائن ولا أطفال لتحمّض وجوههم حين لا يفهمون حديثه. ولكنّ كيف يجد وظيفة في حمل مرجر اليوم أو خلال أسبوع؟ لا، لن تسير الأمور بهذه الطريقة. يفكّر إن كان يعرف أحدًا يمكنه أن يساعده؛ هل يتّصل ما بقي له من كبرياء ويطرق باب الدكتور درويش في منتصف الليل ويسأله أن يأويه؟ ثمّ يسأله في الصباح أن يجد له عملاً؟ لا يمكن، لن يجرؤ، وإن طرق الباب فلن يفتح له أحد في هذه الساعة. من يساعده إذًا؟ هل يبيت في سنترال بارك؟ وإلى متى؟ معه أربعة عشر دولارًا؛ يمكنه أن يعيش بها ثلاثة أيام لو قضى الليل في سنترال

بارك. لكن ماذا يفعل بعد ذلك؟ يفكّر ويعلم أنّه يتوه بأفكاره: لا يعرف أحدًا أصلاً كي يسأله المساعدة. لكن لم سيختفي مارك؟ ألم يكن هو من عرض المساعدة؟

الركاب يغادرون القطار، ورامي يجر قدميه وحقيبته شبه الفارغة. الركاب القلائل يخرجون من القطار بسرعة؛ إما يقابلهم أحد أو يتوجّهون بثقة لمكان ما. أما رامي فيسير وهو يُقدّم رجلاً ويؤخّر الثانية. يمشي وكأنّه لا يريد أن يمشي. يؤخّر خروجه من الرصيف لصالة المحطة كأنّه يؤخّر مقابلة مصيره الذي لم يعد يعرف كيف يواجهه. يخاف الساعات القليلة القادمة، والقرار الذي يجب أن يتّخذه ولا يعرف ماهو. يجرّ حقيبته ويسير بخُطىً متثاقلة ويكاد لا يقوى على رفع عينيه ناحية صالة المحطة في نهاية الرصيف. لكنّه يسير، مُضطرًا، ويلقي بنظرة خاطفة نحو الصالة المظلمة لعلّه يجد مارك واقفًا. لكن لماذا يظن أن مارك يمكن أن يأتي للمحطة وقد اتفقا أن يلتقيا عند بيت الدكتور درويش؟ يسأل نفسه مرةً أخرى إن كان قد أعطى مارك العنوان الصحيح. يصل لصالة المحطة ويلقي نظرة سريعة على المكان؛ لا أحد في الصالة غيره، طبعًا لا أحد. المطاعم مُغلقة والأضواء خافتة. فكّر أن عليه الإسراع ليلحق بالترو الذاهب ليبيت الدكتور درويش، لكنّه لا يجد طريقه للترو. كلّما ذهب من ممرٍ وجده مُغلقًا. "ربما يمكنني أن أبيت هنا، على هذه المقاعد، وفي الصباح أذهب لمقابلة الدكتور درويش وسلمى، وأبحث عن مارك من هناك". فكّر وقرّر، وواصل السير في ممرات المحطة بن بحثًا عن مكانٍ ينتظر فيه الصباح.

3

فرسان الدمار

سأنتظر ساعة أخرى، مازال هناك وقت قبل موعد عشاء سلمى. رفعت من قدح الماكياتو الرابض أمامي على المنضدة. كلّ عشر دقائق يرمقني النادل بنظرة خالية من أيّ تعبير، كأنه يتأكد أنّي مازلت هنا. أعلم أن هيئتي لا تلائم المكان، لكن سيليا فضلته. اقترحت عليها مقهى المحطة المركزية، فهو أكبر، وزبائنه أقل تسفّلًا من هذا المكان. كما كان من المفترض أن تصل سلمى من واشنطن في وقت مقارب، وفكّرت أن أنتظرها بالمحطة بعد مقابلة سيليا وأصطحبها للبيت؛ سنحت سلمى ذلك، فهي لمحت أن ينتظرها أحد. لكن سيليا قالت إنها تفضل "ماكياتو" القريب من مكتبها. لم أجادلها. سأقضيها لمدة ساعة على الأكثر، ولا وقت للجدل

في مكان اللّقاء. قالت: "دعنا نلتقي في ماكيالوا؛ هل تذكر هذا المقهى؟"، طبعًا أذكره، هي التي جاءت بي هنا أول مرة. كنا في وسط يوم عمل لا ينتهي في مبنى الأمم المتحدة القريب، وقالت لي بدلال إنّي أرهقت نفسي في العمل واستحقّ جائزة، وأنها ستأخذني لمكان جديد. ابتعتها وقلتني لها. همست أن قلة عثارة تعلم بوجود هذا المقهى، وجعلتني أعدها ألاّ أدل أحدًا عليه دون استئذانها. لكنه تحوّل بعد ذلك بأسابيع قليلة لملتقى موظفي الأمم المتحدة كلّها؛ لا شيء يبقى سرًا في هذا المكان.

موعدنا في الخامسة. وصل قطاري بعد الظهر ولم يكن لديّ ما أفعله، فذهبت لشراء بيجيل من شارع 21 وعدت. طلب لي أن أحضر له بعض البيجيل. سألته إن كان يريد شيئًا فقال بيجيل. لم يقل بيجيل من موتريال، ووجدت من العبث أن أشتريه من هناك: لن يكون طازجًا بعد اثنتي عشرة ساعة في القطار، ولن يأكله. ومن ثمّ قررت شراءه من نيويورك. أتذكّر هذا المحل؛ كان يأخذنا إليه ونحن صغار. تسكّعت في الجادة الأولى حتى شارع 21 حيث اشتريت المطلوب، وعُدت سيرًا على الأقدام. لابدّ وأنّ هيأتي مشعثة ثمانيًا الآن. رواد اليار يشعرون أناقة، بل شيئًا أكثر من الأناقة. مزيجًا من التعود والاستغناء والانشغال، كأنهم لا يحوزهم شيء. وكأنهم عدود ويريدون إنفاقه فيما أتوا له -بعض النهر أو الإسبرسو أو دردشة؛ كي يفكوا أعباء العمل ويضعوا مسئولياته جانبًا- قبل أن يركضوا لموعد آخر، أو عمل آخر، أو سهرة أخرى غالبًا ما تجمع النهر والعمل سويًا. يرتدون بدلات غامقة، بين الرمادي الغامق والأسود، وربطات عنقهم

عليولة ثمانيًا أو تسعًا عن رفاقهم قليلاً. قمصانهم فاتحة، ولا أحد فيهم يبطر بملابس الآخر أو يعايرها؛ فهم يعلمون أنهم كلّهم يرتدون ملابس باهظة الثمن، ربّما بتوقّف واحد ليدي إنجيان بربطة عنق أو بصوف بدلة عندك لكن ذلك هو الاستثناء. القاعدة أن تتجاهل هذه الأشياء وترتفع عنها – بعد أن تكون أتقنتها حتى صارت جزءًا منك. لا يأتي ذلك إلا بعد مران، شأن اللياقة البدنية، وتتبدل سريعًا إن خرجت من الخلية. أعرف بعض الوجوه هنا، فقد عملنا في نفس المنظمة. هناك وجوه تظلّ تتذكّرها بلا سبب، ربّما تقابلنا في أحد اجتماعات التنسيق التي لا تنتهي. نرى بعضنا، ونعرف ربّما بعض أسمائنا، لكن لا شيء يدعونا لتوثيل المعرفة أكثر. أعرف هيئتهم تلك جيدًا، فقد كانت هيئتي لسنوات طوال. أما الآن فأجلس وحدي، أرتدي ملابس تكاد تكون رثّة، أنتظر سيليا التي تأخرت في المبنى، وأحمل كيسًا ورقيًا به بيجيل لأبي.

اتصلت بأبي لأسأل عن موعد وصول سلمى، فقال لي بضيق شديد –أعرف هذه النبرة– إن "سلمى هانم" فوتت قطارها، ولن تأتي قبل منتصف الليل. منتصف الليل؟ سألت، وماقائدة عيد الميلاد إذن؟ رد عليّ بغلظة صبر أن هذا ليس عيد ميلاد بل هشاء، ثمّ تساءل بسخرية عمّا إذا كنت أنتظر وجود بالونات وطراطير، وطلب مني ألاّ أتأخر عن السابعة.

في الخامسة والربع دقّ جرس تليفوني، سيليا:

– اتصلت بك منذ نصف ساعة، لكن تليفونك كان خارج الخدمة. أين أنت الآن؟

– ماكبالو مثلما قلت.

– آسف، لكني سأتأخر قليلاً. هناك "حادث" في دارفور، وسأضطر للبقاء في المبنى لساعة أخرى حتى أنتهي من إعداد البيان.

– حادث من أي نوع؟

– المعتاد.

– أين؟

– في القاطر.

– كيف؟

– لا، التعداد التفاصيل لم تتضح بعد، لكن هناك حوالي خمسة قتلى.

– حوالي؟

– نعم، التقارير متضاربة.

– ماذا يقول موظفونا في الميدان؟

– كل مكتب يذكر أرقاماً مختلفة. أنت تعرف، هذا جزء من المشكلة. ومكتب الأمين العام يريد التأكد من الرقم، قبل أن يقرروا لهجة البيان.

– هل لديك فكرة كم من الوقت سيستغرق هذا؟

– ربما ساعة أو ساعة وربع. لن يستغرق الأمر أكثر من ذلك، هذا حادث اعتيادي. سأتأكد فقط من الرقم، ثم أضبط اللهجة، وأمرر المسودة من المدير ومن البعثة في الخرطوم، وأرسلها للدور الثامن والعشرين.

– سأنتظر، لكن تذكّري أن لدي عشاء بيت أبي في السابعة.

– ألا تستطيع التأخر ساعة أو ساعتين؟

– هل تحرجني؟ هل نسيتي أبي؟

– سأفعل ما في وسعي، وسأحيطك علمًا بالتطورات.

– سأنتظر.

"سأنتظر"، قالت لرئيس بعثتنا، "سأقضي الليلة هنا وأعود غدًا". في البداية رحب بمبادرتي، فلم يكفّ النهار الذي قضيناه في معالجة المشكلة، ويجب عليه أن يعود بالطائرة للخرطوم قبل الغروب. قواعد تشغيل الهليكوبتر تقتضي ذلك، ولا حيلة لنا. سأقضي الليلة هنا، كي أتحدث أكثر لهؤلاء النازحين الثلاثة الذين قبلوا بأنْ يشهدوا على مايحدث في المعسكر. سأوثّق شهاداتهم، ثمّ العدّت للمتوجين المحليين على المعسكر، للتأكد من سلامتهم وعدم تعرض السلطات لهم بعد رحيلي، وألحق بطائرة الغد. لكن رئيسي عاد واعترض:

– ليس لديك تصريح من أمن البعثة بالمبيت في المعسكر، وقواعد المنظمة تمنع مبيت الموظفين دون هذا التصريح، بسبب التأمين.

– ماذا؟ التأمين؟

– نعم ياسيدي، آخر اختراعات إدارة الأمن وشئون الأفراد!

تناقشنا، واتفقنا في نهاية الأمر على تجاهل هذه القواعد البيروقراطية. يجب أن يظلّ أحدنا، وينهي المهمة التي أتينا من أجلها. لقد مرت شهور ونحن نتحدّث عمّا يدور في المعسكر من انتهاكات، وما يتعرض له النازحون من اعتداءات تحت سمع وبصر السلطات، والسلطات تنفي وتقول ألا دليل. شهادات عمّال الإغاثة والأطباء الذين وثّقوا حالات الاغتصاب، والأعضاء المحطّمة، والأطراف المبتورة – كلّ هذا لم يجد نفعًا لأنّ أحدًا من النازحين الأحياء لم يجسر على الإدلاء بشهادته. تهبط

بطائراتنا على الأرض الطينية الحمراء، وعشرات الأطفال يحيطون بالطائرة غير عابئين بسحابات التراب التي تغطّيهم. نخرج من الطائرة فيحيوننا تحية الفاتحين، ثمّ نبدأ في سيارتنا الكبيرة ذات الدفع الرباعي التي تنطلق مخلّفة زوابع أخرى من الأتربة. تشق الدقّات والطرق الترابية مسرعين نحو المعسكر. تمرّ بجوار صفوف العشش الصفيح التي يقطنها النازحون منذ سنوات على أمل العودة لقراهم، وتنظر الجميع تُحلّق عركتنا. تصل أقلب للمعسكر، وتنتهي بسرعة من شكليات استقبال السلطات لنا.

تُحاول السلطات يحاولون بشتّى الطرق إضاعة الوقت: يُصرُّون على تناول الغداء معهم، نرفض بأدب فيتظاهرون بأنّ ذلك يُشكّل إهانة في الثقافة المحلّية، وهنا يتم إدخال في الصورة. تصبح هويّتي العربية عورية فجأة: أحدّثهم بلكنتي المصرية فيدركون أن حيلتهم الثقافية مكشوفة، فينتقلون لغيرها. وبعد نصف ساعة من المراوغة ينتهي بنا الأمر عما أتينا له: الحديث للنازحين. نجلس تحت شجرة وهم يلتفّون حولنا. يتحدّثون جميعًا في وقتٍ واحد، يعبّرون معظم الوقت مُكرّرين مطالبهم التي نعرفها، ومُتبرّمين من سوء الحال في المعسكر، ومُطالبين بتوفير الأمن لهم. نسألهم عن الاعتداءات، فيقولون إنّهم يتعرّضون لها يوميًا. نسألهم عن المعتدين فيقولون الجنجويد. نسألهم عن هوية الجنجويد، فيقولون إنّهم العرب، وإنّهم في كلّ مكان، ومنهم من يعمل في المعسكر، بل منهم نازحون متنكّرين، بل منهم عمال إغاثة. أترجم هذا الكلام لرئيسي، ويفقد صبرنا شيئًا فشيئًا. لا نريد المزيد من هذا الهراء؛ نريد كلامًا محدّدًا، منطقيًا ومتماسكًا وقابلاً للتصديق، ويصلح لإثبات التهم والإدانة. نريد

كلامًا مثلما. لكن النازحون ليسوا مثلنا. إلاّ اليوم. هذه المرة التي شابات في العشرينات، وفتاة في الخامسة عشر، وقالوا لنا كلامًا محدّدًا وسمّوا المعتدين، وقالوا إنّهم يستطيعون التعرف عليهم ومستعدون للشهادة. استدعى رئيسي المشرف العام على المعسكر، وحمّله مسئولية سلامة هؤلاء الثلاثة فطمأنه الرجل، وقررت أن أبقى لأنهي المهمة: لن أترك هذه الفرصة تمر.

اتصلت سيلبا:

– أين أنت يا يوسف؟

– في الغابة.

– ماذا؟ كيف؟ ألم ترحلوا؟!

– سأبقى الليلة، الرئيس عاد مع الفريق، لديّ عمل أنهيه هنا، وسأعود غدًا. أنتِ في المكتب؟

– نعم.

– لا تسهري كثيرًا.

كانت تلك هي المرة الأولى التي أقضي فيها الليل بدارفور، فعملي إما في العاصمة أو خارج البلاد؛ في أديس أبابا أو نيروبي، أو نجامينا أو أبوجا، أو نيويورك. لا آتي هنا إلا نادرًا، رغم أن هنا هو موضوع عملي. تغيّر شكل المعسكر كثيرًا بعد رحيل رئيسي؛ هدأت الضجة، وعاد النازحون لعششهم، تفرّق عمّال الإغاثة، وغادر معظمهم للمعسكر عائدين لمكاتبهم، وتولّى مندوبو السلطات القيادة مرة أخرى. تجوّلت في المعسكر بعض الوقت بصحبة أريكو، أحد موظفي الإغاثة، مصحوبين

www.mlazna.com-RAYAHEEN

دائما عندوبي السلطات "الحمايتنا"، ثم جلست مع الشهود الثلاثة وحدنا. تحدّث الشابان بطلاقة عن الاعتداءات التي تحدث. الاثنان من قبيلتين مختلفتين، لكنّهما درسا القانون في جامعة الخرطوم لمدة عامين، قبل أن يقطعهما القتال عن الدراسة. حكيا لي عن قريتيهما، حكايتين مختلفتين ولكنهما متشابهتان. جاء الفرسان وهاجموا القرية: حرقوا العشش التي يسكن بها أهل القرية أولاً، ثم قتلوا النوافي وألقوا بجثث بعضها في بئر الماء الوحيد ليسمّموه هاجموا الرجال فقتلوا من قتلوا، وقطعوا سبيلان من لم يقتلوا، وفرّ الباقون. وعندما بدأت القرية في القراع من سكانها هاجموا النساء، واختصوا عددًا منهم بكتابة في أهل القرية، ثم فرّوا كعاصفة التراب مثلما أتوا. قالا إن بقية سكان القرية رحلوا في نفس الليلة، سيرًا على الأقدام، بعد أن جمع كلّ منهم ما استطاع من متاع، حتى وصلوا للمعسكر. لكن أهل القرى الأخرى أخبروهم أن المعتدين عاودوا الكرّة في القرى الأخرى، فتكلوا أكثر من بقي فيها. لم يكن في أي من هذا بجديد، سمعت هذه القصص عشرات المرات. سألت عن الوضع في المعسكر، وكيف تحدث الاعتداءات هنا رغم وجود السلطات والأمن المحلّي، وهنا انبرت الفتاة لمساندة الشابين.

تحدّثت بثبات وبوضوح وهي تنظر في عيني. قالت إنها والبنات تذهبن لجمع الحطب كلّ يوم، وفي كلّ يوم تتعرّض لمضايقات من الحراس والمتربين على المعسكر، لكن المضايقات أمر عادي. المشكلة في الهجمات التي يشنّها المجنجويد من وقت لآخر على أطراف المعسكر. سألتها عن التفاصيل، فقالت إن هناك في المعسكر من يبلّغ المجنجويد بكلّ المعلومات

التي يريدونها، وسمّت لي أشخاصًا بعينهم ونسبهم القبلي والوظيفي. لم يكن من بينهم المشرف العام الذي وصفته بأنّه مسكين لا يفهم ما يجري حوله، ولكنّ هناك آخرين يعملون تحت رئاسته، ولديهم صلات مباشرة بالأمن، "وهم الذين يهددوننا"، قالت. سألتها لماذا يهدّدونهم، فأجابت بأنّ الحكومة تحاول إجبارهم على الرحيل من المعسكر إلى قرىً أخرى أقاموها لهم بُعد عن قراهم الأصلية وعن أراضيهم بعدّات الكيلومترات، لأنّهم يفرغون الأرض الأصلية لحساب القبائل التي تهاجمهم، ومن يرفض الرحيل لهذه القرى يتعرّض للاعتداء. سألتها إن كانوا قد طلبوا الرحيل من أهلها فأومأت. سألتها عن رقمهم، فقالت إنهم رفضوا. سألتها إن كانوا قد تعرّضوا للتهديد فأجابت بالإيجاب. استفسرت إن كان شيئًا قد أعقب هذا التهديد، فقالت بنبرتها الثابتة إنها تعرّضت للاغتصاب هي وأمها وأختها.

رفع السالي قدح الماكياتو، وسألني إن كنت أرغب في شيء آخر. شكرته، وطلبت قدحًا آخر وزجاجة مياه فوارة. أومأ وجمع ما كان على الطاولة ومضى. الوالد صغيرة ومتقاربة ولونها أبيض. المقاعد بلا مساند ظهر – ربّما كيلا يبقى الزبائن أكثر من اللازم. معظم المقاعد عالية بلا مقاعد: يقف حولها الرواد، ويشربون قهوتهم بسرعة، ويتبادلون حوارًا أو معلومة أو وثيقة مسربة، ثم يرحلون. لا أحد يظل جالسًا مثلي كلّ هذا الوقت. منك لله ياسيليا. لا أحد من رواد المقهى ينظر إليّ. يتحركون من حولي: يسحبون مقاعدهم، يتوسعوا عند الجالسين حول منضدة أو يتحنّى الآخرون جانبًا ليتحدثوا، كلهم في سترانهم الداكنة الملتقة ثقة، دون أن تستقر

عين أحمد علي ولو بالصدفة: كأنّي وتمنيتني قطعة من فراغ. هل أمسك بنفسي الآن وهي تتلمّظ هذا الشعور بالقوة وبالنفوذ؟ هل أفتقد الآن ما قلت إنّي لا يمكن أن أفتقده أبدًا؟ هل أريد أن أكون في بدلة أحد هؤلاء، ممتلئًا بالضجر من عملي وفي نفس الوقت معتقدًا أنّي شخص هام؟ معتقدًا أن عملي هام للغاية، وإن كنت أنكر ذلك من باب التواضع؟ التواضع ليس صفةً متواضعة، بل هو صورة متقدّمة من الغرور. التواضع يقتضي أن تكون في مكانة مرتفعة، وتهبط بنفسك عمدًا لمستوى من هم أدنى، كرم منك، لا أن تعتبر نفسك في هذا المستوى. كي تكون متواضعًا يجب أن تعتبر نفسك فوق مستوى الآخرين ابتداء. كنت متواضعًا حينذاك، أمّا الآن فلا أستطيع التواضع، وأنا بلا وظيفة ثابتة أعيش على مدّخراتي القديمة في منزل المتهالك عونتريال، وأتظاهر بأنّي أقوم بأبحاث من أجل كتاب لا وجود له. ليس هناك ما يدعوني للتواضع الآن. لكنّي فعلت ذلك باختياري: كانت يوم ليفنت أن شعور القوة هذا زائف، وأنّ ما أعتقده نفوذًا ما هو إلا شبح للنفوذ. هل أمسك بنفسي الآن، وعيني لا ترتفع من فوق هؤلاء الذين يشبهون ماكنته يومًا، وأنا أفتقد هذا الذي كنته وتركته طوعًا؟

دقّ جرس التليفون: سيليا مرة أخرى:

– نعم!

– أرجوك لا تقفلي، ملازم انتظر.

– ألا تعرفون حتى الآن كم قتيلاً هناك؟

– بلى، لكن لسنا نعرف إن كان من بين القتلى مسلّحون.

– أي مسلحين؟ ألم تقولي إنه اعتداء في معسكر النازحين؟ هل النازحون مسلحون هذه الأيام؟

– لا داعي للسخرية يا يوسف، هناك أشياء كثيرة حدثت منذ رحيلك. من بينها ظهور مسلّحين فعلاً داخل معسكرات النازحين من أعضاء حركات التمرّد. هناك تقارير حكومية تقول إن ماوقع ليس اعتداءً، وإنما اشتباك بين عناصر مُسلّحة من الجانبين. وهذا قد يغير لهجة البيان بالكامل.

– واضح أن شيئًا لم يتغيّر على الإطلاق. طيب هل تعرفون كم من الوقت أمامك؟

– هانت، ربّما نصف ساعة أخرى، على متسافر؟

– غدًا في الصباح.

– لابد أن أراك قبل أن تختفي مرة أخرى. ألا يمكنك تأجيل موعد سفرك غدًا؟

– لديّ أشياء في مونتريال. ثمّ ما الفارق بين اليوم وغدًا؟

– سيكون لدينا وقت كاف للحديث بدلاً من هذه الهرولة.

– يمكن أن يقع حادث آخر غدًا، في الكونغو أو الصومال.

– طيب لماذا لا تأتي للمكتب؟ أنا جالسة لا أفعل شيئًا، فقط أنتظر، ويمكننا الحديث.

– سيليا؟ أنت تعرفين جيدًا أنّي لن أضع قدمي في هذا المبنى.

– طيب طيب، سأبذل قصارى جهدي، لكن لا ترحل دون أن تقول.

– سأحاول.

أصدر التليفون صفيرًا قصيرًا يعني بقرب نفاذ شحنته الكهربائية. عظيم، هذا ما كان ينقصني. لا أدري ما الصّعب في أن تشحن تليفوني كلّ ليلة؛ لماذا أنسى هذا؟ وبالطبع لا أعرف أين وضعت الشاحن، ربّما يكون في أيّ مكان في حقائبي، وربما أكون قد تركته في المنزل أو حيث كنت. اللعنة على الغبار. نحّيت التليفون جانبًا: سأحاول أن أقلّل من استخدامي له لأقصى درجة، كي أتمكّن من الاتصال بسيليا، ومتابعة تطور الموقف.

أنهيت حديثي مع الفتاة والشابين بعد ساعتين تقريبًا. قصّت الفتاة عليّ بأبشع تفصيل ما حدث لها ولأختها وأمها، وخلال حديثها لم تفتر نبرة صوتها ولا مرة واحدة، لم يرق أو يضعف، فيبدو عليها شبه انتهاء، أو بوادر اختناق صوت كما يحدث للبشر. كانت كأنّها آلة تروي قصة مسجّلة. أعرف أنها صادقة، لا أحد يستطيع أن يخترع هذه الحالة النفسية. هذه حالة يُغلق فيها الإنسان مشاعره تمامًا؛ كي يتمكّن من التماسك وعدم الانهيار، وهي تصيب ضحايا هذا النوع من العنف، والناجين من المآسي الكبرى. حتى عمّال الإغاثة الإنسانية يُصابون بدرجات منها دون أن يدروا. ويظلّون هكذا، يتنقّلون من مأساة لأخرى وهم يظنون أن مشاعرهم قد بلدت، ثمّ ينهارون مرة واحدة. تقول إنّهم "احترقوا"، كالمصابيح. هذه الفتاة "محروقة" ولا ريب، صادقة ولكنّها عميقة في قولها. أضافت أنها تعرف المختبئين الثلاثة، وكلّهم من حرّاس الأمن في المعسكر، بل إنها رأتهم بعد ذلك أكثر من مرة، وأشاروا لها بإشارات تنبئ بمذكّرين إياها بما فعلوا بها. سألتها عن أبيها وإخوتها، فقالت إن الإخوة غير موجودين،

ربّما قتلوا أو جُزوا لمعسكر آخر، وأنّ الأب عليها حدث ولكنّه ضعيف لا يستطيع عمل شيء، ولا يستطيع الخروج من المعسكر ومواجهة الحرّاس، ومن ثمّ استمرّ في إرسالها وأختها بجميع الحطب برغم ما حدث. قالت إنها مستعدة للفحص الطبّي، وللشهادة أمام القاضي، والإدلاء بتفاصيل عن مغتصبيها لديهم. هذا بالضبط ما أبحث عنه. أثنيت على شجاعتها ووعدتها بالحماية، واتفقنا على أن نتوجّه في الصباح مع أريكو إلى المديرية؛ لتحرير البلاغ والإدلاء بالأقوال، ثمّ أطير عائدًا للخرطوم. اتصلت بسيليا أبلغها وطلبت منها أن تبلّغ رئيس البعثة بما انتهيت إليه، وذهبت للنوم في غرفة صغيرة مُلحقة بأحد مكاتبنا داخل المعسكر. عرض عليّ المشرف أن أذهب للنوم في استراحة الحكومة فرفضت، كما رفضت عرض أريكو أن أذهب للنوم في استراحة الأمم المتحدة؛ قرّرت أن أبيت معي لضامنًا.

لا بد وأنّ الساعة كانت تشارف على التاسعة حين سمعت ذلك الصوت الذي لم أنسه بعدها أبدًا. صوت يأتي من باطن الأرض، كأنّه زلزال مُنتظم للتربة، كما لو كانت هناك طبول ضخمة في باطن الأرض تدقّ بصوت مكتوم، فيتحوّل الذبذبات تهزّها من تحت أقدامنا. نظرت لأريكو فالتقت نظراتنا. هل هذا هو ما أظن أنه؟ أومأ بجبين. هرعت نحو الباب – لا أدري لم – فأمسكني من ذراعي، وجذبني للوراء.

– لا تفعل شيئًا جنونيًا. اجلس هنا.

– هل هؤلاء هم الجنجويد؟

– لا بد وأنهم كذلك.

– كيف حدث هذا؟ أبلغت بهم الوقاحة أن يأتوا ونحن هنا؟

– الوقاحة لم تنقصهم يومًا. ابق ساكنًا ولا تُحدث صوتًا.

– وماذا نفعل؟

– لا شيء. نظلّ ساكنين هنا، وأغلب الظن أنهم لن يهاجموا سكيرنا.

– أغلب الظن؟ وماذا سيحدث بالخارج؟

– سيهاجمون البعض. ادعُ ربك ألاّ تكون النتيجة مأساوية أكثر من المعتاد.

– ادعوا؟! ألاّ نفعل شيئًا آخر؟ ألا نتصل بأحد؟

– سنتصل طبعًا، لكن هذا ليس ضروريًا. الأنباء تنتقل وحدها هنا. البلد كلّها تعرف الآن ما يدور.

– والأمن؟

– سيأتون. لكن بعد أن يكون الجنجويد قد رحلوا.

– وماذا لو خرجنا الآن؟ بالتأكيد لن يعترضوا الموظفي الأمم المتحدة. يمكننا الدفاع عن النازحين.

– هل فقدت صوابك؟ ماذا: سنخرج أنا وأنت فندافع عن أربعين ألف من المدنيين؟ اسكت واجلس هنا حتى يمروا. هذه الأمور تحدث بانتظام وثمة قواعد، لو خرجت ستعرّض حياتك للخطر.

بحثت عن الليفوني، وحمدت الله أنه مازال مشحونًا. اتصلت برئيس البعثة فلم يرد. اتصلت بسيليا وأخبرتها بما يحدث، وطلبت منها أن تبلغ الرئيس فورًا. طلبت مني أن اهتم بنفسي ولا أفعل شيئًا جنونيًا. أشار لي أريكو أن أطفئ جرس التليفون حتى لا يرن. فعلت ذلك ثم

جلست أنتظر. ولم يحدث شيء. جلست هناك في هذه الغرفة الضيقة، أنا وبدالي الفاسقة، وتليفوني المتصل بالقمر الصناعي، وأريكو المتمرس، نستمع لوقع أقدام الجياد وهي تهبش في النازحين. لم يكن هناك أصوات صراخ، لا شيء درامي، مجرد هذا الارتجاج في باطن الأرض وأصوات قرقعة وهمهمات، ولا شيء آخر. أضاءت شاشة التليفون، وكان رئيسي هو المتصل، يطمئنّ على سلامتي ومن معي، ويُلفتني أنه أبلغ أعلى مستوى ممكن من السلطات عما يحدث ليتخذوا إجراءات لوقفه، ووعدوه بالتدخّل الفوري. شكرته وأغلقت الخط، وعاودت الجلوس صامتًا. وظللنا هكذا لمدة ساعة أخرى، نحن في الغرفة المغلقة، وفرسان الدمار في الخارج.

نظر أريكو لتليفونه، ثم قال إن الجنجويد قد رحلوا. جاءته رسالة تُنبئه بذلك من خارج المعسكر: شوهدوا يغادرون البلدة. خرجنا بسرعة من الغرفة، المكان ساكن بالخارج تمامًا، لا صوت ولا حركة. دقائق وبدأت الحركة تدبّ في المكان. خرج الناس لينظروا ما خلّفه الهجوم من دمار. دقائق أخرى وبدأ الصويت والولولة، ثم علمت أن هناك خمسة قتلى: فتاتين وشابين وأحد الحراس. الناس تتحرك الآن في مجموعات كبيرة، يغلب عليهم الغضب، وبعضهم يُهشّم ما يجده في طريقه. دقائق ووصل رجال الأمن فزاد ذلك من هياج الجموع. لم يستغرق الأمر طويلاً حتى تحول الأمر لمواجهة بين النازحين ورجال الأمن الذين طوقوا المعسكر، وقيل لي إن رجلاً قُتل في اشتباك مع الأمن. أريكو اختفى، ثم شاهدته بعد فترة يتوسّط بين الجانبين عن بعد، أما أنا فكنت أسير كالتائه لا أعرف عمّا أبحث. لا أصدق أن هذا يحدث من حولي، وألّي بلا فائدة لهذه الدرجة.

أما الآخرون فكانوا يعلمون ذلك، ولم يحاول أي منهم اللجوء لي أو حتى الحديث معي. سرت مع الجميع، لا أعرف إلى أين. كان رجال الأمن قد انسحبوا من المعسكر، وانكفأوا بتطويق المكان في حين تولّى عُمّال الإغاثة التفاوض بين السلطات وبين النازحين.

سرت مع جميع لفترة سار ثمّ توقّف، وسمعت صوفلات ودعاء وولولة جديدة، وهناك رأيت الجثتين. كانتهما بقايا سيارة مُحترقة. لم أتنبّه أول الأمر لهما عندما أشار لي صبي بأنّ هاتين هما الفتاتين. فقط عندما دقّقت النظر أدركت أن هاتين الشبيهتين بقايا بشرية. قطعتان من السواد المتفحّم تمتزج بهما بقايا قماش محترق. علت أصوات الجميع، ثمّ تقدم رجال ومعهم ملاءات جمعوا فيها هذا السواد، وتقرّبهما كأنّهما هما جثتان حقيقيتان. تحرك الجميع بالجثتين وأنا معهم، وظللنا سائرين حتى شعرت بيد قوية تجاذبني، وتسحبني من وسط السائرين. التفتُّ ورأيت الريكو ممسكًا بي بقبضة من حديد. لم أقاوم، وسرت في يده حتى أودعني في المكتب من جديد، وأغلق الباب وخرج. جلست بلا حراك حتى عاد، لا أدري كم من الوقت مرّ، قال لي أن ساعة قد مرت، وهزّ رأسه في مزيج من اليأس ونفاذ الصبر. علمت منه أن الجثتين المحترقتين للفتاة التي كنتُ أحدثها اليوم وأختها، المخصبة رقم 2. أشعل المتجمهرون فيهما النار، ووقفوا يشاهدونهما يحترقان حتى تفحّمتا، ثمّ غادروا وهم يكبّرون. قال لي إن أحدًا التقط لهما صورة بتليفونه. الشابان اللذان تحدّثا إليّا اليوم أيضًا من بين القتلى، وحارس يدلو أن النخوة دفعته للتدخل، وحاول إنقاذ الفتاتين، فأرداه أحد الفرسان الخمسين قتيلاً.

التليفون يهتزّ بجانبي وأنا لا أتحرّك. رد الريكو وسمعته يُحدث سيليا ثمّ رئيس البعثة. كرّر عليهم ما ذكره لي، وأضاف أنه رأى صورة الفتاة وهي مشتعلة، وأنّ أحدًا من الجثتين لا يبدو وجهه في الصورة. صمت ثمّ عاد يحدث سيليا، قال لها ألاّ تعلّق أملاً على موضوع الصورة هذا لأنهم ملثمون. صمت ثمّ أردف أن هذه فكرة غبية، تمامًا مثل فكرة الضغط على النازحين كي يشهدوا ضد أناس مُحتملين. صمت ثمّ أجاب: إن هذه ليست أول مرة طبعًا، وأضاف أنّي بخير، ثمّ طلب منها معاودة الاتصال بعد ساعة لأني مشغول.

اتصلت سيليا مرة أخرى:

– أوشكت على الانتهاء. تحقّقت من كلّ التفاصيل، اتضح أنهم أربعة قتلى وغير مسلّحين. كتبت صيغتين للبيان، واحدة "يدين" والثانية "يأسف"، وأرسلت الصيغتين لمدير الإدارة وينتظر رده. غالبًا سأرسل الصيغتين لمكتب "الأمين العام" فور أن يُسمح لي. هو لا يتدخّل في الصياغة لكن يصرّ على أن يرى كلّ شيء أرسله للطابق الـ28. بعد ذلك سأنتظر رد المكتب، ثمّ أضع البيان في صيغته النهائية، وأرسله لمكتب التحدّث الرسمي. نصف ساعة أخرى على الأكثر. ألست سعيدًا أنك تخلّصت من كلّ هذا الهراء؟

– سعيد جدًا. ولا تواري نفسك، إذ لم تتمكّني من اللحاق بي يمكننا أن نلتقي في المرة القادمة.

– المرة القادمة؟ هل تمزح؟ أنت لم تأت لنيويورك منذ عيد الميلاد الماضي. من أين أتت آتٍ على كلّ حال؟

www.mlazna.com-RAYAHEEN

– من مونتريال.

– مونتريال؟ بالقطار؟

– نعم، وسأعود بالقطار أيضًا.

– أمازلت لا تركب الطائرات؟ لابدّ وأنك فعل. كم من الوقت استغرقت الرّحلة؟ لا بد وأنك منهك! يالإلهي كم أنا آسفة.

– لا تأسفي، فقط حاولي أن أراك قبل أن أستقلّ القطار التالي.

– ألا يمكنك أن تبقي في نيويورك ليلة أخرى؟

– ميلي!

– حاضر، حاضر. سأكون عندك بمجرد أن يقرّر الأمين العام ما إذا كان يأسف أم يدين!

– أنا جالس هنا.

بطارية التليفون في الذّرع الأخير. إنها تكفّ عن الاتصال كلّ عشر دقائق، فلن يصمد التليفون كثيرًا، لكنّي لا أستطيع أن أقول لها ذلك، متناقضايي. سأنتظر، ماذا لديّ لأفعله في أيّ حال حتى يحين موعد العشاء لدى أبي. لا أريد التأخّر عليه، لا أستطيع أن أتأخر، فهو يتوقع منّي التأخر، كي يؤكد لنفسه أنّي غير منظم ولا فائدة منّي. مسكين هذا الأب، طبعًا كلنا غير منظمين مقارنة به! لكن ما الفائدة؟ ما فائدة كلّ هذا النظام وهذه الدقة؟ كيف لا يدرك حيث دقته ونظامه هادئين؟ كأنّه آلة تسير بنظام حديدي وعبقري نحو الفناء. يسير في مساراته الخالدة، ثمّ يأتي من يدوس على حياته، ويغير كلّ مافيها. وهو لا يهتم. يريدنا أن نأتي دائمًا في الميعاد، حتى لو كان العالم سينتهي غدًا. أراهن أنه لو علم بموعد موته للذهب في

الموعد بالضّبط ليلقي حتفه في الميعاد. لا فائدة من الحديث معه. حاولت مرات، لكنّه كان يقمعني بحجّته قوية ومن سلطة أبوية، ولم أشأ أن أفرط في المحاولة، لم أشأ أن أصرخ في وجهه أن كلّ ما يعتقد فيه وهمًا، أن كلّ هذا وهم، وأنّ الأشياء الحقيقية تحدث دون موعد ودون نظام، ودون منطق، كالموت، كالظلم، كالحب.

ليلى لم تتراجع مثلي، بل ذهبت لآخر الطريق في معارضته، وانتهى بها الأمر أن تركت له أمريكا من أجلها، ورحلت عائدة لمصر. مسكينة هي الأخرى، مسكين كلّنا. والآن هناك سلمى. لا أدري لم أتى بها. لا بد وأنه يريد إنقاذها من براثن "أمها المجنونة". ماذا يعرف حقيقةً عنها؟ عن البنت أو عن أمها؟ لا شيء! بالكاد يعرف سن سلمى، لكنه يريد إنقاذها مع ذلك. يريدها أن تكمل دراستها بأمريكا وتستقر بها، مثلما أراد لنا. لماذا لا يكفّ عن محاولة إنقاذ البشر؟ ماذا ستفعل تلك المسكينة في أمريكا؟ ألم يكفه ليلى؟ وسلمى تسألني عمّا يجب أن تفعل؟ تُحدّثني بالتليفون كلّ يوم منذ وصلت، وتُمطرني بالأسئلة، عن جدها، عن أبيها، عن أمها، عن خالتي وزوجها، عن كلّ شيء آخر. أنت خالي وقضيت معظم عمرك هنا لكنك أيضًا تعرف مصر وسافرت في أماكن كثيرة ولديك خبرة. تقول ذلك كأنها تسمّع من كتاب. تسألني ولا إجابات لدي. ماذا أقول لها؟ ماذا يمكن أن أقول لها عن الحياة هنا أو هناك؟ عن اختيارات الحياة المصيرية التي يمكن أن تغيّر كلّ شيء أو لا شيء على الإطلاق. ماذا يمكن أن أقول لها سوى بعض الكلام البائس عن الإنسان وحشته في كلّ مكان، عن الأمل الزائف والدعاوى التي لا تتحقّق. لا شيء لدي لأقوله لها.

لا شيء البتة. لستمع لها، وأتفهم بعض التداعيات. أحيلها إلى أمها وإلى أبيها ثم – حين يفشل كل ذلك – إلى نفسها. افعل مثل الأطباء النفسيين الذين جاءت لهم: اسألها هي عن شعورها ورأيها. ثم اتركها لنفسها.

أتى شخص، واستأذن في وضع ملابسه على المقعد المقابل لي. أومأت له موافقًا، فالمكان ضيق والمقعد شاغر منذ فترة. هيا يا سيليا! اسألي الأمين العام أن يقرّر هل يأسف أم يدين. ليتني كنت قد أصررت على الجلوس في القهوة الأخرى. على الأقل كنت أكلت شيئًا، وتفاديت هؤلاء المتنقلين والذكريات التي يحملونها لي. هل أفتقد ذلك العالم فعلاً؟ هل افتقد الشيء؟ أروقته تتضح بالسلطة التي تمر فيه، مع أنه لا سلطة له. السلطة تنبع من العواصم، ثم تأتي وتعشّ في أروقة هذا المبنى الأسطوري، تسير في الممرات وتكاد ترتطم بها، فيتخيل لك أنك في قلب السلطة، لكنك مجرد حجر صغير في جدرانها. يمكنك أن تقضي عمرك كله لا تدرك الفرق بين الأمرين، ويمكن مثلما حدث لي أن تستيقظ فجأة على الدرك فترفض أن تضيع بقية أيامك في هذه الجدران، وتقفز خارجًا. لماذا أفتقد إلى أي افتقد هذه الممرات إذن؟

اتصلت سيليا ومرر لي أريكو التليفون. قلت لها "إني بخير، وأجبت على بضعة أسئلة وأنا ساهم، ثم أعطت التليفون لرئيسنا. قال أشياء كثيرة عن الأسف والأسى، وتمنى أن أكون بخير. قلت: "إني بخير، لم يحدث لي أنا شيء، لكن كل من تعدنا إليه فعل، حرفيًا". كرر التعبير عن الأسف، وقال إن هذا الحادث لن يمر. سألته "ماذا سيفعل كيلا يمر؟" قال إنه تحدث مع نيويورك، وسيعقد مجلس الأمن الليلة، ليصدر بيان يتوقع أن يكون

شديد اللهجة. سألته بغضب كيف يمكن لبيان من المجلس أن يُعالج المأساة التي وقعت، والتي ستقع تارة وتالية. سألني ساخرًا عمّا أريده أن يفعل: يرسل جيش الأمم المتحدة للمعسكر؟! رددت بأنّ سخريته غير لائقة، وأنه إذا لم يكن بوسعنا حماية هؤلاء الناس فعلاً، فما جدار لنا إيهامهم بالحماية. قال شيئًا مائعًا عن حقائق الحياة فانفجرت فيه وقلت له إن هذه خسة، وإن دم من قُتلوا الليلة في رقبته هو شخصيًا. قال إنّي متوتر زيادة عن اللازم، وأعطى التليفون لسيليا. طلبت مني الهدوء، وقالت إنه سيرسل لي هليكوبتر مع أول ضوء لإعادتي. أقفلت الخط. قال أريكو إن عليه الخروج لأنّ هناك عمل يجب أن يتم، وسألني إن كنت أستطيع البقاء ساعة دون ارتكاب حماقات أخرى فأومأت.

خرج، وبعدها بقليل خرجت للتجوّل في المعسكر. ربّما يغضب أريكو، لا يهم. لم أستطع البقاء في تلك الغرفة؛ كلّما انغلق الباب سمعت أصوات ارتجاج الأرض للكوم تعود. خرجت أسير لا أدري على شيء، وبعد قليل وجدت نفسي مع مجموعة من الشباب نشرب الشاي أمام إحدى العشش. بعد ساعة أخرى كنت في مقهى المعسكر، ثم مال عليّ شخص يبدو أنه كان يُدخّن الشيشة معي، وأعطاني تليفونه المحمول.

نظرت في الشاشة. للوهلة الأولى لم أفهم ما ذلك الذي أنظر إليه: مصباح أو شيء كهذا يتراقص لهيبه، وعندما فهمت كان الوقت قد فات لأقول "لا". كانت تجري في وسط حلقة والنار مشتعلة فيها، وكلّما دفعت لناحية من الحلقة دفعها أحد الفرسان بعصاه، فأعادها لمنتصف الحلقة. والسنة النار المشتعلة فيها تتحرك حركةً غير منتظمة، ربّما مع الريح. بعد

دقائق قلّت حركتها: تقف في المنتصف، ثمّ تتحرك خطوة أو اثنين في الماء فيدفعها أحدهم فتعود لمنتصف الحلقة. ثمّ تثبت في مكانها، واقفة، وتبتسم الدار ثمّ هدأت قليلًا فتيقّنا، ثمّ تحرّكت فجأة كأنّها جالسة، وتهمّ بالقيام لكنّ حركتها لم تكتمل، وظلّت هكذا واقفة في شبه حركة للأمام والدار تخبو، وتترك محلّها خيطًا رفيعًا من الدخان.

قرب منتصف الليل تحدّثت سيليا مرة أخرى، التراجع تسلسل الأحداث ودقّة البيانات. قالت إن تقريرًا حكوميًا يدّعي أن أهل الفدائيين هم الذين أشعلوا النار فيهما، للتخلّص من عار سلوكهما البطّال، وأنّ أمن المعسكر حاول التدخّل لإنقاذهما، فهاجمهم النازحون مما حدا بالجنود لإطلاق أعيرة نارية تحذيرية دفاعًا عن أنفسهم أمام آلاف النازحين المحتشدين ضدهم، مما أدّى لمقتل أحدهما برجل من الحرس وشابين من النازحين، وقالت السلطات إنها تشكّ في وجود عناصر مسلّحة بالمعسكر هي التي دبّرت كلّ ذلك. صرخت في سيليا، ربّما لأول مرة في حياتي، فازعجت بشدة وطلبت أن أعطي التليفون لأريكو. بعد ساعة اتصلت وقالت إنهم لن يأخذوا بتقرير الحكومة اعتمادًا على روايات عمّال الإغاثة، ولكنّ ذلك سيقلّل من لهجة البيان، وأنّ هناك مناقشات حادّة في المجلس بين هؤلاء الذين يصرّون على أن يدين المجلس الحكومة لتقاعسها عن حماية النازحين، ومن يريدون الاكتفاء بإبداء الأسف حيال ذلك. أغلقت الخط في وجهها، ثمّ مات التليفون تمامًا. سقطت في الفراش حتى الصباح حين جاء فريق أمن الأمم المتحدة، واصطحبني للطائرة التي عادت بي للخرطوم.

الساعة الآن السادسة والنصف، يجب أن أغادر المقهى الأصل في الوقت المحدّد؛ كيلا يبدو لي أي تلك النظرة التي أمقتها. نظرت لكيس البيجيل الذي سأحمله له. ألم يلحظ أنّي بلا عمل منذ عامين؟ هل تركّزت ذاكرته عند أعلى رغبته برؤيتي شخصًا مهنيًا بعد الجهد والمال الذي أنفقه على تعليمي؟ كان يريد أن أصبح عالمًا ورفضت. خيّبت أمله عندئذ، لكنّه أبدى بعض الرضى حين التحقت بالعمل في الأمم المتحدة، وحمدت الله أنه توقّف عن متابعة تفاصيل حياتي بعد ذلك. لم أقل له إنّي "احترقت" ولم أعد أطيق النظر في وجه زملائي أو رؤسائي، أو المباني أو الطائرات. قلت له إنّي أكتب كتابًا في هدوء منزلي عن تريبالي.

سألني بضع أسئلة ثمّ صمت متشككًا. سيسرّ عندما يرى البيجيل، ليس لأنه سيأكله، فأغلب الظنّ أنه لن يفعل، لكن لأنّي تذكرت إحضاره. يختبرني، مثلما يختبرني الآن، حين يصر أن أعود للمنزل في الساعة؛ لأشرف على ترتيبات عيد ميلاد سلمى. أيّ ترتيبات تلك التي سأشرف عليها؟ هل سيترك الدكتور درويش أمرًا هامًا كترتيب عشاء بمنزله في يدي؟ بالطبع لا. سيقول كيتي كلّ شيء، وسيظلّ هو شخصيًا فوق رأسها يلاحقها. ودوري أنا؟ لا شيء، بمجرّد اختيار لهدية ما إذا كنت ولدًا طيبًا، وأحافظ على مواعيدي. كأنّي مازلت طفلًا وهو يربّيني. ربنا معك يا سلمى في هذه الإقامة. دقّ جرس التليفون. سيليا مرة أخرى. ضغطت على زر الرد، لكنّ البطارية انسلت الروح قبل أن أسمع صوتها. لم يعد هناك الكثير من الوقت على أيّ حال، سأنتظر عشر دقائق أخرى ربّما تظهر، ثمّ أذهب كي ألحق بالعشاء.

4

عين جالوت

تركت سيارتي وأخذت القطار. لا توجد هناك أماكن لركن السيارات، كما أن المحطة تُغلق في الخامسة وهي أسوأ أوقات القرود. حين أنتهي من الزيارة سأعود بالقطار وأظلّ بالمسجد حتى أنتهي من درس المغرب، ثم آخذ أمورقا، وأتوجه لعشاء طليق أختها. ساعتها الله، لم تُورّطني في عشاء مع رجل لا أحبّه ولا يحبني؟ سأكون ضيفًا ثقيلاً، مُتأفّفًا من الجلسة ومن الجالسين وما يفعلون، وسيكونون هم غير مُرتاحين لوجودنا. وإما أن نتبادل حديثًا تافهًا حول الزحام والطقس، أو ندخل في مناقشات أشبه بالعراك. آخر ما أحبّ هو مخالطة العرب للتأمركين؛ الحديث مع الأمريكيين أنفسهم أفضل وأكثر فائدة. لا، وهذا شيخهم. رأيت له كتابًا

www.mlazna.com-RAYAHEEN

منذ سنوات يصف فيه العرب بأنهم أمّة سقطت من التاريخ لكن لم يتم دفنها! سألته أول مرة التقيته عن هذا، وبدأنا حديثًا كاد أن ينتهي بحالة لولا تدخّل أميرة. لماذا تأخذني لعشاء في بيت هذا الرجل. قالت إنه عبد ميلاد سلمى، وأنها رغبة ليلى التي تعاملها أميرة كابنتها منذ وفاة أختها. والله إنّي لا أفهم هذه العائلة: الدكتور درويش مأفون كاره لنفسه وأمته، وابنته ليلى عكسه تمامًا لكنّها لا تقل عنه قوة، والخليفة سلمى تائهة، وأبوها وخالها بلا دور. تركتها أنتها تأتي لأميركا وفهمت، على أساس أن أباها هنا. لكنها أصرّت أن تقيم البنت عند جدّها الذي تكرهه والذي فاتت له أميركا عن فيها. ثم وزّعتنا نحن في هذه العركة، واشترطت على خالتها أن ترعى لها ابنتها وتصحبها تحت عينها، وكأننا للحلّل. ماعلينا، منها لله أميرة، منذ ماتت أختها وهي لا ترفض لليلى طلبًا حتى لو كانت نزوة. سامحهنّ الله، نسوان ناقصة عقل، لكن طيبات.

سأمرّ على المسجد قبل الذهاب لذلك العشاء المشؤوم. جاءني شاب بعد صلاة الظهر، وطلب الحديث عن أمر شخصي. لا بد وأنه يبحث عن زوجة، لو كان يبحث عن عمل لقال. سأسأل أميرة إن كان لديها عروسًا. خرجت من محطّة "فيلدون"، وسرت باتجاه المتحف الصغير الذي أقامته إدارة الإطفاء. يقولون إنهم سيبنون متحفًا كبيرًا فيما بعد. سنرى. وصلت أمام المتحف، فوجدت عربة إطفاء واقفة بقرب الباب قبالة الناظرين. بضعة رجال يقفون أمامها يدأنّونها بإجلال، وكأنّها هبطت من السماء أو صاعدة لها. دفعت سبعة دولارات رسم الدخول، ومررت من البوابة الإلكترونية. من الذي يأخذ هذا المال؟ وماذا يفعلون

به؟ أيشترون مقتنيات جديدة يضعونها للمتحف؟ تجولت في أرجاء القاعة المحطات، نظرت للخرائط والملصقات، والمقتنيات واليافطات، والمحتويات والأسماء، والصور، نظرت لكلّ هذه الأشياء بسرعة، ثم توجهت لدكّة خشبية بتوسط القاعة، وجلست.

ما هذا المتحف البائس؟ لو تركوا الأمر لي لبنيت لهم متحفًا أفضل عشر مرات؛ متحفًا حقيقيًا بمقتنيات حقيقية، بأوراق التخطيط والأقلام التي كتبت بها الأفكار الأصلية، الملابس التي ارتداها المخطّطون، السجاد الذي جلسوا عليه، أكواب الشاي التي احتسوها وهم يفكّرون في العقبات، التليفونات التي استخدموها، الرسائل الإلكترونية، الكمبيوترات، حسابات البنوك، جوازات السفر، أدوات التسكّر، أدوات التدريب، تذاكر السفر، بطاقات الصعود للطائرات، وتذاكر الحقائب، وأسماء المتعاونين مُدونة عليها، كلّ ما استُخدم في صنع هذا.

أنا الذي أعرف حقيقة ما حدث. أنا الذي أعرف الصورة الكاملة. أنا رقم صفر. أنا الرقم المكمل لأيّ رقم تعرفه. أنا الذي أعرف من أين جاءت المعلومات اللازمة لتنفيذ ضربة بهذا التعقيد، كيف تمّ الحصول على المال ومن أين، كيف تمّ تجنيد المنفّذين وتدريبهم وكيف تم إلصاق كلّ القطع معًا بحيث تم الأمر بهذا الإتقان. أقرأ تقرير السلطات الأمريكية عن الحادث، وأضحك بيني وبين نفسي. أسمع الاتهامات التي يردّدها العرب لأمريكا، وأضحك أيضًا. كلّ طرف يحاول تبرئة نفسه، ولصق التهمة بالآخر. هل فكّر أحد منهم ألا تناقض بين روايته ورواية الآخر؟ أنا الذي أعرف حقيقة ما حدث، دور الذين ذُكروا في التحقيقات، ودور الذين لم يُذكروا.

أجلس هنا، في المعرض التذكاري، أرقب الصور والمقتنيات، والكتابات وصور بعض من ماتوا، وخيبات أملهم وأحبابهم، ولا يترك هذا في نفسي أثرًا. لا شيء.

أنا الوحيد. أنا الذي انتبهت للهجوم، وشعرت بموجة عارمة من التشفّي لم يقلّل منها إلا صعود البرجين طيلة هذا الوقت الذي سمح لأعداد كبيرة بالنجاة. كنت أريد الخمسة وسبعين ألف، كلّهم. لا تسألني عن الموتى، فلا أريد أن أسمع عنهم شيئًا. أنظر الوجوه في الصور المعلّقة وتعليقات الأهل والأحباب: "نحن نفتقدك ياحبيبي"، "أفكارنا معك يا ليزي"، و"ريبيكا، ستظلّين في قلبي إلى الأبد". كلمات جوفاء لاتعني شيئًا. لا أحد يظلّ للأبد. كلّنا ميتون، ميتة أو أخرى، ما الفارق لدى الموتى؟ لا أعرف شيئًا عن هؤلاء الضحايا، ناس قتلوا مثل كلّ من يلي. سيرحمهم الله إن كانوا يستحقّون الرحمة، وسيعاقبهم إن استحقّوا العقاب.

لكن موتهم في حدّ ذاته لا يعني شيئًا. كلّ من الناس يموتون كلّ يوم، في هذه اللّحظة، في هذه الثانية؟ هل تقيم لهم المذاهب، أم كان لدى هؤلاء، رغبة بالبقاء أكثر من الآخرين؟ هل كان لديهم حق في العيش أطول من قتلوا من قبلهم؟ هذا هو أجلهم، هذه هي حياتهم، وهذا موعد موتهم: لم يسرّع فيه أحد أو يؤخّر. تُحسب لهم أن يكونوا هم الذين يموتون في هذا الحادث بدلاً من أن يموتوا تحت عجلات سيارة، أو بأنفية مسرطنة، أو بانفجار لغم أو في زلزال. لا أعرف عنهم شيئًا، ولا أريد أن أعرف. لو كان الأمر بيدي لأعدمت الخمسة والسبعين ألف كلّهم. لو اقتضى الأمر أن أقتلهم بيدي ما ترددت. لكن تُحسب لهؤلاء النجاة، دون إرادتي،

مثلما تُحسب على هؤلاء الموت. ولست بمعرض الشعور بالأسى على أحد، ليس أنا.

ما تلك الزهرات التي وضعوها في المتحف؟ ألم يجدوا من الطائرتين سوى هذه الناقدة؟ وحطام البرجين كلّه، لم يجدوا منه ما يضعونه هنا سوى هذه القطعات؟ لم لا يفتحون باب التبرّع؟ من الذي يقرر أيّ الأشياء يدخل ضمن قائمة المقتنيات؟ وما هو المعيار؟ هل يمكن إضافة القنابل العنقودية التي قتلت أبي، أو قنابل الإضاءة التي أصابت القاتل وجه أمّي كي يذبحها؟

سمعت عن هذا المتحف التذكاري فجئت لأراه بنفسي. من الذي سيأتي للزيارة هنا؟ من هؤلاء الناس؟ لا أظنّهم من أهل الضحايا. لو قتل أحد في العملية ما جئت هنا لأتذكّره. أفتاح الشكلي قاعة للتذكّر؟ أم هم حللوت يبحثون عن مأساة يتعاطفون معها؟ أم عاديون مرّا يأتون للفرجة على الإمبراطورية وقد صفعت؟ أم أطفال المدارس يُقادون إلى هنا كي يكرهونا أكثر؟ أسمع من مكاني صوت الفيلم "الوثائقي" الذي يبثّه القائمون على المتحف التذكاري: إنّهم يُحوّلون الأمر لعبادة، "بورل هاربر" أخرى، وهناك شخص يقول إن البرجين كانا يُخلّان السلام العالمي لأنّ التجارة تصنع السلام! ياسلام!

يمرّ الزوار وينظرون إليّ بشك. لابدّ وأنهم يتساءلون عمّا يفعله هذا العربي هنا؛ الشماتة أم الفرجة على مافعله مواطنوه؟ وطفل صغير يطيل النظر ناحيتي، ثم يقترب من أبيه أكثر. لا تنظروا طويلاً، فأنا لا أختلف عن الباقين، هؤلاء، الذين سيلاقونهم عندما تغادرون، في القطارات السائرة

تحت الأرض وفوقها، في أماكن عملكم، وفي وسط بيوتكم وبين نسائكم. كلنا نشبه بعضنا في أعينكم: أنا ببدلتي الرمادية، وخيمتي المشدبة التي غلبها الشيب، وقامتي الضئيلة وصوتي الخافت، والآخر بلحيته المشعثة وجلبابه القصير وسحنته الغاضبة وصوته الجهوري، والثالث بالشورت وكأس البيرة في يده. تخافون منّا جميعًا. فلا تُطيلوا النظر، تشكّكوا أكثر، وشُدوا على قلب رجل واحد؛ كراهيتكم لنا تُغذّي عزمنا.

يمكنني الجلوس هنا واصطناع دور الضحية. يمكنني أن أخطب فيكم عن "جرائم أمريكا". يمكنني أن أقصّ عليكم قصص بيروت؛ تُفجّرات اللاجئين، وما تحت أنقاض البيوت التي قصفتها طائراتكم المزوّدة بأحدث تكنولوجيا الموت – تلك التي تدخل في بند التجارة من أجل السلام. أنا الناجي من مذابح طالت كلّ من أحببت. يمكنني أن أحدّثكم عن القتل الجماعي، والقتل الفردي، والقتل عن طريق الاستخداف، والقتل الخطأ. يمكنني أن أحكي لكم حكايات مؤثّرة عن استهداف المدنيين للترويع، والتضخيط والإيلام، ولكسر الإرادة. يمكنني أن أروي لكم عن طائراتكم التي دارت نصف دورة في السماء، حين أطلق عليها مقاتل سلاح قذيفة من مدفع عيار 16 ملل لا يمكن أن تصيبها. عادت الطائرة فقصفت الحي كلّه في قرب بيروت. ماذا كان ذلك الطيّار يفعل؟ هل كان يفكّر في أن سكان الحي من المدنيين الأبرياء، وأنّ صاحب المدفع أيضًا لا يُشكّل خطرًا حقيقيًا على طائرته؟ أم كان يعتمد في قرارة نفسه أن هؤلاء الناس لا قيمة لهم، وأنّه يستطيع قتلهم جميعًا إن شاء، دون أن يعني ذلك شيئًا؟ هل فعل ذلك الشرّ في نفسه، أم لأنّ التعليمات التي لديه تقضي بهذا؟ أعرف

الإجابة على هذه الأسئلة. فأنا الذي أطلقت قذيفة المدفع الذي أعلم أنه لن يصيب الطائرة. لم؟ لأنّي أعلم علم اليقين أن الطيار سيعود ويقصف الحي بأكمله. ولم أرد ذلك؟ لأنّي أريد أن أفضح وحشيته أمام هؤلاء الذين مازالوا يؤمنون أن الغرب إنساني، وعنده مبادئ. هكذا يرى الناس الحقيقة عارية في وجوههم، ويدركون لأيّ مدى هم وحدهم أمام هؤلاء الوحوش، ويفهمون ألاّ خيار أمامهم سوى القتال لحماية أنفسهم، أو الموت على يد الغربي الغازي الذي لا يفهم غير القوة.

لم يكن لديّ أوهام حول هذا الأمر في يوم من الأيام، لكنّي صرت على من قالوا لنا أن نهادن، وألاّ نحاور، وادّعوا بوجود قوى في الغرب تقبلنا، وزعموا أن التاريخ تجاوز الصراعات القديمة بيننا. كذبت مزاعمهم وكذبوا. صرت عليهم، ولحظات ترهاتهم وإذلالهم لأنفسهم على عتبات الغرب علّه يفتح لهم الباب، لكن لم يجلبهم سوى الذلّ والهوان، مرة بعد مرة، وهم لا يفقهون. أستطيع أن أقصّ عليكم قصص النساء والأطفال الباحثين عن مياه الشرب في أنقاض العمارات وهم لا يعرفون أيأتي العطش سيموتون، أم من الغضب على أمريكا وأوروبا التي وعدتهم بالحماية ثمّ تخلّت عنهم، أم من اليأس من اصلاح حالهم، أم بقنبلة أمريكية الصنع تأتيهم فتُريحهم من عذاب الدنيا؟ أستطيع أن أقصّ عليكم قصص المدنيين الذين بقوا في صبرا، ودخل العملاء الوحوش بيوتهم يطلقون النار عليهم واحدًا بعد الآخر، وجيش "الدفاع" الإسرائيلي يُطوّق المكان ويطلق قنابل الضوء الأمريكية؛ لتضيء للقتلة ظلام الليل. ينسى الخارس والمحروس. أستطيع أن أقص عليكم كيف نفدت الطلقات من القتلة في البيت الذي

كنت أختبئ فيه، فذبحوا من وجدوهم بالشكاكين، ونجوت أنا لأنهم حين ذبحوا أمي وقعت جثتها فوقي فلم يروني. ظللت مختبئًا تحت جثتها أشعر بها تبرد شيئًا فشيئًا. لكنني لا أريد أن أقصّ عليكم شيئًا من هذا، لأني لا أريد شفقتكم الزائفة، شفقتكم التي لا طائل من ورائها. لم أكن يومًا بكم ولا بوجودكم، وحين رفضت الرحيل مع من رحلوا كنت أعلم أنكم وعملاءكم آتون لعقابنا بعدها. كنت أعلم أنكم ستعاقبوننا لأننا وقفنا أمامكم وأمام عملائكم وقلنا "لا". نجوت، أنا القاتل، وذبح جنودكم أمي الذنبة. فلا تُحدّثوني عن قدسية حياة المدنيين. لم أكن في يوم من الأيام حالمًا، لم أنتظر منكم غير هذا. وُلدت مقاتلاً في مُخيّم تمطر عليه السماء قنابلكم الفوسفورية، وأقتص منكم من استطاع وأقتله. هكذا عشت، اعرف جنودكم ويعرفوني. نفهم جيدًا قواعد اللعبة بيننا، فلا يحدثني أحد عن احترام حياة الأبرياء. لا أنا ولا جنودكم نأبه. المدنيون الأبرياء، ضحايا، خسائر حرب، يموتون عندما يكون موتهم ضروريًا. يموتون اليوم فوقي وغدًا فوقك أنت. أنت يامن تنظر إليّ الآن من وراء هذه الذكريات وتسأل نفسك: اسألها جيدًا كيف ستلقى في المرة القادمة؟ وأنت واقف على جثتي، أم وأنت راقد على ظهرك في سكرة الموت تحاول تبين ملامح وجهي.

لكن انتظر، لا تسيء الفهم. منذ يومين قصت عليّ أميرة أن سلمى اعترفت لها فيما يشبه الهمس أنها سرقت كتابًا من مكتبة في شارعنا. صُدمت أميرة وطلبت منها إعادة الكتاب للمكتبة. استغربت سلمى: ألا تقول لها دومًا أننا في صراع مستمر مع الغرب الصليبي؟ طلبت أميرة معها

ساعتين تشرح لها أننا في بروكلين، وليسا في ساحة قتال. لم تفهم سلمى معنى ذلك وسألتني – دون أن تذكر قصة الكتاب. عدم فهم شائع. قلت لها إنّي لا يمكن أن أخرج سلاحًا وأؤدي به بجاري في هذا البلد، أيًا كانت ملّته، فله عليّ حقوق الجيرة. لكنّي سأقتله، بلا تردد، إن كان ذلك جزءًا من قتال. لا أدري إن كانت قد فهمت. لكنك، يامن تنظر لي في ريبة وسط هذه القنابات الشخيفة، جاري في المترو أو الشارع، ولك عليّ حقوق الجار مثلك في ذلك مثل جاري الذي يسكن أمامي في بروكلين، وأرسل له الكحك في العيد، ويرسل لي الهدايا في عيد الميلاد. أما حين ينادي منادي الحرب، وتكون أنت أو هو في الطريق، فإنكما تكفّان عن أن تكونا جيراني، وتصبحان فردَ ضحيتين. يزعجك هذا، أليس كذلك؟ لكن لم؟ ماذا ستفعل أنت حين تقاتل في العراق أو أفغانستان وأجدني – أنا جارك – جالسًا أدعُو الزجيلة في طريق الصاروخ؟ هل ستوقف العملية وتناديني كي أخرج من طريق الأذى؟! عيب عليك.

الساعة تقترب من الخامسة، ويجب ألا أطيل أكثر من هذا. زوّار التحف رحلوا وجاء غيرهم أكثر من مرة، وأنا مازلت جالسًا. لكن يصعب عليّ مغادرة المكان؛ كأنّ هذه القنبلات ملكي، كأنّها جزء من بدني. يجب أن أذهب مع ذلك. يجب أن أعود للمسجد في بروكلين، ثمّ أذهب لهذا العشاء. والله لولا إصرار أميرة وعينيّ لسلمى ما ذهبت. طيبة هذه البنت. رغم توحّدها فهي خامة طيبة؛ نُشارية وعجينة، ولديها فضول قوي يدفعها للسؤال عن كلّ شيء، منذ زمن لم أقابل فتاة لديها هذا الحرص على التعلم، حادّة الذكاء، وروحها نقية. لم تفسد رغم نشأتها في بيت منظم، من

www.miaana.com-RAYAHEEN

يدري، لعلّها ورثت حبّ العلم والجدية عن الدكتور جدّها، وإن كان هو قد أساء استخدام هذه الموهبة، فلعلّ حفيدته تأخذ طريق الصواب. أميرة تحاول إقناعها بالبقاء هنا، ويمكنني تدبير منحة دراسية لها وحثها على الالتزام، وأميرة تقول إن ليلى أمها يمكن أن تساعد هنا. الأم هي الحلقة الأهم، فالجد رجل عُرف. لم يعد أحدٌ يهتم برأيه، والأب بلا قرار. جزاك الله خيرًا يا أميرة إن أفلحت. بنت بهذه القدرات يمكن أن تتحوّل لطاقة للخير إن أحسن إعادة تربيتها وتعليمها، وأميرة قادرة على ذلك بإذن الله. سأرى أباها وجدّها هذا المساء، لكنّي لن أحدّثهما بشيء من هذا. وذكّرت أميرة ألا أحدثهما، فلا يجب أن نبدو وكأننا حريصون على هذا الأمر أكثر مما ينبغي. أميرة كفيلة بإقناع البنت، وبعد ذلك غُدّت ليلى أمها وإن شاء الله يستقيم الأمر بعدها.

كنت أظن أننا سنقاتل حتى النصر. بعد حرب 1967 دفنت ما تبقى من جثمان أبي الذي قتله القنبلة العنقودية، وأودعت أمي وأختي في الخيّم، وخرجت للقتال مع من خرجوا. عشرون عامًا وأنا أقاتل، في الأردن وفي لبنان وفي أوروبا. عشرون عامًا تربص برجالكم، ورجالكم يتربصون بنا. نقتلهم ويقتلوننا، يدم بارد أو ساخن حسب الأحوال. إن تمّ القتل في بلد عربي فهو غالبًا بدم حار، وإن تم في أوروبا فهو يدم بارد: طلقة من مسدس تُودع في الجمجمة، أو بعض المتفجّرات. كلّما قاتلناكم هزمتمونا، وخلفتم ثأرًا أكبر. فنعد لمعركة أخرى نلحق بكم لنّا أشد، لكنّكم لا ترجعون، بل تجدون طريقة ما كي تعاودوا الكرة،

وتُلحقوا بنا خسارةً أشد. تعتقدون أن هزائمنا سترتدنا عن قتالكم، وهو لن يكون أبدًا. كنت أتذكر لقادتي تكرار هزائمنا، فيقولون إن هذه غزوات تخسرها، لكننا لا نهزم إلّا إذا تركنا ميدان القتال. صمودنا مفتاح الأمل، وبداية النصر وإن بعد. ولين النصر البعيد؟ سألت نفسي عشرات المرات، في المخيمات والخنادق، وخلف أكياس الرمل وفي العربات. وخلصت إلى أن النصر لن يتحقّق إلا حين تنقل المعركة إلى أرضكم أنتم.

ومن ثمّ قررت المجيء إليكم في عُقر داركم. فمنذ أكثر من مائة عام وأنتم تقاتلوننا على أرضنا، وحان الوقت الذي تنقل فيه القتال إلى أرضكم. نحن داوود وأنتم جالوت الطاغية. لم يهزم داوود جالوت بعضارعته وجهًا لوجه، فجالوت أقوى وأضخم، وأقدر على المنازلة. لكن داوود انتصر بالحيلة حين سدّد الحجر لعين الطاغية العملاق فأرداه من الألم. بحثت عن عينكم، وسدّدت لها ضربة قاصمة. وقفتُ أرقب انهيار البرجين، والعمود النصر النهالي يعلوني حينًا فحينًا وضعت كلّ القطع معًا، رصّصتهم ورتّبت تسلسلهم في حلقات تُفضي بعضها لبعض. لا أحد يمكنه أن يدرك مدى عبقرية التخطيط لُنلي، كهذا. لا أحد غيري كان يستطيع جمع الأضداد كلّها في منظومة واحدة، بحيث تساعد بعضها البعض دون أن تعرف بعضها أو ما تفعله، لكنّها في النهاية تؤدي للنتيجة المرتجاة. لم أرَ مثل هذا النبوغ يتجسّد هكذا من قبل. من يمكن أن يصدّق أنّي جعلت الذئب والحمل يعملان سويًا، يكملان عمل بعضهما، دون أن يعرف أيّ منهما الآخر أو يراه. وضعت الأجزاء في مكانها، في متناغمة

تكاد تكون سحرية. لو كان من الممكن رسم هذه العملية لصارت أشهر من لوحات دافنشي، ولو كانت موسيقى لصارت أعظم من تاسعة بيتهوفن. هذه هي أمّ العمليات بحق، ولن أبلغ هذه القمّة مرة أخرى.

وقفت أرقب انهيار الرجين، والصّراخ الذي ملأ به فادنكم وسائل الإعلام. كلّما علا صراخهم وتهديدهم ووعيدهم، كلّما تأكّدت من عمق الألم الذي أصابكم، ومن قلّة حيلة قادتكم. ظننت أن هذا الصراخ سيحرّر ثمّ يفيقون لما أصابكم. لكنّهم لم يفيقوا، بل أمعنوا في غيّهم. لم أعلمهم العطرية يرون الحقيقة، بل تكاد تكون قد أعمتهم أكثر. أيّ حماقة تلك التي تدفع المرء بعيدًا عن سبب ألمه، فيعزوه لما يمكن أن يكون فيه شفاؤه، ويزيد المشكلة تفاقمًا؟ لم يخطر على بالي أبدًا أن يكون هذا هو ردّ الفعل؛ قلت فترة وقرّ، وبدأ العقلاء في الانتباه لأصل المشكلة. لكن سنوات مرت، ولم يحدث شيء من هذا. سنوات مرت ولم يحدث شيئًا إطلاقًا، لم يتغيّر شيء. فقأت عين جالوت لكن الألم لم يجعله يتوقّف عن الطغيان، بل زاد طغيانه عمى.

فهمت. أخيرًا فهمت؛ لا أنتم منتصرون ولا نحن منتصرون، بل سنواصل قتال بعضنا البعض إلى الأبد. نطعمكم ونطعمونا دون أن يسقط أحدنا ميتًا. لن يخرج أحد منا منتصرًا إلاّ لو استسلم الآخر، وهو لن يكون. لا خسائركم ستردكم عن غيّكم، ولا هزائمنا سترتدّنا عن حقوقنا. الحرب، هذه المعارك المستمرة بيننا، تضبط إيقاع القتال بيننا ولا تنهيه. لم يبق لنا سوى أن نؤذي بعضنا، بلا توقّف ولا نهاية. وهكذا صرت أقف هنا كالشوكة في عينكم؛ كلّ شوكة تدميكم هي شوكة أقل في عيوننا

نحن. ماذا ستفعلون فينا؟ نحن بالقرب، هاهنا، حتى آخر يوم لنا ولكم. صحيح أنّي وقّعت القتال، لكنّي باقٍ كي أؤذيكم، والأقلّ من أذيتكم لنا، لا أكثر ولا أقل.

الآن أعط بالقانون وعدم العنف. لا أحمل سلاحًا ولا أدعو إليه، بل أتمّ الصلاة في مسجدنا الصغير بروكاين، وألقي دروس الفقه والسنة على من يريد الاستماع، وأدرّس للشباب منهجًا للدراسة ووظائف، وزيجات صالحة. لا أكثر من ذلك. لا أدرّب أحدًا على حمل السلاح، لا أعلّم أحدًا القتال، بل لا أنصح به أحدًا. كلّ ما أفعله هو تقوية هوية شبابنا، وإعادته لجذوره، وإبعاده عن السّقوط في براثن الحضارة المادية التي تغرونه بها. كلّ ما أفعله هو الحيلولة بينكم وبين السيطرة على هذه البراعم التي تنمو بين ظهرانيكم. أحميهم من نسيان من هم، ومن أين يأتون، وماهية المصير الذي ستلقون بهم إليه. أبصّرهم بنفاق دعاواكم، وأريهم كيف تكيلون بمكيالين؛ واحد لنا وواحد لكم. أحمي هذا الشباب، وأضمن ألاّ يسقط فريسة لدعايتكم الرخيصة حول المساواة وحول الحرية الظاهرية. أحمي الشباب وأفرزه، وأترك له بعد ذلك أن يقرّر طريقه بنفسه. إن قرر أن يسلك سبيل الجهاد، ووجد في نفسه القدرة عليه، فسيأتي من يساعده ويأخذ بيده. ليس أنا، بل آخرون ممّن لا تروننا يخرجون من بين أيديكم ومن خلفكم. فماذا أنتم فاعلون بي وبهم؟ تغيّرون قوانينكم كي تضيّقوا الخناق علينا أكثر؟ إن فعلتم ستجدون ما قلناه دومًا، وهو أن حديثكم عن الحرية والمساواة محض نفاق، وأنّكم ستدوسون على هذه الشعارات حين تجابهون لذلك، مثلكم في هذا مثل من كنتم تقاتلون. أسترسلون بنا

للسجون، وتشكون في العرب والمسلمين أكثر، وتتخذون الإجراءات للحيلولة دون تسرب أبنائنا للمناصب ذات النفوذ؟ فلتفعلوا! لكن كلّ طعنة ضدنا سكّبت صبّة دعاوينا، وقوّتي عزيمة شبابنا وتصميمهم على انتزاع حقوقهم منكم. قوتنا تنبع من ضعفنا: نحن أبناء داوود، لا أنتم. أنتم أبناء جالوت؛ ضعفكم يأتي من قوتكم. وكراهيتكم لنا تزيد من ترابطنا ومن عزمنا، وهو ما يزيد من رُهْبكم بنا، وتضييقكم علينا. وهكذا، نحن الاثنان، متداخلان في هذا العناق للميت الذي يدمينا سويًا، وأكثر من يستحثّل الألم أكثر.

الساعة الخامسة، سأتركم الآن، وأذهب لسجدتنا ولعشاء سلمى. يعزّ عليّ أن أترك هذا التحف، أنا القطعة الناقصة في مقتنيات القاعة التذكارية لقتلانا الذي لا ينتهي. وإذ كان القائمون على أمر المكان يستأثرون بتحديد قائمة المقتنيات، فإني مرسل لكم واحدًا منّا كلّ يوم ليجلس هنا، ويُكمل الصورة، على هذه الذكّة الخشبية في التحف التذكاري لقدرنا المشترك.

www.mlaznaa.com
^RAYAHEEN^

5

ماريك

ظللت أحدّق في شاشة الكمبيوتر غير مصدق: نيويورك؟ ماريك هنا، في نيويورك؟ بعد كلّ هذا تقابل بالصدفة! ماذا جعلني أكتب إليها؟ خطرت على بالي مثلما يحدث كلّ عام، تخرج ذكراها فجأة من حيث لا أحتسب، وتحتلّ تفكيري فأكتب لها. في العادة تأخذ أسبوعًا حتى ترد. هذه المرة ردّت بعد دقائق. رسالتي وردها متصدران في قائمة الرسائل يحملان نفس التاريخ. ظلتُ مازلت أحدّق في شاشة الكمبيوتر حين ظهر اسمها الجميل على الشاشة: ماريك. هذه الحروف التي تدخل رؤاهم البهيجة في قلبي وتغمرني بموجة أمان لا أدري من أيّ بقعة في نفسي الجائعة تأتي. ماريك في نيويورك، وبلدة أسبوع. كتبت لها على

الفور ردًا من كلمة واحدة: تشقى؟ أرسلته قبل أن أفكّر في عواقب هذا العرض. وجلست أحدّق في الشاشة. بعد دقيقة ظهر اسمها ثانية. فتحت الرسالة وأنا أتحسّب. تقول: "نعم" وتسأل أين؟ ارتسمت ابتسامة طافية على قلبي: لا تفكير الآن في العواقب، سأراها، سأرى ماريك. زادت حماستي وقصرت المدّة بين رسائلنا. بعد عدّة مبادلات اتفقنا على اللقاء في بهو الفندق الذي تنزل به في تقاطع الجادة الأولى وشارع 49، في الثامنة والنصف مساء نفس اليوم.

سألتني عاريك. فيم كنت أفكر حين عرضت عليها اللقاء؟ كيف سألقاها؟ كيف سأنظر إليها، وكيف نتقابل؟ هل أحتضنها أم نسلم باليد كالغرباء، أم نقبل بعضنا على الخد كالأصدقاء؟ وماذا سنقول لبعض؟ سنتحدّث عن أسباب تواجدنا في نيويورك. سألخّص عليها كيف وجدت منحة بإحدى المستشفيات هنا لمدة عام أوشك على الانتهاء، وسنقول لي ما أتى بها. ستسألني عن أخباري في مصر، وأخبار سلمى، وسأسألها عن تطورات حياتها منذ رسالتها الأخيرة في العام الماضي؛ هل انفصلت لأسترداد متلما كانت تُخطّط، لم طلّقت في البدء متلما كانت تريد، ومصير بيتها الصغير. ثمّ نصمت، ونرتشف شيئًا من شرابنا، ربّما يقاطعنا النادل بسؤال. ثمّ نستأنف الصمت. هل ستسألني عن حياتي العاطفية؟ هل أسألها عن هذا البوتالي الذي ذكرته في رسالتها؟ لا، لا أريد أن أسمع شيئًا عن بوتالتها أو عن غيره. هل ستطرق للموضوع المعقّد؟ هل ستتحدّث عنا، عمّا جرى؟ لم نلتق وجهًا لوجه منذ كنا عاريْن في الحب، منذ اتفقنا على أن تأتي في عيد الميلاد وتقيم معي حتى ترتب أمورنا.

لمحتُنا في التليفون مرة، وتبادلنا رسالة أو اثنين كلّ عام، لكننا لم نتقابل. هل تغيرت؟ أي ماريك ماريك.

نزلت في محطة شارع 51، وسرت باتجاه الجادة الأولى. الجو دافئ، عبرت الجادة الأولى ومشيت إلى العنوان الذي ذكرته. لا آتي كثيرًا إلى هذا الجانب من المدينة. وجدت الفندق بجوار مبنى الأمم المتحدة. المبنى مظلم عدا بعض الأنوار المتفرقة في طوابقه العليا. ماذا يفعلون في الأمم المتحدة في هذه الساعة المتأخرة؟ عبرت الشارع ودخلت من باب الفندق، فرأيت مكتب استقبال صغير تقف خلفه مُوظّفة واحدة. سألتها عن البهو، فقالت إن هذا هو، فلما بدا عليّ التردد أشارت عليّ بالبحث عمّن أريد في البار. دخلت من باب صغير، فوجدت مطعمًا مستطيلاً يُطلّ على الشارع وفي وسطه، على اليمين، تجلس الرائعة ماريك مع رجل في أواخر الخمسينات على أريكة نصف دائرية، وأمامهما تناثرت أوراق على المضمدة وكأسين من شراب. هي، بشعرها الأصفر الغامق المقصوص عند كتفيها، ونظارتها المستديرة الرفيعة، وابتسامتها الكبيرة، وشفتها السفلى الملتوية في سخرية خفيفة، وخدّيها الورديين، وعنقها الأبيض الناتئ للحمرة. ترتدي قميصًا رجاليًا أبيض، ومن فوقه سترة داكنة، وأرى بنطالها الأسود وحذاءها من أسفل المضمدة. كتفيها العريضين، وجسمها المتناسق الذي أذكره. كأنه كان بالأمس معي. هي، ماريك التي أحبّها، رغم السنوات ورغم ما فعلته بي. فيم كنت أفكر حين دعوتها للقاء؟

رفعت عيناها من الأوراق ناحية مدخل البار، فرأتني في وقفتي المتحمّسة. علت ابتسامة وجهها فأضاءته أكثر. تعلّقت بجليسها تحوي،

وقطع ما أعزم أنه غزل من ناحيته. قامت من خلف المنضدة فمشيت نحوها. خرجت من وراء المنضدة وهي مرتبكة بعض الشيء، وتقدّمت نحوي. ماذا تفعل الآن؟ أمدّ يدي لها أم أفتح ذراعي؟ لم تنتظر: فتحت ذراعيها واقتربت معانقة، فعانقتها مضطربًا، ثمّ أطلقنا العناق أكثر قليلاً مما يفعل الأصدقاء. أرجع كلّ منا رأسه للخلف قليلاً، ليرى وجه الآخر دون أن يباعد جسمانا، وابتسمنا لبعضنا ابتسامة العارف بكلّ شيء؛ بالحبّ وبتعقيدات الدنيا والنفس، ابتسامة العارف المستسلم الرافض المقاوم معًا، ثمّ تعانقنا من جديد، لحظات، ثمّ تباعدنا. أخذتني من يدي، وقدمتني للرجل الذي كانت تجلس معه منذ دقيقة: فلان الفلاني – لم أستوعب الاسم الهولندي – رئيسها في العمل. ثم قدّمتني باسمي الأول: "لقمان، صديق قديم". وسلّم الرجل عليّ في اهتمام غير شديد، وقال شيئًا ما حول ساعات العمل التي لا تنتهي وهمّة ماريك، ثمّ أشار لها بالذهاب لتعتني بصديقها، وربت على كتفها. شعرت بغضبة: "لماذا يضع يده على كتفها؟".

جلسنا في آخر البار. سألتها عن رئيسها، وما يبدو أنه مغازلة، فضحكت وقالت إنه زير نساء ولا خطر منه، لأنّ نوايا بينة، ثمّ سألت في سخرية إن كنت أغار. رفعت يدي مستسلمًا أن ماحيلتي، فضحكت مرة أخرى ولمست يدي مُعيدةً إياها للمنضدة. سألتني عنّا أتى بي لبروكلين وقلت لها، وسألتها عنّا أتى بها، وقالت لي شيئًا عن مناقشات بين شركات الأدوية التي تعمل في إحداها، وهيئات الرقابة على الأدوية، ومنظّمة الصحة العالمية، وتذكّرت أني قرأت شيئًا في جريدة الأمس عن

هذه المفاوضات. ابتسمت وقلت إنّي لم يخطر ببالي عندما قرأت عن هذا الموضوع أن يتسبب في لقائنا فابتسمت وقالت شيئًا. سألتها عن أخبارها، فقالت إنها لم تنتقل من لندن، وما زالت تذهب لعملها في أستردام بالقطار كلّ يوم، لأنها لا تقوى على مغادرة مدينتها الصغيرة. قلت إنّي كنت سأغضب كثيرًا لو تخلت عن مدينتها الصغيرة بعد كلّ ماحدث، فقالت عيناها إنها فهمت الإشارة ولا تريد الخوض في هذا الموضوع، وانتقلت للسؤال عني. حكيت لها تطورات العام الماضي منذ تكاتبنا: استقراري بنيويورك، وعملي للمدينة ولسكني بروكلين، زيارة سلمى ابني وإعجابها الشديد بالمدينة، ورغبتها في الانتقال هنا والدراسة، وربّما الحياة معي لو قررت أنا البقاء بنيويورك. قالت إن هذا خيار صعب بالنسبة لفتاة في سنها، وسألتني عن رأيي. رفعت يدي في استسلام قائلاً إن البت تسأل نفس الأسئلة التي أسألها لنفسي منذ كنت في سنّها، فابتسمت موافقة.

سألتني عن تطور الحياة في مصر، وتناقشنا قليلاً في السياسة. ثمّ انتقلنا للحديث عن هولندا، فقالت لي إنها انضمت للحزب الديمقراطي المسيحي، وتعمل في مشروعات لإدماج المهاجرين في المجتمع المحلّي في لهاي. سألتها كيف لها الأمر فلم تحفل إحباطها، وأضافت أنها اكتشفت لأيّ مدى كانت ساذجة حين ظنّت أن العمل السياسي تحكمه المصلحة العامة. أطرقت وأنا أفكّر بيني وبين نفسي: ألم أقل لك ذلك منذ سنوات طويلة؟ ومن موضوع لموضوع، تحدثنا عن كلّ شيء: عن تفاصيل عملي وأبحاثي في السرطان وأبحاثها عن النباتة في مصر وفي أوربا،

والمهاجرين العرب والمسلمين، والمشاكل بينهم وبين الدولة والمجتمع في هولندا، والسياسة في أمريكا و"الحرب على الإرهاب"، وعلاقتي بسلمى وعلاقتها المعقّدة بأمها، وعلاقة أمها المعقّدة بجدها، وتوق ماريك لأن يكون لها أولاد، ووالديها وأخيها، والبيت في لندن، والوسيلي، وباخ، وإدوارد سعيد الذي تحبّه و لم نلتقِه قط، وسنحت لي فرصة للعشاء معه منذ شهرين لكنّي لم أذهب كسلاً، وتعشّينا بالأحمق وضحكت، وقالت إنها ولا ريب إحدى لحظات الغباء الذي يعتريني من وقت لآخر. لم أرد على الإشارة، وواصلنا الحديث عن كلّ شيء إلا نحن. لم نتناول عشاءً، بل قضينا الساعات الثلاث في الحديث. ثمّ جاء الشالي ليعلن قرب إغلاق المكان، ويقترح أن ننتقل للمطعم في الطابق الأخير إن أردنا استكمال الأمسية. بدت مُنهكة، فاقترحت عليها إنهاء السهرة هنا، وأومأت موافقة قائلة إنها لم تنم جيدًا منذ وصلت. صمتنا ونحن لا نعرف أين يقف كلّ منا بالضبط. ثمّ سألتني إن كانت نوبة عملي في الصباح، فقلت "لا"، قالت إن جلسة المفاوضات لن تبدأ قبل الحادية عشرة، واقترحت أن نتناول طعام الإفطار سويًا فوافقتها على الفور، واقترحت بدوري مطعمًا جديدًا بقرب منزل في بروكلين، واتفقنا أن نلتقي أمام محطة جسر بروكلين في التاسعة. قبّلتها على خدّها، وتركتها ورحلت.

حين هبطت من التكويري في طريق صلاح سالم تلقيت اتصالاً هاتفيًا من ماريك. نظرت للشاشة وأنا أواصل القيادة، وتعرّفت على رقمها. أوقفت السيارة على جانب الطريق وردّدت. جاء صوتها الرخيم حذرًا أكثر من العادة.

كنّا في شهر نوفمبر وبقايا مطر مُبكّر تكسو الطريق. السيارات المارة تلقي برذاذ ماء مُتسخ على زجاج السيارة. قالت إنها لن تستطيع المجيء في عيد الميلاد، سألتها لم؟ فقالت أنها، لم أفهمها عن حاجتها لأن تكتشف نفسها أكثر وتفهمها أكثر قبل أن ترتبط بأحد. استوضحتها، فقالت لي إنها ستشرح لي كلّ شيء في رسالة، لكنّها أرادت أن تسمع صوتي، وأن تقول لي ذلك في محادثة وليس في رسالة. قلت لها أن تأتي وتقول لي ذلك وجهًا لوجه، وأنّ هذا أفضل عند الربّ من التليفون فضحكت وقالت إن صوتي في التليفون كاذب عند هذه النقطة. قالت إنها فكرت كثيرًا في الموضوع، وأنّ هذا هو أشقّ قرار تتخذه، وأنها تعلم يقينًا أنها تحبني، وأنّي تؤلم روحها، وأنها مستعدة في هذه اللحظة أن تقفز بي وللأبد، لكنّها أيضًا تعلم أن ذلك مستحيلاً، لأنها هي ولأني أنا، ولأننا لو حاولنا أن نتخلّى عن أنفسنا، كي نتمكّن من الحياة سويًا فسنفقد أنفسنا. "لا أنت تستطيع الاستقرار في لندن، ولا أنا أستطيع الاستقرار في القاهرة. كلانا لديه مشروعات لا يمكنه تحقيقها في بلد غير بلده". "وظهوري سيعقّد علاقاتك بسلمى أكثر". "واختلاف الدين، أنا أريد أن يكون أولادي مسيحيين". اعترضت، توسّلت، استرققت قلبها وعواطفها، وحاججت عقلها، وفعلت كلّ ما استطعت أن أفكّر في فعله وأنا واقف على حافة صلاح سالم، والسيارات ترميني بماء مُتسخ، لكنّها كانت قد حزمت أمرها. قالت: "هي هي نفس العضلة التقليدية، حبّ واستحالة". وبكت، ثمّ أغلقت الخط. ووجدت نفسي أقف وحيدًا في طريق صلاح سالم، أكثر وحشة من أيّ وقتٍ مضى.

www.miaona.com-RAYAHEEN

التقينا عند محطة جسر بروكلين في تمام الثامنة، لم يتم أيٌّ منا حينًا لكنا كنا متيقظين. كنا في حالة من الفرح لا يمكن تفسيرها بغير الذي يحدث عنه، كأننا نريد أن نقتنص كلّ لحظة ممكنة. تناولنا إفطارنا ونحن نحتفل بالطعام: هذا زبادي، يا سلام. وهذه قهوة، تصوّري؟ هذا خبز بني بالحبوب، وهذا بيض وذلك سلمون، معقول؟ هناك أيضًا سلطة فواكه وأنواع من الجبن، وعصير برتقال، وتوت حقيقي أحمر وأسود. هذا المطعم رائع. تناول إفطارنا معًا، كأنه كلّ الإفطارات التي كان يمكن أن نتناولها معًا. ويتسلّل إلينا شعور متزايد بالأمان يدفعنا للاقتراب من المناطق الخطرة. امتدحت المطعم ثم أضفت في تلاعب: أن هذا الإفطار يكاد يبلغ في جودته إفطارنا في ليدز، فابتسمت وقلت "يكاد، لكنه يحتاج لمزيد من الوقت كي يبلغ هذه الرتبة" فضحكت وسألتني إن كنت أذكر المكرونة التي أعددناها سويًا في بيتها بليدز، فأجبت أنها كانت بالبروكلي والزيتون الأسود. أبدت اندهاشها من تذكّري لهذه التفصيلة، فنظرت لها نظرة ولم أرد.

استجمعت شجاعتها أخيرًا، وسألتني عن حياتي العاطفية، فهززت كتفي في لامبالاة مُشيرًا لعدم وجود ما يستحقّ الذكر. صمتت، ثم سألتها عن ميوليها، فابتسمت وهزّت رأسها نافيةً أن يكون هناك شيء. "لم تتطوّر الأمور أكثر من حدود القاهرة الأولى التي ذكرتها لك في رسالتي"، قالت، "لم يكن جاذبًا، ولم يكن بيننا من التوافق الروحي ما يمكن البناء عليه"، ورمقتني بنظرة متسائلة عمّا إذا كنت قد فهمت، فأومأت وصمتنا. أردت أن أسألها عن توافقنا الروحي وما إذا كان قد شفع لنا، لكنني ترددت. لا

أريد إفساد بهجة هذه اللحظات. لكنها فسدت وحدها. بدأ يتسلل إليّ ذلك الألم الذي شقّ جنبي، حين قالت أنها لن تأتي للقاهرة، نفس الألم الذي شقّ جنبي في كلّ مرة تحدثنا فيها، ولكأننا وتخاصمنا حول حتمية واستحالته. كم مرة قررت قطع الاتصال بها كي أتفادى هذا الألم؟ والآن، بمحض إرادتي ألقاها. فيم كنت أفكر حين اقترحت ذلك؟ ما الذي كنت أتوقع حدوثه؟ أن تختلف هي هذه المرة؟ أن أختلف أنا؟ أن نتفق أخيرًا، ونعيش في سعادة إلى الأبد؟ ما هذا الذي أفعله بنفسي؟ وكيف سأعود بعد ذلك لحياتي الخالية من الأمل؟ لماذا يبكّا الم، جراحه يبده؟ وهي، العاقلة، الأبعد نظرًا والأكثر حكمة، لماذا وافقت على اللقاء؟ هل لديها بعض الأمل – مثلي – في أن نتفق، في أن ينتهي بنا الأمر سويًا؟

قاربت الساعة على العاشرة والنصف، فانتبهنا لضرورة الرحيل.

– متى ستنهين من عملك اليوم؟

– ليس قبل العاشرة مساءً، لكن يمكنني الإفلات منهم مبكرًا في الخامسة عصرًا.

– وهل لديك خطط بعد ذلك؟

– لا، أين سلمى؟ ألن تلتقيها غدًا؟

– لا، سلمى في زيارة لواشنطن.

– دعنا نلتقي إذًا.

– بكل سرور.

تأبطت ذراعي ونحن خارجين من المطعم، ثم تبادلنا قبلاً صديقة ورحلت. وقفت لحظات أرقبها حتى دخلت محطة القطار، ورحلت بنظري إلى المستقبل.

لقابلنا أول مرة في نفس المدينة، منذ سبع سنوات بالضبط، في حلقة دراسية نظّمتها الجامعة. أعجبت بها منذ وقعت عيني عليها، لكنّي كنت مرتبطًا، ومن ثمّ لم أسعَ لاستكشاف هذا الطريق. قالت لي – فيما بعد – إنها أعجبت بي منذ لقائنا الأول وحاولت استكشاف موقفي، لكنني أخبرتها بطريقة غير مباشرة أنّي مرتبط. لا أذكر ذلك، لكنّها تؤكد أنّي كنت أتلقّى مكالمات تليفونية عديدة، وأنّي ابتسمت محتارًا ذات مرة كنت أحادثها، ودقّ جرس تليفوني قائلاً إن هذه مكالمة من "نصفي الخطر"، فأصبحت. لم يحدث بيننا سوى هذا الإعجاب الخفي، إعجاب يدرك إمكانية تطوره، لكنّه يظلّ مُؤجّلاً. بعد ذلك بشهور أرسلت لي صورًا الملتقطتها للمشاركين في الحلقة الدراسية جميعًا، وبعدها بعام أرسلت لها، ولبقية المشاركين أخرهم عن بحث طبي قمت به في المجال الذي كنّا نبحثه أثناء الحلقة الدراسية فردّت مُهنّئة، وبعد ذلك بعام كامل أرسلت تُوصيني على زميلة لها ستقضي عدة أسابيع بإحدى مستشفيات القاهرة، وهنا تطوّرت الأمور.

كنّا في أواخر أغسطس عندما وصلت رسالتها التي تُبلغني فيها بوصول صديقتها للقاهرة، وكان الجو حارًا الدرجة تدفع للبأس. وفي وسط القيظ، وأنا أنضح عرقًا في صالة منزلي الصغير، رددت عليها ومسألتُ عن طبيعة علاقتهما هي وصديقتها، فأخذت رسالتي على تحمّل الجد وردت قائلة إنها "مستقيمة"، وإن الكثيرين يعتقدون أنها ليل للنساء، الأمر الذي يثير أعصابها. ثمّ سألتني ما هو الأمر الذي دعاني للاعتقاد بأنها كذلك؟ فلم أجد بُدًا من التظاهر بحصيلة ما ذكرته مزحًا، فقلت لها إن جديتها

في التعامل مع الرجال ربّما تكون مسئولة عن هذا الانطباع. فجاء ردّها مباشرًا. قالت إن طنّي هذا يعني أنها حالة مفقود الأمل فيها، حيث إنها شعرت بالانجذاب نحوي، وظنّت أنها عبّرت لي عن إعجابها. أضافت أنّي كنت وقتها مشغولاً بامرأة أخرى، ولكنّ لم يخطر على بالها أنّي يمكن ألا أخطط إعجابها، بل وأنّ أظنّ بها الميل للنساء. ثمّ سألتني عمّا إذا كنت مازلت مشغولاً بهذه المرأة الأخرى؟ هكذا. وأضافت نصف اعتذار عن أسلوبها الباهر الذي وصفته بأنه "أسلوب هولندي أصيل".

تبع هذه الرسالة "الهولندية" سبعمائة وثلاثون رسالةً أخرى خلال عام، بمعدّل رسالة كلّ يوم من كلّ منّا. كانت هذه الرسائل عبارة اعترافات متبادلة، عن كلّ شيء. كانّ منّا قد أصابنا، لم نترك موضوعًا إلاّ وخُضنّا فيه وبصراحة تامة تكاد تكون جارحة. أخرج كلّ منّا أسوأ مخاوفه عن نفسه وعن الآخرين، كلّ منهما أنه عيوبه، أحلامه التي تخجّل عنها وتلك التي لا يجرؤ على التعبير عنها، ذنوبه التي اقترفها وتلك التي يتمنّى لو أنه قد فعلها، كلّ شيء، كأنّنا نتجرد عمدًا من كلّ قناع ومن كلّ ادّعاء. قلنا لبعضنا كلامًا قاسيًا ولكنّه صريح، وأصبحنا حالة الصراحة المتبادلة فأكملنا 365 اعترافًا من كلّ طرف، فتح كلّ منا قلبه للآخر مثلما لم يفعل من قبل، ربّما لأننا لم نكن نظن أننا سنلتقي. لكننا في أثناء ذلك أدمنّا بعضنا. لا أكاد أذكر من ذلك العام سوى هذه الأمسيات التي قضيتها أمام شاشة الكمبيوتر، قارئًا لاعترافات وكاتبًا لها.

ثم اقترحت عليها أن تلتقي، هكذا دون تفكير مثلما فعلت اليوم. سألتني لماذا نلتقي؟ فقلت كيلا نقضي بقية عمرنا نسأل ماذا لو كنا قد

القرن؟! وافقت، بشرط أن يكون هذا هو عنوان اللقاء، لا أكثر. اقترحت أن نلتقي في فينيسيا، فسألتها لم لا تأتي للقاهرة فقالت إن سفرها لبلد آخر كي تقابل رجلاً هو خطوة ضخمة لا يمكن أن تأتيها في الإطار الذي حدّدناه لأنفسنا، وهي لم تزر فينيسيا من قبل ولا أنا، ومن ثم يمكن أن يتم اللقاء في سياق "زيارة" كلٍّ منا لفينيسيا. ضحكت، وقلت إن هذه عملية معقّدة، وإنّي لا أمانع في السفر للقاء امرأة وسأعيد لزيارتها في هولندا. ضحكت و لم تعترض، واتفقنا على أن أزورها في مدينتها الصغيرة ليدن في الأسبوع الثالث من سبتمبر. أعلمت بهولنديتها الأصيلة أنّي سأقيم في غرفة منفصلة أثناء زيارتي لها، ولن يحدث بيننا أيُّ شيء. اعترضت مُستفسلاً كيف سنعرف بعضنا فعلاً إن لم نتخطى هذا الحاجز الذي يشوش الرؤية بين الرجل والمرأة؟ وقلت إنه إن أردنا معرفة حقيقة مشاعرنا، وما إذا كان ما بيننا يتخطى مجرد الانجذاب يجب علينا أن نمارس الجنس، كي نتخلص من هذا الموضوع، ونرى بعدها إن كنّا فعلاً نريد أن نكون معًا. ردت ساخرة إن هذه حجة رخيصة وقذرة: "لا جنس، وستنام وحدك في غرفة منفصلة". وقد كان.

أخذت القطار من مطار أمستردام حتى ليدن. خرجت من باب القطار، فوجدت تلك الشقراء البديعة تنتظرني بابتسامة عريضة وذراعين مفتوحتين: ترتدي شيئًا أبيض تعلوه سترة قصيرة من الجينز الأزرق، وبنطال أسود. شعرها أقصر مما رأيته أول مرة في نيويورك؛ لا يصل لكتفيها. نظرنا لبعضنا طويلاً، وابتسامانا تحن الآذن تقول أشياءً كثيرة، مثل: "ماهذا الجنون؟" "أحقًا أنت هنا؟ وأنتِ؟" "تُرى هل سيفلح هذا

الذي نفعله؟" "هل يمكن أن تكوني أنت، فعلاً، هي؟" و"كلانا يعلم أن هذا الأمر لن ينجح، لكن لم لا نحاول؟". ثم خرجنا من الرصيف، وقادتنا خارج المحطة إلى تاكسي صغير انطلق كالمجنون نحو منزلها، وهي تمسك بذراعي مع كلّ انحناءة حادّة من التاكسي. قلت لها بصوت هامس إنّي لم أكن أعلم أنهم يقودون بهذه الطريقة في هولندا، فابتسمت وهزّت رأسها نافية، وأضافت بصوت لا يكاد يُسمع: "يبدو أنك أحضرت معك سائقك الخاص". ابتسمت وهززت رأسي، وسكتنا حتى خرجنا سالمين. دفعت الحساب، وقال لها السائق الأبيض شيئًا بالهولندية، وتضاحكت معه ومضينا.

بيتها رقم 7 في شارع له اسم طويل لم أفلح في حفظه. البيت أبيض، من طابقين، في صف طويل من بيوت مشابهة امتدّ بعرض ميدان مستطيل تتوسّطه حديقة هادئة. أمام باب البيت مربع للدرّاجات. تحتل واجهة البيت نافذتان زجاجيتان شديدتا الارتفاع، يقسم كلاً منهما عود من الخشب الأبيض. فتحت الباب مرتبكة قليلاً، ودخلت خلفها وأنا أحدّث نفسي. اقترحت أن نصعد للطابق العلوي ونضع الحقائب في مكانها، ثم نرتاح قليلاً، فتبعتها. صعدنا سلمًا خشبيًا ضيقًا رأيت أعلاه صورة فتوغرافية بالأبيض والأسود لم أتبيّن تفاصيلها، وصورًا أخرى على الحائط يبدو أنها لعائلتها. في أعلى السلم وجدت ثلاث غرف. فتحت لي واحدة منهم، وقالت: "هذه غرفتك"، وابتسمت وهي تضغط على ضمير الملكية. ابتسمت ونظرت حولي. قلت إنها غرفة بروتستانتية، ليس فيها شيء واحد أو زخرف: فراش، وخزانة ملابس، ومنضدة صغيرة. أشارت

للحمام بجوار الغرفة وقالت إنها ستشترك في استعماله، فردت مبتسمًا بألاّ اعتراض لدي على المشاركة. تورّد خدّاها وهي تبتسم. أرتني الغرفة الأخرى التي اتضح أنها غرفة للغسيل، ثمّ فتحت باب الغرفة الثالثة قائلة إن هذه غرفتها هي. نظرت عبر الباب فلم أجد فراشًا، فابتسمت قائلة إن الفراش سيحمل في الغد، وستحتاج مساعدتي في نقله. سألتها أين كانت تنام فقالت في الفراش الذي أصبح الآن في غرفتي. "أي أنّي سأنام في فراشك! كنت أظن أنها اتفقنا على عدم التسامح بذلك!" لكزتني هازلة من تظرفي وقالت لي أن أستريح وأغير ملابسي إن شئت، وأنها يمكن أن تخرج للعشاء بعد نصف ساعة، أو نعدّ شيئًا في المنزل.

توقفت وأنا في طريقي للطابق الأسفل وقرأت القصيدة: المكي عن رجل يبحث عن الفردوس الأرضي، وهلّل يبحث عنه ثمّ مات عندما بلغه، ساحتها أدرك أن الفردوس أو الجحيم إنما يكونان في الرحلة نفسها وليس في المنتهى. هبطت السلّم الخشبي الذي يئز رغم جدته، فوجدتها جالسة في أريكة وثيرة، مكسوة بكتان أبيض مطفي اللون تقرأ الصحف. أزالت صفحة الجريدة لأسفل عندما رأتني، وسألتني إن كنت قد ارتحت. أجبت بإيجاب، فسألتني إن كنت أريد العشاء بالخارج أم أريد أن تطهو لي؟ خفق قلبي. لماذا يشعر الرجل بالإطراء عندما تطهو له امرأة؟ لماذا يشعر وكأن هذا عمل حميم؟ أبديت اندهاشًا مصطنعًا من أنها تستطيع الطهو، وقلت إنّي أفضل تذوق طعامها هي، فضحكت وحذّرتني من النتيجة وقامت. أعدتني لأرى بقية البيت: صالة من جزأين بها أرائك بجانب النافذتين المطلّتين على الشارع، والذي لحجبه ستائر من الكتان تهبط من أعلى

لأسفل، ثمّ منضدة صغيرة وأربعة مقاعد في الجزء الآخر، وخلفه مطبخ مفتوح أبيض الجدران، ومن خلفه تبدو حديقة صغيرة في الفناء الخلفي للمنزل. باب معظمه زجاج يفصل المطبخ عن الفناء، وتعلوه ستائر من الكتان أيضًا. حضيرة الحديقة الزاهية تبدو واضحة من خلف الستائر وباب الفناء. المطبخ بسيط وأنيق. سحبت مقعدًا وجلست أرقبها وأحدثها، وهي تُعدّ الطعام. أخبرتني أننا سنأكل معكرونة بالبروكلي والزيتون، وسألتني إن كنت لا أحبّ أيهما، وبدأت في إعداد الطعام وبدأنا في الحكي.

حكيت لها عمّا مرّ بي منذ التقينا في الحفلة الدراسية. لم يكن هناك جديد. لم أذكره في رسالتي، لكنّها أرادت الاستماع منّي مباشرة، ثمّ أخذت تقاطعني بأسئلة تستوضح بعض النقاط في كلّ قصة قصصتها. ثمّ أخذت تسألني عن أفكار أخرى فقلت:

– ماذا كنت تقصد حين قلت إنّك لا تحب عملك؟ هل هو الطبّ الذي لا تحبه، أم المستشفى الذي تعمل فيها؟ وكيف تفسّر أنك بارع في هذا العمل لهذا الدرجة؟ هل يمكن أن تبرع لهذه الدرجة في شيء لا تحبه؟ ولماذا واصلت هذا العمل كلّ هذه السنوات إذن؟ هل تظن أن المشكلة في نوع العمل فعلاً، أم أنك غير راضٍ لأسباب أخرى، ربّما لا تراها أو لا تريد أن تراها؟

– ....

– لا، أنا لست محللتك النفسية، فقط أريد أن أفهم. لأنّ كلماتك تشتّتني، وأشعر أنّي أفهم الروح التي تحرّك قلقك، لكن هذه نقاط غمضت عليّ.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

...

– هل تفضل الكثير من الزيتون في المكرونة؟ هل تزرعون الزيتون في مصر، أم أنه يُزرع فقط في فلسطين؟

...

واصلنا الحكي، وصبت لنا كأسين من البورتو الذي قالت إنه شرابها المفضل. لم أكن قد تذوقته من قبل، فأنا أفضل البيرة، لكني أحببته من يدها. قاربت الساعة على منتصف الليل عندما اقترحت أن نخلد للنوم. صعدت للطابق الأعلى وغيرت ملابسي واغتسلت، في حين ذهبت هي لجمع بعض الأغراض في الطبق، والتأكد من إغلاق النوافذ وغير ذلك. سمعت صوتها وهي تصعد السلم ثم صوت الماء يتدفق في الحمام. بعد دقائق خرجت، فخرجت وحيتها. كانت ترتدي ملابس نوم رمادية، ووجدتها ترتدي ملابس نوم مشابهة. ضحكنا وقلنا إننا نشبه فريقًا لكرة القدم: الفريق الرمادي! ثم قلنا تصبحًا عن النوم والصباح والإفطار، وخطة الغد، وتمنينا لبعضنا نومًا هادئًا، ودخلت لغرفتها. عند الباب استوقفتها:

– هل ستتركيني أنام في تلك الغرفة فعلاً؟

– طبعًا!

– لكني أخاف من النوم وحدي!

– لا تخف، الدار أمان.

– وأخاف من الظلام.

– هناك مصباح بجوار الفراش.

– طيب ماذا أفعل لو هاجمني الوحش؟

– الوحش!

ضحكت بصوت عالٍ:

– لو أتاك الوحش قل له إني في الغرفة المجاورة، وسينصرف خوفًا.

تبادلنا قُبلاً صديقة، وخلد كلٌ منا للنوم في غرفته. ولم يأتِ الوحش.

استيقظت في الصباح على صوت موسيقى "باخ" الآتية من الطابق الأسفل. هبطت السلم ووجدتها حيث كانت جالسة بالأمس، مستغرقة في الأريكة الكتانية بين الخرائد. رفعت رأسها وابتسمت: "هل أيقظتك الموسيقى؟" أدرت برأسي نافيًا، فأضافت: "لا أدري، لم؟ ولكني أحب الاستماع للموسيقى الكلاسيكية في الصباح بصوت مرتفع جدًا". قلت لا اعتراض لدي طالما كانت مقطوعات للبيانو وليست للآلات النحاسية، فضحكت وطمأنتني. كانت ترتدي بلوزة قطنية سوداء، وبنطالاً أسود، وشعرها الأشقر يبدو أكثر صفرة عما هو عادة، أو لعلها الشمس التي كانت تتسلل من النافذة وتنعكس على شعرها. مشيت للباب المفضي للحديقة فقالت إن هناك قهوة ساخنة في الطبق. صببت لنفسي كوبًا، وخرجت به للحديقة. الهواء مُنعش مع لسعة برد خفيفة حين تختفي الشمس. استنشقت الهواء وشعرت بأنّ أكسجينًا جديدًا يدخل صدري ويوقظني. فكّرت في نقاء الهواء هذا، وفي رئتي المسكينتين اللتين تحتملان تلوث هواء القاهرة منذ سنوات. ما الذي يُجبرني على ذلك؟ سألت نفسي للمرة الألف: ما الذي يدفعني للبقاء بالقاهرة رغم كراهيتي لما آلت إليه؟ كيف أفعل هذا بنفسي؟ كيف أعيش في مكانٍ أعلم أنه يأكل مني جزءًا كل يوم؟

من بدني، ومن روحي؟ هل هذه ضريبة ما يجب أن أدفعها؟ ولماذا يجب أن أدفعها؟ لماذا لا أعيش هنا، في هذه الحديقة؟ أطلّت برأسها من الباب: "إفطار أيها السيد؟" هززت رأسي موافقًا، وعدت للتأمل.

علينا الذهاب وإحضار فراشها الجديد. سرنا في شوارع ليدن النظيفة حتى وصلنا للشجر، وجدت فراشها قد وصل من المخازن، لكن السيارة التي يفترض أن تحمله للمنزل لن تأتي قبل الغد، مما يعني أنها ستقضي ليلة أخرى بدون فراش. تطوعت وأقنعتها بأنّ تحمل الفراش للمنزل. لم تكن المسافة بعيدة، وكان الفراش مُفكّكًا ومرصوصًا بعناية في لفة مُحكمة. حملناه وسرنا عبر شوارع ليدن، ونحن نمرق في الضحك من منظرنا.

– هل تعلمين أن الفلاحين في مصر يحملون فراش العروسين على عربة، ويطوفون به شوارع القرية قبل أن تذهب لمنزلها ليلة الدخلة؟

– لا، لم أكن أعلم، ونحن لسنا في الريف.

وصلنا، وتمكنا بعد لأي من إيصال الفراش الثقيل لغرفتها، ثم نصبناه سويًا، ووضعنا عليه المرتبة التي نامت عليها بالأمس. ألقت بنفسها على الفراش تختبره، ووقفت أرقبها في ابتسامة صامتة. انتبهت لنظراتي، فارتبكت قليلاً وقامت. وخرجنا نتجوّل في شوارع المدينة لنصف الثامنة. أرتني المنزل الذي حدّثتني عنه في رسائلها، وقالت إن الناس أصبحوا يتجنّبونه، لكنها تذهب إليه كلّ يوم كيلا يتم التخلّي عنه نهائيًا للسكارى ومتعاطي المخدرات. أرتني الشوارع التجارية المختلة بالشباب، والشوارع الفقيرة التي يقطنها الفقراء والمهاجرون، ثم مررنا من عند القناة التي تعبر المدينة أكثر من مرة ووقفنا عند الجسر الصغير فوقها، ثم سرنا في شوارع

أخرى بدت على صفيها مباني قديمة، كنيسة، ومجلس المدينة، ودار الأوبرا، وللمحكمة. وحدّثتني عن كلّ مبنى وتاريخه، ثم عدنا للمنزل.

– قلت إن علاقتك بابنتك سلمى متوترة، وأنها لا تنظر إليك حين تحادثك، وتظل صامتة معظم الوقت. ما أدراك أن الذنب ليس ذنبك؟ أعلم أنك فعلت كلّ ما في وسعك لكنّها هي لا تعلم ذلك. وإذا كانت لا تحبك مثلما تشك، فمن تظن المسئول عن هذا؟

– ....

– كيف يمكن أن يكون هذا صحيحًا: إنها في الخامسة عشرة، كيف يمكن ألا يكون الخطأ خطأك؟ إنها طفلة، وطالما غاضبة منك ومن أمها ومن العالم كلّه. من واجبك أنت أن تكسبها وتكسب حبّها! تقول إن أمها متعصّبة ومتوترة، ألا تظن أن سلمى ترى ذلك وتكرهه فيها، وتكره أنك تركتها وحدها مع الأم المتوترة، أو أنك أنت الذي تسببت في جنون أمها؟

– ....

– لابد أن هذا أمر صعب عليها.

– ....

– لكن لماذا تستسلم أنت لنعتّت الأم؟

– ليلى فقدت عقلها ولم يعد للحوار معها فائدة. بدأت بالتصوف ثم انتهى بها الأمر لجنون مطبق. لا أستطيع إجبارها على التعقّل، لا أحد يستطيع. طلبت مساعدة أبيها، وهو أمر صعب على نفسي، لكنّه فشل وأعلن يأسه من التفاهم معها.

– وكيف ستشعر سلمى إن وجدت امرأة أخرى تظهر في حياتك؟

هززت كتفي دون أن أجيب. فعثرت عيني الحديث إلى أبويهما، وقالت إن أخاها يعيش في الشبيبة ذاتها، ويمكنه أن يتناول معنا طعام الغداء. وافقت فانفصلت به فوزًا، ورثيت اللقاء. دهشت منها ومن نفسي، سأقابل جزءًا من عائلتها بعد يوم من لقائنا الأول الخطيفي. وكلانا يرغب في ذلك. هل نحن مجانين أم ماذا؟

عندما وصلت للمستشفى علمت بخبر وفاة "إدوارد سعيد". لم أكن قد قابلته، لكنّي كنت أحبّه كأنه أبي، وأحيانًا كأنه أنا. وكانت ماريك تدّعي أن بيننا شبهًا، شكلاً وموضوعًا، ولسبب ما تركت نفسي الحرف في هذا الحبّ المجهول من طرف واحد لشخص لم يسمع عنّي ولو عرضًا. اليوم مات "إدوارد سعيد"، وشعرت عنوة وكأنه فقد شخصي. دقّ تليفوني ووجدت ماريك على الجانب الآخر من الخط:

– لقمان: سمعت عمّا حدث لسعيد؟

– نعم.

– أنا آسفة جدًا.

– وأنا أيضًا.

– هل ستذهب للجنازة؟

– لا أدري. بأيّ صفة أذهب؟ يقال إن الراسم ستقتصر على العائلة.

– تذهب بصفته أبيك الروحي.

– حسنًا، لكنه لا يعرف ذلك!

– لا يهم أن يعرف، المهم أن تذهب، ولا أعتقد أنه كان سيمانع لو علم. سآتي معك. لنذهب ونودع أهله بطردونا.

– سنأتي؟ فعلاً؟ لكن الراسم ستيفا قبل الخامسة؟

– لا أعتقد أنهم سيغرقون بدولي هنا! هذه مفاوضات لانهائية فيما يبدو. سأحصل على تفاصيل موقع الكنيسة. لاقني بعد ساعة عند محطة مترال بارك في الجادة الخامسة، وسنذهب سويًا.

أيّ معجزة تلك التي جعلتني أشارك في مراسم وداع الرجل الذي نصبته أبًا روحيًا لي ولم ألتقه في حياتي، وتتأبّط ذراعي وتواسيني المرأة التي تعتبرها زوجة روحية لي وأنا أعلم أنها لن تكون لي؟ أجلس في أحد صفوف الكنيسة بين أقارب المتوفي وأصدقائه ومعارفه ومتملّقيه، أستمع إلى رثاء بحقه ممّن لهم حقّ الحديث عنه، وباريبوم يعزف موسيقى باخ، وماريك تمسك بذراعي وتربت علي، وأنواب قلبي تنهار، والدموع تأبى بإلحاح أن أرفع من البكاء، فتضمّني ماريك وتدفئني فأهدأ قليلاً، ودموعي تسيل دون أن أعرف إن كنت أبكي الليت أم بقي أم للمسيحية.

توجّهنا لمحطة ليدن. في خارج المحطة أشارت إلى مطعم بيتزا وحمّص مصرية، وأمامه بالضبط مطعم آخر بيتزا وحمّص إسرائيلية، وكلاهما يضع صور سندويشات فلافل وشاورما. ضحكنا وقالت إن المطعمين لم يتقاتلا بعد، ربّما بسبب معاهدة السلام. أعدنا القطار إلى لاهاي. جلسنا صامتين أرقب الحقول الخضراء وقطعان المواشي الهانئة. وصلنا لاهاي وبدأنا جولتنا الصباحية بمحكمة العدل الدولية. كان الجو باردًا. وقفنا لنأخذ صورة لنا

www.mlazna.com-RAYAHEEN

أمام التحكمة: وضعت الكاميرا على نظام "التصوير الذاتي"، وجرت لتقف بجانبي وهي تمسكة بمعطفها الصوف الأسود. اقتربنا من بعضنا، فلمستها كتفي، ثمّ وضعت يدي على كتفها متحرشًا. لم أبسط يدي عليه، وإنما كورتها وتركتها بالكاد تلامس كتفها. ضحكنا - ربّما من ارتباكنا، وتكفّت عدسة الكاميرا. قمنا بجولة كاملة في لاهاي الهادئة، حتى وصلنا للميدان الرئيسي الذي يتشرّف فيه الحمام والسياح القليلون الوجودون بالعاصمة، ووجدنا رجلاً يقلد تمثالاً لـ"توت عنخ آمون" فطلبت أن تلتقط صورة لي معه. تناولنا طعام الغداء في مقهى بأكثر أحياء المدينة حركة. مدّ متاضيده في الساحة الممتدة أمامه بين الأشجار، وتحت شمسيات كبيرة. أعمدة الإضاءة العمومية تبعث بضوء خافت يبدو غريبًا في الظهيرة المليئة بالغيوم، وهناك أربعة أو خمسة زبائن فقط في الساحة كلها. جاء النادل وتحدّث بالهولندية، وماريك تومن وتقول "باه، باه، بربما". وجّه الرجل الحديث لي، وهو يكمل ما خمنت أنه قائمة الوجبات الخاصة، وأنا أومئ وأردّد "باه، باه، بربما" وهي تكتم ضحكتها حتى ذهب. قالت إنّي كنت أرد في المواضع السليمة حتى ظنت أني أفهم ما يقول. طلبنا طعامنا وعدنا للحديث. حكيت لي قصص المهاجرين المسلمين بهولندا وأنواعهم، من القلة القليلة التي تندمج في المجتمع إلى هؤلاء الذين يريدون ولا تسمح لهم الظروف أو المجتمع بذلك، وهؤلاء الذين لا يريدون الاندماج بل ويحاولون تغيير معالم المجتمع كي تتفق وعاداتهم.

تناقشنا بعض الوقت في معنى الاندماج، وقالت إن من حق الأقلية المهاجرة أن تطالب المجتمع المضيف بالتأقلم مع عاداتها، وأنّ يفسح لهذه

العادات صدرًا، لكن هذا الحق يُهدر ضمنيًا هؤلاء الذين لا يرغبون في تغيير عاداتهم، خاصة حين تكون الأقلية المطالبة بهذا الحق نفسها غير راغبة في التأقلم مع المجتمع المضيف على الإطلاق. تحدّثنا عن العمل التطوعي الذي تقوم به في أحد المراكز المتخصصة في مساعدة المهاجرين على التعامل مع النظام الصحي المعقّد. استأذنت بالمناسبة وأجرت عدة مكالمات تتعلق بهذا المركز، وسمعتها ترفّه بربما وأخذت تشكرها، فرجرتني وواصلت الحديث. ثمّ قمنا وذهبنا للمشي قليلاً بالمنتزه الرئيسي، وضحكنا من قصة منتزه ليدن الذي تصر على السير فيه كي تحافظ على طابعه الدنل. سألتني عن انطباعي، وقلت إن لاهاي تبدو كمدينة هجرها أهلها، على الأقل مقارنة بالقاهرة. ردت بأنها هي التي تعيش في ليدن تجد لاهاي هادئة ومحافظةً أكثر من اللازم. سرنا وجلسنا وسرنا حتى المساء، ونحن نتحدث ونصمت، دون أن يكون الصمت ثقيلاً بينما نصمت، والشعر أننا مازلنا متصلين - كأننا نتحدث لكن بلغة صامتة.

في الثامنة وصلنا أمام كنيسة قديمة قالت إنها تذهب إليها في بعض الأحاد عندما تكون في لاهاي. ابتسمت وأنا أهزّ رأسي في يأس عابث:

- صحيح، مازلت لم تفسري لي قصة الكنيسة هذه؟

- بلى، لقد فسرتها حوالي عشر مرات في الرسائل.

- لقد طرحتها عشر مرات بإنجليزتي، لكنك لم تفسريها!

- حسنًا، سأحاول تفسيرها بعد غد. فغدًا سنذهب للأمستردام، ولا يصح الحديث عن الدين في هذه المدينة. بعد غد سنذهب للشاطئ، قريب لترى المحيط. قلت إنك لم تذهب للشاطئ، المحيط من قبل. سآخذك

لهذا، وساعتها لن يكون لدينا شيء لنفعله سوى التقاش.

– طيب، أبعد عند إذًا.

– الآن هناك حفل لعازف الشيللو الشهير بيتر وسيلي في هذه الكنيسة. سيعزف مقطوعات لصديقك المفضل "باخ" لمدة ثلاث ساعات: هل تريد الحضور أم أن لديك مشكلة في الدخول للكنيسة؟!

– هل تمزحين؟ و لم سيكون لدي مشكلة؟

– لا أعرف، واضح أن لديك شيء ضد الكاثوليك يعني ربما باختبارك لشهادات كمسلم وكذا.

– وماعلاقة هذا بذاك؟ سؤالي لك عن مسألة الإيمان برمتها، ليست عن الدين الذي تتبعينه.

– يعني تدخل؟

– طالما لن أضطر للصلاة!

لم يكن أحد مضطر للصلاة، فهذا البيتر وسيلي مسّ شغاف أرواح الجمهور حتى دمعت عيونا من التأثر. وماريك سعيدة كطفلة، وتختلس النظر لي من وقت لآخر، وعلى وجهها ابتسامة عريضة. أسعيدة هي لأننا معًا، ولأننا نشعر بهذه الراحة الكاملة بجوار أحدنا الآخر، أم سعيدة لأنها ترتاح جالسًا في قلب الكنيسة، وكانت تظن أن ذلك سيُسبّب مشكلة؟ قلت لنفسي ربما هي سعيدة لأننا نشعر بالراحة معًا، حتى ونحن في قلب عالمها هي. كنا جالسين في الصف قبل الأخير، ملتصقين، والجمهور القليل موزّع على الصفوف الخشبية، يختلس بعضهم النظر نحونا من حين لآخر. أعرف هذه الحالة: أنا الوحيد صاحب البشرة

الداكنة في الكنيسة، ولابدّ للجمهور الأبيض أن يتأمّل هذا الغريب. ماذا يفعل هنا؟ هل يتعلّم كي يرتقي ويصبح مثلنا؟ هل هو يا ترى دليل على أن هناك أمل في هذه الشعوب؟ أم أنه يتظاهر كي يخدع هذه الشقراء المسكينة؟ أعرف هذه الحالة وأكرهها! لا أريد أن أكون دليلاً أو عينة أو حتى نموذجًا. لكنّي الليلة لا آبه، أبتسم للجمهور الفضولي، أملأ ناظري من ماريك الجميلة، وأغرق مع الموسيقى التي تغمر جنبات الكنيسة العالية من الزعرف. وتصلي روحي، إذ استطاعت، من أجل باخ.

خرجنا من كنيسة الموسيقى في الحادية عشرة، وقررنا أن الوقت قد تأخر على العشاء، فعدنا للمنزل وتناولنا بعض الفاكهة، وقمنا بطقسنا المسائي حول الطعام المشترك، والقبلات الصديقة، ثم ذهب كلٌ منا للنوم في غرفته.

في العاشرة تمامًا رأيت وجهها الشرقي يظهر رويدًا رويدًا على سلم عطة جسر بروكلين وشعرها الأصفر القصير يتهادى حول وجهها مع صعودها للسلّم نحو الشارع. رأتني وابتسمت ابتسامتها العريضة الخاتلة. عند الدرجة الأخيرة من السلم مدّت لها يدي، فأمسكتها وانقربت مني فاحتضنتها. استسلمت لحضني. طال عناقنا والتصقنا أكثر. جسمي كله يمسك بها. لا يريد أن يفلتها. لم أكن أعرف أن أعراء جسمي يمكن أن يكون لكلٍ منها إرادة مستقلة. لم أكن أعرف أن أعضائي يمكن أن تشتاق، وأن تشعر بالتصالي بأحد، وأن تهدأ هكذا في حضنه. كأن كلّ جزء مني يطالبني بألاّ أدع هذه المرأة تبتعد. لا أريد تركها، وهي لا تتركني. تراجعنا

برأسينا للوراء قليلاً كي نرى بعضنا أفضل، لكننا ظللنا ملتصقين. احمر وجهها قليلاً من الخجل، لكنها لم تبتعد.

عدنا وقفنا وجهها في حضن بعضنا، ثم نظرنا لبعضنا مرةً أخرى. عيناها حمراوتان هذه المرة، من الدمع، وفي عينيّ مثل دمعها، وفي قلبي ألم مقيم. التصقنا، لا أدري ماذا نفعل بنفسينا. بعد وقت، لا أعلم كم، تراجعنا قليلاً وإن ظللنا ممسكين بعضنا البعض. وضعت ذراعي حول كتفها، وأمسكت هي بذراعي الأخرى، بلعت ريقي، وسرنا. تجوّلنا على شاطئ النهر، وبدت مباني نيويورك من الناحية الأخرى. أناس من كلّ لون وصنف يجلسون على الأرائك الحديدية المنتشرة في المكان، بائعون يلتقطون صورًا لواجهة نيويورك البحرية كما تبدو من هنا، وآخرون يركضون أو يتنزّهون وكلابهم. جلسنا، وسرنا، والتقطنا الصور لبعض الأزواج المحتاجين لبدّ تالف.

"لا مفر. أنا أحبّك"، قلت. "وأنا أحبك"، قالت. "أنت توأم روحي"، قلنا. وكلّ هذه السنوات لم تمرّ، وكلّ هذا العذاب لم يكن، أو لا يهم. غفرت لك ما ألقيته على يديك، أنا الذي لا يُغفر. واعتذرت هي عن الألم الذي سببته، وقلت "لا داعي"، فقد كان الحقّ معها. ربّما أعمى الحب بصري عن الصعوبات، لكنه لم يمنعها هي من رؤيتها، وهذا لا يجعل الخطأ خطأها. اعترفتْ بأنها كانت أحمقَ، وبأنّ حبنا كان مُستحيل التحقّق. لا أحد منا يمكنه أن يصبح شخصًا آخر. حبّ واستحالة مثلما قالت. أومأت، وسرنا نحو الشقة التي أخطن فيها. صعدت معي لذراعا، هي التي لم تر أبدًا مكانًا أعيش فيه. وابتسمت وهي تقول إن المكان يشبهني، واعترضت

أي لست بهذه الفوضى، فقالت "على العكس". ظننا سويًا كأننا من البورتو، وقلت كأنني أخربه منذ رحلتي إلى ليدن منذ عشر سنوات. ضحكت وقالت إنها أقلعت عنه منذ زمن. غادرنا المنزل وتجوّلنا في بروكلين طيلة النهار. لا نعرف كيف نترك بعضنا، ولا كيف نظل سويًا. ثمّ قالت ربّما، بعد سنوات أخرى، ربّما في نهاية طريقنا أو قبلها بقليل يمكننا أن نكون سويًا. ذكّرتني بأننا فكرنا ذات مرة أن نزور فينيسيا سويًا، ربّما يمكننا أن ننتقل للعيش هناك، هي وأنا، في يوم ما. واصطلحنا على أن تكون فينيسيا هي مكاننا المشترك، الحقيقي أو الخيالي، المدينة التي يمكن فيها للحبّ أن يقهر المستحيل مثلما تقول القصص، المكان الذي لا يكون فيه للواقع المعقّد وزن، وأنّ نقضي آخر أيامنا هناك. اتفقنا على فينيسيا، ثمّ سرت معها إلى محطة جسر بروكلين حتى تلحق بالقطار الأخير، وتعانقنا طويلاً، ثمّ افترقنا على أن نلتقي في اليوم التالي عند ستراتل بارك.

أخذاني ماريك من يدي، ولفّت بي لستردام حتا حتا. استأجرنا دراجتين لنتنقل بهما، واكتشفت عندها الفرق بين أن تعرف ركوب الدراجات، وبين أن تقود دراجة في مدينة بها الآلاف من قائدي الدراجات. لكنّي صمدت ونجحت في إتمام الجولة دون إصابات. كان الجو باردًا أكثر من الأمس، ولم أرتدِ ملابس ملائمة. وهي تضحك من ارتجافي من البرد أحيانًا، وتلفني في أماكن معلقة حتى أتدفأ أحيانًا أخرى. أخذنا مركبًا له سقف من الزجاج تجوّل بنا في القنوات التي تربط المدينة بعضها. ومشينا كثيرًا، يتخلل سيرنا توقفات عديدة للطعام، أو الدفء،

والقهوة. وفي كلّ ذلك، وساعة بعد ساعة، كانت الحقيقة تتجلّى أكثر لكليهما.

هذه توأم روحي، وما كنت أظنّ يومًا أن أقول كلمة كهذه، وسأخجل لو سمعت نفسي أقولها، لكنّها الحقيقة. هذا شعوري، وشعورها، وكلّ شيء فينا يقول ذلك بلا مواربة. نصبح أكثر ارتياحًا مع بعضنا، كأنّنا عارفان بعرفان كيف يرانا نفسانيهما سويًا دون تدريب. لم أخطّط لهذا، لم أتوقّع هذا، كنت آمل في أن ينجح الأمر، لكن ليس بهذه الدرجة، وليس بهذه السرعة. أنا أحبّ ماريك. دفاعًا عن نفسي، يمكن إن أقول أن ذلك حدث على مدار العام، عبر الرسائل وكلّ هذا، لكني لست واثقًا من صلابة هذا الدفاع. لا أعرف، حقيقةً لا أعرف، لكن شيئًا غير مألوف حدث لي خلال هذه الأيام القليلة، كأنّ بابًا انفتح داخلي ودخلت هي منه وملأت المكان. لو كانها مدت يدها داخل روحي فاتصلت بها، وسارت روحها عبر أيدينا حتى سكنتني.

أنظر إليها وأعرف أنّي لست وحدي. سعيدة هي، مضطربة بعض الشيء، لكنّها سعيدة. لا تكاد ابتسامتها العريضة تفارق شفتيها. ولديها غمازتان طفيفتان لم أرهما من قبل، لا يكادان يختفيان من فرط الابتسام. احمر أنفها وشفتاها أكثر، وتضيق عيناها وتدمع أحيانًا. ثمّ تقلق، وتسرح بعيدًا، وأخمن فيم تفكّر، ثمّ تعود إليّ مرة أخرى. أعرف أنها مثلي. لم أكن واثقًا من شعور أحد مثلما أنا الآن، ليس ممتنًا أو خيرة، لكنّني أعرف. أنظر إليها وأعرف، لا أحتاج أن تقول شيئًا.

نامت على كتفي في القطار، وفي محطة لندن احتضنتها، وسرنا ليديها

وأنا أطوّقها بذراعي، وفي صالة البيت تعانقنا بحبّ، وعلى الأريكة الكتانية قبلتها وقبلني، وظللنا على الأريكة حتى بدأ الضوء يتسلل من النافذة الكبيرة فصعدنا لغرفتها، ولم نستيقظ إلا متأخرًا في اليوم التالي.

وجدتها مستيقظة عندما فتحت عيني، مُستلقية في مكانها بالفراش لكنّها مستيقظة، وتنظر إليّ بحنو. ابتسمت، فابتسمت. خشيت أن تكون مرتبكة، أو نادمة، أو خائب ظنها. لكن ابتسامتها اتسعت، ومدت يدها ومسدت وجهي. قبلت يدها، واحتضنتها. تخلّل أصابعي شعرها القصير وأعلى رقبتها، وهي تستكين برأسها على صدري. قلت:

– صباح طيب.

– قل يومًا طيبًا، الساعة العاشرة والنصف. لم أستيقظ متأخرة هكذا منذ سنين.

– اتضح أن الفراش جيد، فيما أرى، وأحسنّا التركيب أيضًا!

قلت متظاهرًا، فلكزتني:

– هيا، يجب أن ننهض.

نهضت، رائعة الحسن، وذهبت نحو الحمّام. غفوت مرة أخرى، ثمّ شعرت بحركتها في الغرفة. نظرت إليّ في ثوم:

– سأذهب لإعداد القهوة، وسيشرفني مشاركتك لي في احتسائها.

قفزت من الفراش بمجرد خروجها. اغتسلت وارتديت ملابسي، وهبطت الدرج الحلزوني الذي صرت أحبّه، ولحقت بها عند المنضدة بجوار الحديقة. قررنا سريعًا أن نؤجّل زيارة الشاطئ، فالجو ملبّد، ويبدو أنها ستمطر، كما أن الوقت تأخر، والنهار قصير في كلّ الأحوال.

www.miazna.com-RAYAHEEN

أخطرنا بشيء خفيف وخرجنا. ذهبنا لمحل بيع تسجيلات موسيقية، حيث اشتريت بعض الشرائط التي كنت أبحث عنها منذ فترة، وأهداني هي مجموعة لمغنية السوبرانو الهولندية الأولى، ومجموعة أخرى لموسيقى "باخ". ذهبنا بعد ذلك في جولة قصيرة في المدينة، تخللتها توقف للقهوة ونقاشات أخرى. تحدثنا عن عملها، وقالت إنها تريد أن تتركه وأن تعمل شيئًا له فائدة عامة أكثر، مثل العمل في مستشفى عام، أو على إصلاح نظام التأمين الصحي. ابتسمت ساخرًا:

– مستشفى عام؟ آه لو رأيتي المستشفى التي أعمل بها في القاهرة! لو كانت مستلقًا لما اختلفت كثيرًا!

– لهذا الحد؟ لماذا؟

– لماذا؟ لأننا بلا أسرة في أحوال كثيرة، وبلا أدوية في أحوال أكثر، وبلا أطباء مؤهلين دائمًا، ولدينا سيل لا ينقطع من المرضى لا يمكن لنا بأي حال أن نرعاهم رعاية لائقة، فيفعل كلٌ منا ما يشاء. هناك المخلص الذي يحاول دائمًا فعل الخير، لكنه مضطر بحكم الظروف لأن يختار قلة من المرضى، ليتلقوا رعاية حقيقية في حين يتخلى عن البقية، وهناك من يحاول أن يكون عادلاً، فيوزع الرعاية المحدودة المتاحة على الجميع بالتساوي، حتى لو أدى ذلك إلى تفاقم مرضهم جميعًا، وهناك من لا يأبه ويحاول بذل أقل جهد ممكن إزاء هذا السيل العارم من المرضى، حتى لو ماتوا جميعًا، وهناك طلبة الامتياز الذين يجدون في هؤلاء المرضى فرصة لا تُعوض لتجربة خبرتهم المحدودة فيهم، خاصة وأن نقص عدد الأطباء المؤهلين يجعلهم أقل وقوعًا تحت الرقابة والإشراف، وبالتالي أكثر

استقلالاً. يتعلّمون فيهم بحق، بطريق التجربة والخطأ!

– هذا شيء مريع!!

– نعم.

– وكيف تعيش مع هذا الوضع؟ كم مضى عليك هناك؟

– سبع سنوات.

فلتها وصمت. افرورقت عيناها بالدموع واحتضنني. قلت لها ألاّ تأبه، وإنني تعودت وليس في الأمر شيئًا يستحق الدراما، لكنها ظلت تحتضنني، وتقول إن هذا شيء مريع، وتسأل كيف احتملت كلّ هذه السنوات؟ ثم لا أعرف ما الذي جرى بالضبط بعد ذلك، لكنني شعرت شيئًا فشيئًا باختناق في حلقي، وبدأت أبكي في صمت، ثم انقلب البكاء لنشيج مسموع، وهي تحتضنني أكثر. كنا جالسين على سور حجري قديم بجوار جسر صغير على قناة رفيعة، وأنا أبكي، في حضنها، وجسمي ينتفض من حين لآخر. لا أذكر كم من الوقت مرّ علينا حتى هدأت. ظللتُ صامتًا برهة، ثم قلت إنها قد تضطرّ للعودة للمنزل لتغيير ملابسها لليلة، وضحكت، وضحكت وقبلتني، ثم تحركنا نحو البيت.

سألتني لم أحبس عواطفي داخلي لهذا الحد؟ وكيف لا أريد أن أكون عملي مع كلّ ما أراه فيه؟ حاولت أن أشرح لها.

– ليس هناك من حلٍ آخر، لو تركت الأمر لعواطفي لما عشت طويلاً في مصر. كلّ شيء يجري بنفس الطريقة تقريبًا، بأشكال مختلفة ولكنّ بنفس المنطق. في المستشفى هناك أناس يموتون، ربّما نرين نتيجة الإهمال مباشرة أمام عينيك، لكن ماذا عن أشكال الإهمال الأخرى التي تقتل

الآلاف ولا تريها بعينيك؟ ماذا تفعلين بهذا إن فهمتيه وأدركتيه؟

هزّت رأسها في أسى، وقالت:

– لا أعرف. لا أستطيع أن أعرف. أقرأ عن هذه الأمور. أسمعك، وأسمع الآخرين يتحدثون، لكنّها تبدو لي أكبر من قدرة البشر العاديين على الاحتمال. أنت لا تعرف لأيّ مدى أحترم هؤلاء الذين يعيشون في هذه الظروف. لا أرثي لهم، بل أحترمهم وأراهم أقوياء، وفوق البشر بشكلٍ من الأشكال. أتعرف لوْل ماجذبني إليك؟ هذا المزيج من إدراكك للمأساة الإنسانية والتفاؤل في نفس الوقت. حتى طريقتك في الكلام، أجمع بين إحساس حادّ ومرهف بعمق المأساة الإنسانية، وفي نفس الوقت التفاؤل والرغبة في الحياة. لا أدري كيف تفعل هذا، ولا أظنّني قادرة على فعله.

– الأمر بسيط، ولا عظمة فيه على الإطلاق. أنت تكوّنين وتحدّدين نفسك تحت عجلات منظومة شديدة القسوة تهرس من لمْ تقوه، وحين تهرسك أول مرة تصرخين من الألم، لكن عليك القيام والمشي، حتى لو على قدم واحدة. هل تشاهدين أفلام الخرب أحيانًا؟ أترين كيف يستطيع الإنسان التأقلم مع أسوأ الظروف؟ هذه هي الفكرة العامة، وكذلك هذا الرجل وهذه المرأة: مهما سادت الظروف، فإنك تحاولين أن تكملي اليوم الذي بدأ. ماذا يمكنك أن تفعلين غير ذلك؟

– لا أدري، الأمر كلّه أكبر من قدرتي على التخيّل. لقد عشت حياتي كلّها هنا، بين ليدن ولاهاي وأمستردام، ولما سافرت ذهبت لباريس وألمانيا، ثم إلى نيويورك والتي اعتبرتها مغامرة مثيرة. وأنا

مخطوطة، كلّ ما أعرفه عن المآسي الجماعية أعرفه من آخرين، منك، من مهاجرين أقاطعهم هنا، من كتب، من التليفزيون. ومن ثمّ لا أستطيع أن أدّعي القدرة على إصدار أيّ حكم. من أنا غير فتاة مرفّهة؟

– أنت امرأة في غاية الذكاء، والرقة، والصفاء، ولديك قدرة مذهلة على التغلغل لروح الآخرين، وعلى فهم تفكيرهم، وما يحتمل في نفوسهم خلف هذا التفكير. لم أرَ أبدًا أحدًا هكذا!

قلت، مخلصًا، ابتسمت وقالت في هدوء، ولكنّ بحدّية تامة:

– يمكنني أن أستخدم نفس هذه الكلمات في وصفك. أنا لا أكاد أصدّق ما يحدث لي. لا أصدّق أني وجدت هذه الدرجة من الاتصال مع شخص آخر، ومع شخص آتٍ من عالمٍ آخر تمامًا، ولكنّه مع ذلك كأنه أنا أخرى.

صمتت وترقرق دمع في عينيها فاعتصتهما. ضحكت مرتبكة:

– ماذا؟ هل هذا دوري كي أبلّل معطفك؟

ضحكنا وسرنا متشابكي الأذرع بجوار القناة باتجاه المطعم الذي سنلتقي فيه بأحبها. كنت متهيبًا هذا اللقاء. دخلنا المطعم، وتوجهت لتوّها للشاب وقبلته. هو أكثر شقرة منها، مهذّب ولكنّه بعيد. عيناه لا تفصحان عن نظرته: كأنّه يراك من خلف زجاج. تبادلنا أحاديث عامة، عن هولندا ومصر وغير ذلك من توافه الحديث عندما لا يكون للناس ما يتحدثون فيه. فذكر شيئًا عن دراسته، وسألني عن عملي. تساءلت ماريك عن صديقته فأجابها بأنها رحلت، وأنّ الأمور غامضة بينهما. صمتنا جميعًا لفترة، ثم سألني عن رأيي في الأحداث التي أجري في الشرق الأوسط. ابتسمت

وردت بين قطعتين من الخبز أني لا أعرف عنها بتحدث بالضبط، فلم أسمع الأخبار منذ عدة أيام. احمرّ وجه ماريك ونظرت لي معاتبة. قال إن هناك أحداث عنف في الضفة الغربية، وهناك قتلى يسقطون يوميًا منذ ثلاثة أيام. كنا في أول أكتوبر، ولم أكن فعلاً قد شاهدت أو سمعت خبرًا واحدًا منذ وصلت. صمتُّ. سألني عن رأيي في كيفية تسوية هذا الصراع، وبدأت أتجر بالضيق من سير المحادثة. حاولت الاختصار لكنّه كان يشعر بالرغبة في الكتابة فيما يبدو، فشرح لي وجهة نظره بأنّ العرب ارتكبوا خطأ حين عارضوا هجرة اليهود لفلسطين في القرن الماضي، وأنهم لو فعلوا مثل اليهوديين الذين رحّبوا بكلّ المضطهدين، وأفسحوا لهم مكانًا ما نشب هذا الصراع أصلاً. قلت شيئًا عن الفارق بين الهولوكوست الناجمين عن ملجأ من الاضطهاد، وبين الحركة الصهيونية التي كانت تبحث عن مكان تُخليه من سكانه وتستوطنه هي، واختلفنا طبعًا حول سير التاريخ، فقال إنه يفهم حدة شعوري كونه فلسطينيًا، فقاطعته ماريك، متضايقة بعض الشيء، ومذكّرة إياه بأنّي مصري. صمت لحظة، ثمّ واصل، وشعوري بالاختناق يزداد. ابتسمت، ومازحته حول دقّة معلوماتنا التاريخية نحن الاثنين، ثمّ اقترحت أن نذهب ليبت ماريك، ونشاهد الأخبار ونحاول معرفة هوية القاتل اليوم. اعتذر بارتباط سابق، قمنا، وتصافحنا وذهب في حين عدنا نحن للمنزل رقم 7.

جلست أمام التلفاز، ودخلت ماريك تُعدّ لنا كأسين من البورتو. بدأت النشرة وفهمت عندها ما كان يجري منذ 28 سبتمبر في الأراضي الفلسطينية، وفجأة رأيت على الشاشة رجلاً ويحمله طفل، في الخامسة أو

الثانية عشرة، يجلسان على أرض شارع بجوار كتلة أسمنتية لا أعرفهما تمامًا، وصوت إطلاق رصاص لا ينقطع، والرجل يحتمي بالكتلة، ويدفع بالولد خلف جسده؛ ليحميه من الرصاص في نفس الوقت الذي يحاول فيه أن يُشير بيديه لمطلقي الرصاص أن معه طفلاً. استمر المشهد ثوانٍ، ويبدو أن صوتي كان يعلو لأنّ ماريك أتت مسرعة وأنا أصرخ "يالهي" في اللحظة التي تكوم فيها الولد قتيلاً بين يدَيْ الرجل الذي سقط فوقه من الإعياء. حلّ علي صمت مطبق، وجلست بجواري واحتضنتني. لكني لم أبكِ. ظللت أحدّق في التليفزيون في صمت. مدت يدها، وأغلقت التليفزيون. ظللنا جالسًا بلا حراك. وظللنا صامتين طيلة المساء.

التقينا في اليوم التالي كعادتنا القديمة، وسرنا قليلاً في المتنزه، ثمّ أخذتها لمحل برجدورف وجودمان.

– أريد أن أشتري لك شيئًا.

– ما المناسبة؟

– لأني لم أشترِ لك شيئًا أبدًا، وأريد أن أفعل ذلك.

– من برجدورف وجودمان؟ هل تدفع لك المستشفى أموالاً وفيرة لهذه الدرجة؟

– لا يهم، سأشتري لك شيئًا صغيرًا.

وذهبنا، واشتريت لها طاقية من الصوف باستمالة دولار، وضحكنا، ثمّ ذهبنا لمطعم جديد في حي كان في الأصل مقرًا لتجارة الجملة في المحور، وأقوّل مؤخرًا لمنطقة مطاعم وتناولنا عشاءنا فاخرًا. ثمّ سرنا طويلاً حتى

www.miama.com-RAYAHEEN

وصلنا لمركز نوركلف، وشاهدنا معرضًا فنيًا عراقيًا في ساحة المركز. سرنا طيلة اليوم واذرعنا متشابكان، أو أيدينا، أو يد أحدنا ممسكة بالآخر، أو ذراعي ملتفة حول كتفها، أو رأسها على كتفي، أو ذراعها حول خصري، طيلة اليوم لم ينقطع تلامسنا، كأننا نعوض ما فاتنا، وما سوف يأتي. لماذا نفعل هذا بأنفسنا يا ماريك؟

استيقظت مبكرًا في اليوم التالي، ولم أجدها في الفراش. اغتسلت وهبطت بملابس نومي الرمادية فوجدتها في المطبخ. ألقت عليّ تحية الصباح، وقالت إن القهوة جاهزة، وإنها استيقظت مبكرًا فذهبت واشترت لي الجرائد الإنجليزية. ابتسمت وشكرتها، فإذا بها في ظهر عنقها أسفل شعرها، وجلست أحتسي القهوة وأقرأ الجرائد. كانت صور محمد البرة، الفتى الذي شاهدت قتله على الشاشة بالأمس، ملأ واجهات الصحف، وقالت لي ماريك إن هذه صحفًا محافظة لا تسعى خلف الإثارة، ولا تنشر صورًا عادة كهذه في العادة. تحدثنا قليلاً عن الموضوع، ثم خرجنا للذهاب لشاطئ سخيفينينجن القريب. كان الجو مُشمسًا بعض الشيء، وسرنا في هدوء. تحدثنا عن الأمس، وعما يحدث في الأراضي المحتلة، وأمسكت بذراعي، وهي تفرح لي كم تشعر بالأسى عندما ترى هذه الأشياء، وكم يخطر قلبها على قسوة البشر وخباثتهم الذي يدفعهم للقتل. في المقابلة استطرّت في حضني، وعدنا نرقب الطريق. سألتني كيف أشعر وكيف أتعامل مع هذا الأمر؟ هززت كتفي وقلت إنّي لا أتعامل مع هذا الأمر، مثله في ذلك مثل الاستشفى التي أصاب فيها، مثل الهواء الملوّث الذي أستنشقه.

– كثيرًا ما سألت نفسي، لم لا أهاجر؟ لكنني أكتفي بالسؤال، لا إجابة لدي، لكنني أعلم أني لن أفعلها أبدًا.

– أعلم.

– كيف تعلمين؟!

– لأنه هذا هو أنت. ولو هاجرت لن تكون نفس الشخص.

– غريبة! عادة لا أجيد في فرح هذه النقطة لأحد.

– الأمر لا يحتاج للفرح، يحتاج للشعور. من يعرفك حقًا، من يلمس روحك، سيعرف أنها لا يمكن أن تعيش خارج وطنها.

– بالمناسبة، ما حكاية الروح هذه؟ لقد وصلنا سخيفينينجن، يمكنك أن تعترفي الآن!

– لا تسخر منّي، ولا يوجد اعتراف في كنيستي.

كنا قد وصلنا بالفعل للشاطئ. أمواج المحيط هادئة، كتفاي على شاطئ، رملي طويل دون صخب، وتلال صغيرة من الرمل الأبيض يعلوها بعض العُشب، ولا شيء آخر. الجو مليءٌ بالغيوم ويُنذر بالمطر، وهناك بعض الريح. سرنا على الشاطئ، وقد تلفعنا بكلّ ما معنا من ملابس. تلفّ كوفية من الصوف الأحمر حول رقبتها، وتثبت نظارتها الرفيعة على وجهها الذي اكتسى بجدية مطلقة. حكيت لي عن إيمانها. ليس المسيح بالنسبة لها شخصًا عاش بالفعل من ألفي عام:

– ربما يكون هذا هو الأمر ورُبّما لا، لا فارق عندي. فهو فكرة، فكرة عن التسامح وعن التضحية، وعن رفض الإنسان إيذاء أخيه، فكرة عن الحب بين البشر. أما الله فهو في قلبي، هو النور الذي يضيء لي الطريق.

لا يهم الأدلة والبراهين، ليس الأمر متعلقًا بإثبات وجود أو غياب، وإنما يتعلق بأن تغوص في أعماقك، فتجد شيئًا نقيًا يدلك على الطريق الصواب وعلى الحق. هذا الضوء داخلك وداخلي وداخل كل إنسان، وهذا هو الأمر.

– والكنيسة؟ والطقوس؟

– الكنيسة هي رابطة تجمع الناس سويًا، تجمعني ولعل أيدن ممن يشاركونني هذا الاعتقاد. لسنا كنيسة تقليدية، ولا تمس أبدًا بروتستانت في نهاية الأمر. إيماننا رابطة مباشرة بين كل فرد منا وبين الله، لا نحتاج لوسطاء. لكننا نحتاج للكنيسة لتعيننا على فعل الخير، وعلى التضامن. تعرف، كثير من اجتماعاتنا تدور حول أمور دنيوية: مثل إصلاح المنزه الذي حدثتك عنه، أو مساعدة بعض المحتاجين، من الفقراء أو المهاجرين، عن أماكن للدينة وأمورها، أو حتى عن مصاعب روحية نقابلها. هي شبكة للتضامن.

– لا أدري لم، لكن كلما شرحتي الأمر كلما زاد نفوري منه. ألا ترين أن الموضوع برمته مريب؟ ما هذه الكنيسة إن لم تكن قائمة على اعتقاد ديني: شبكة للعلاج الجماعي؟ مجلس مدينة؟ ولم تناقش هذه الأمور في مؤسسة دينية؟ أليست هناك جمعيات خيرية، ومجلس مدينة حقيقي وأحزاب؟ الأمر يبدو كأنه طائفة سرية!

– لا طائفة ولا سرية، هذه كنيسة ومفتوحة للجميع. ونعم هناك كلّ هذه المؤسسات، لكننا رابطة روحية، وبيننا رباط روحي ودنيوي، وهو ما يمكننا من العمل في هذه المؤسسات التي تحدثت عنها.

– ما زلت لا أستطيع أن أفهم هذه الحالة الروحية الدينية. هل أنت مؤمنة فعلاً بمعنى بإله خلق العالم في ستة أيام، وبالجنة والنار والخلاص، وهكذا أمور؟

– كثير منا غير مؤمن بهذه الأمور، لكن الرابطة الروحية التي تجمعنا شيء أقوى من مجرد الإيمان بالشكل الذي تقدمه المسيحية القديمة!

كان المطر قد بدأ في الهطول، فقلت متمتمًا إن الله يعاقبنا على هذه الهرطقة، لكن مزاحي لم يرق لها. اختبأنا في مطعم صغير شبه مهجور، واستمرت في محاولة شرح أبعاد إيمانها وارتباطها الكنسي، لكن الأمر ظلّ مُستغلقًا على فهمي. أعلنت استسلامي، لكنها رفضت وقالت إن هذا الأمر هام لها، ويعنيها أن أفهمه بوضوح. أعلنا راحة من النقاش قضيناها في تناول ما قدّمه لنا المطعم المهجور، ثمّ استأنفت محاولة الشرح خلال طريق العودة، لكني ظللت لا أفهم كيف يمكن أن تكون هذه الطبية الهولندية المتفتحة بهذا التدين، وظللت هي لا تفهم كيف يمكن أن أعلق عينيّ عن "روحي" لهذه الشريحة.

اليوم لدى كلّ منا عمل طيلة النهار، لكننا التقينا وقت الغداء، لساعة واحدة. لم نتناول طعامًا، وإنما أعطتني من يدي، وسارت بنا نحو الجادة الثالثة. ذكّرتني بحاجتي لحقيبة لأوراقي – كنا قد تناقشنا في الأوراق، والحقائب عرضًا في رسائل منذ عام – وقررت أن تأخذني لمكان تعرفه تشتري منه واحدة. حدّثتني عن أنواع الحقائب الجلدية، ورشحت لي نوعًا قالت إنه شهير، وبالفعل اخترت اثنين من هذا النوع، وتركت

لها الاختيار النهائي، فقطفت، والتقطت لي حقيبة بنية اللون. سألتني إن كنت قد اشتريت شيئاً لسلمى فهززت رأسي مؤكداً أن لديها مايكفي من الحقائب. ضحكت وقالت لي فعلاً أحمق، ولاّ وجود لشيء اسمه مايكفي من الحقائب لبنت. اختارت حقيبة صغيرة كان من المستحيل أن أختارها ولاتريتها، وخرجنا لنسير مرةً أخرى في الشوارع. الساعة الثانية ويجب أن يعود كلّ منا لعمله، ولا نريد الافتراق. ثم استجمعنا شجاعتنا، وتصاحكنا حول سلوكنا الصبياني، وتوجّهنا لمحطة المترو.

عدنا لمنزلها حيث جمعت أغراضي بسرعة، ورحلنا بالغاء محطة القطار في بداية رحلة العودة. في شارع المحطّة توقّفنا لتناول بعض الطعام، واقترحت أنا أن نجرّب المطعم الإسرائيلي. كنت أريد أن أعرف ما هو هذا الطعام الإسرائيلي الذي يبدو لي وأنه مجرد شاورما وفلافل مصرية. دخلنا المطعم، وتولّت هي الحديث حتى لاتمشي لكنتي جدتي المعادية. لكن لكنة البائع بدت لي مصرية مائة بالمائة. قلت لها ذلك فضحكت، وسألني كيف يمكن أن أعرف أنه مصري من لكنته في الحديث بالهولندية. أفهمت أنها إنه مصري، وعندما عاد ليحضر الطعام سألته بالعامية المصرية دون مقدمات:

– هو انتو بتعملوا الطعميه بالفول ولاّ بالحمص؟

– لا ياباشا بالحمص، أصل مفيش فول كفاية هنا.

– هو المطعم ده بتاع مين؟

– بتاعي أنا ومجموعة أصحابي.

– لمّال إيه حكاية الأكل الإسرائيلي ده؟

– أصله كان بتاع واحد إسرائيلي زمان، وإحنا اشتريناه منه، ولقينا أن الجماعة الهولنديين عاجبهم حكاية الأكل الإسرائيلي دي فخلّيناها، إنما إحنا كنا مصريين.

– طيب وحياتك هاتلي طحينة.

غرقت في الضحك عندما تربعت لها فحوى الحديث. تناولنا طعامنا الإسرائيلي وتوجّهنا للمحطة، وجلسنا ننتظر القطار. كانت المناقشات قد استغرقتنا وأنستنا موعد رحيلي، ونسينا أن نتحدّث عن الأمور الهامة: متى سنلتقي؟ هل سنلتقي؟ ما معنى ما حدث هنا بيننا؟ كنا نتصرف كزوجين يعرفان أنهما سيظلاّ معاً، ولكننا هنا في محطة، وسيأتي قطار وأركبه، وأمضي في حين تظل هي هنا. لم نتفق على شيء، لم نحسم شيئاً، ولكننا تصرفنا وكأننا اتفقنا على كلّ شيء، وحسمنا كلّ شيء. أحبتها، وتحبني، ونشعر بالخجل من الإقرار بأننا وقعنا في الحب بهذه السرعة. ماذا سنفعل؟ هل سنظل هي لتعيش معي في القاهرة؟ هي التي لم تر العالم الثالث إلا في نشرات الأخبار، لم تقترب أبداً، وهي تعلم أني لا أستطيع حتى إن شئت؟! كيف قضينا الوقت في مناقشة كلّ شيء إلا هذا. الوقت يمر، ولم يتبقّ على قطاري سوى ساعة أو بعض ساعة. جلسنا في مقهى واسع في شارع المحطّة، مقاعده خشبية كمقاهي وسط القاهرة، وطلبنا شوكولاته ساخنة. قلت لها إنّي أريد رؤيتها قريباً فأنصتت على كلامي. قررت أن أكون هولنديًا ولو لساعة، وسألتها إن كانت تريد أن تأتي وتقيم معي بالقاهرة. احمرّ وجهها، وقالت إنها تريد أن تجرب الإقامة معي،

لكنها ليست متأكدة من أن هذه فكرة طيبة. الوقت، والظروف، وغير ذلك. اقترحت أن تجرب، أن تجرب، لماذا لا تأتي في عيد الميلاد القادم وتقضي عدة شهور معي؟ تحدثنا قليلاً واتفقنا على ذلك. ضحكت من قلبي لأول مرة هذا اليوم، وتعانقنا عناقاً طويلاً على رصيف القطار، واتفقنا على أن تأتي لتقيم معي في عيد الميلاد.

سألتني ماذا سأفعل هذا المساء بعد رحيلها؟ قلت إن اليوم عيد ميلاد سلمى، وسأعود من واشنطن بعد الظهر، ونحتفل كلنا بها. أصرت أمها، المصممة على إدارة حياة سلمى عن بعد، أن يكون عيد الميلاد لدى الجد درويش، وليس في بيتي أو في مطعم، أو مكان عام، وأنّ يكون الجدّ هو صاحب الدعوة، وأنّ تدعو خالتها المحجبة أميرة وزوجها داوود الغريب الأطوار. بيد أن كثرة التعليمات ضايقت الجد درويش، وهو الذي تعوّد إصدار التعليمات، فقرّر دعوة كلّ من له علاقة بسلمى من قريب أو بعيد. وهكذا أفسدوا حميمية عيد ميلاد ابنتي الواحد والعشرين. ربّما هذا ما أرادته ليلى؛ مادامت هي غائبة فلا يجب أن يكون هناك عيد ميلاد حقيقي. لا جديد في هذا.

نظرت لي طويلاً، وسألتني بحدّة: "و لم تقبل أنت بهذا؟" تناقشنا مطولاً، مثلما فعلنا ذات يوم في ليدن، وقلت أشياء كثيرة وقالت أشياء، لكنها كانت حادة بعض الشيء، وقالت شيئاً في وسط حديثها عن الفارق بين احترام مطالب الآخرين، وبين السلبية. خلّت الكلمة تزن في رأسي: "سلبية؟ أنا؟". سألتني إن كنت سأقابل سلمى في المحطة، فظلت إنّي لست

متأكدًا بعد. هزت رأسها مستنكرة، وقالت في ود: "أرأيت؟ هذه سلبية". ثم لا تقابلها في المحطة ومعك ورد أو هدية صغيرة، وتأخذها في تاكسي للبيت، أو تتصل سوياً؟ سيعطيك هذا وقتاً للحديث معها قبل اقتحام الباقين". أردت أن أحتج على وصفي بالسلبية، لكن ليس هذا وقت النقاش، فماريك سيسافر هذا المساء. قلت إنّي ربّما أذهب فعلاً لمقابلتها في المحطة بعد أن تسافر ماريك. سألتها إن كان يجب عليّ توصيلها هي أيضًا للمطار، فضحكت و لم ترد.

أخذت اليوم أجازة، وفعلت ماريك نفس الشيء، والتقينا مرة أخيرة عند محطة مترو بروكلين. سرنا و تحدثنا عن كلّ شيء، ثمّ وصلنا نفس النقطة التي نصل إليها دائمًا. قالت:

– لا أستطيع الحياة في مصر، بل ولا أستطيع الحياة خارج هولندا، وربما خارج ليدن. هكذا أنا، اكتشفت أنّي هكذا، مرتبطة بهذه الأرض وبهؤلاء الناس الذين هم أهلي وجماعتي، وبالكنيسة التي تسخر منها، ولا أستطيع. ربّما نيويورك.

ضحكت، وذكّرتها أن نيويورك في الأصل اسمها أمستردام الجديدة، وأنّ أسلافها هم الذين بنوها، وبالتالي فهي لا تشكّل استثناءً حقيقيًا عما قالته. سألتني بحدة إن كنت أستطيع أن أعيش في نيويورك للأبد. سألتها كيف يمكن للحبّ أن يكون أحدًا بعرقها؟ غضبت وقالت: "ليس الحب المجرد، بل إمكانية الحياة سويًا". هززت كتفي نافيًا: "ومصر؟" قالت "أعرف"، وصمتنا. لكن لماذا لا نحاول؟ حتى ولو كنّا نحاول كي نفشل، ونشفى من هذا الحبّ الذي لا يتركنا. لكن فشلنا لن يشفينا بالضرورة،

وهل تريد فعلاً أن تلتقي. تناقشنا من جديد حول أمرنا، وكلّ شيء قيناه من قبل، ولم نصل للنتيجة لم نصل إليها من قبل. الوقت يمضي، وموعد الرحيل يقترب. قالت: "ربّما في آخر العمر نلتقي، وربما في عمر آخر، زمن آخر". نظرت لها ولم أجب. هل هذه هي السلبية التي تحدثت عنها؟ أن أقبل بموقفها هذا؟ هل هناك طريق آخر "غير سلبي" يمكنني من إقناعها معي؟ أخرجتْ من حقيبتها الطاقية الصوف التي اشتريتها لها وارتدتْها، والكاميرا وجهّزتها. حملتُ الحقيبة التي اشترتها لي على كتفي كي تظهر في الصورة، ألصقنا رأسينا ببعضهما، والتقطت صورة أخيرة أنا منّا.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

6

مدرسة كوينسي آدامز الابتدائية

واشنطن. الجو حار. خلع عدنان معطفه ووقف بالقميص. بلا فائدة، رطوبة الجو تكسي على الأنفاس. ليس هذا بالنسبة الأوقات للبحث عن الذكريات، لكنّه لا يملك غير هذا الوقت، فلن يظلّ بواشنطن سوى ساعات قليلة. وصل مساء الأمس، وقضى الصباح في تسوية بعض الأمور القانونية، ثمّ ذهب للبحث عن بيتهم القديم، وبعدها جاء لهنا. أخذ المترو حتى ميدان ديبوت ثمّ سار على قدميه إلى هنا، لماذا؟ لم يكن أمامه شيء يفعل حين تصحبه للمدرسة. لم يعد لواشنطن منذ أنهى المدرسة، وكلّ ما يذكره عنها، وعن الطريق والبيت متداخلاً وشفوفًا. كان قد طوى هذه الصفحة منذ زمن، وظنّ أنه نسيها، منذ ذهب للجامعة في فيلادلفيا، واستقرّ بها.

كم من الوقت مر؟ عشرين سنة، تغيرت فيها حياته كلّها، لكنّه حين سنحت له الفرصة عاد ليلقي نظرة على بيته القديم، ومدرسته الابتدائية.

واشنطن، وعدنان يتصبّب عرقًا. يسير على قدميه بحثًا عن مدرسة كوينسي آدامز الابتدائية. كانت هنا في مكان ما. بحث على الإنترنت هذا الصباح في الفندق، وتأكد من العنوان: 2020 شارع 19 بحي آدامز مورجان. ذكر موقع الإنترنت بأنّ المبنى لم يُسَمَّ على اسم شخص واحد مثلما يظنّ الكثيرون، وإنّما على اسم مدرستيه الابتدائيتين: كوينسي آدامز المخصّصة للبيض، وتوماس مورجان المخصّصة للأطفال الملونين. لم يكن عدنان يعرف ذلك. فكر أنه من مفارقات القدر أن يذهب هو لمدرسة آدامز، هو الذي يتبنى كلية جناب مورجان. لابدّ وأنّ أياد أعطى المدرسة عنوانًا وهميًا في المنطقة، وإلا فما الذي جعله يرتاد هذه المدرسة رغم أنّهم يقطنون قريبًا؟ هذا هو شارع 19، يصعد الشارع قليلاً كلّما اقترب من المدرسة، يذكر هذا، وهذا هو مبنى المدرسة يلوح من بعيد. لا بد وأنّه هذا. التفت حوله ونظر نحو آخر الشارع، ليس هناك مبنىً آخر يمكن أن يكون مدرسة. نعم، لا بد وأنّها هذه إذًا. لكنّها تبدو أكثر مما يتذكّرها. استغرب، عادة تبدو الأشياء أصغر.

اقترب من باب المدرسة وصعد بضع درجات السلّم الرخامي العريض، حتى الأبواب تبدو أكثر. دخل من الباب ونظر. لا يُوجد بالمدرسة سوى بعض الموظفين. ابتسمت له سيدة بدينة، وأومأت برأسها وهو تمر أمامها. لا بد وأنّها اعتادت هذا المشهد. آباء يأتون في الأجازات، ليلقوا نظرة على حياتهم التي كانت. لا يتعرّفون على أحد، ولا يتعرّف عليهم أحد.

خرج من الباب، وسار في الممر الطويل المحاذي للفصول من الخارج حتى وصل إلى السلم الآخر، ذلك الدرج الصغير والضيق، حيث كان التلامذة الفتوات يتصيّدون الكمائن للمساكين من أمثاله. هنا كان يتمّ التنكيل به، ربّما مرة كلّ أسبوع. هنا كان يتم تجريده من أيّ مالٍ يتصادف وجوده معه، وهو أمر نادر. لكن كان دائمًا معه طعام، وهو ما كان الفتوات يأخذونه، وينظرون إليه في قرف، ويسألونه ساخرين عن اسم "السندوتش" الذي أعدّته له أمه. أول مرة أجابهم: "فول"، قالها بالعربية لأنّه لم يعرف المرادف بالإنجليزية، ولم يصدّق الأولاد أنفسهم. ضحكوا بالضحكات، تذوق أحدهم بعضًا منه ثمّ بصقه، وتبادلوا شم نصف الرغيف الملفوف بعناية في ورق سلوفان شفاف، وهم يضحكون، ثمّ فتحوه أمام عينيه وهو واقف بلا حول ولا قوة. من يومها أصبح اسمه في المدرسة "فول"، ولكنّ بالمعنى الإنجليزي طبعًا.

دار دورة أخرى في ممرات المدرسة ثمّ خرج. وقف أمام الباب لحظات. هل انتهت الزيارة هكذا؟ جاء إلى هنا بعد صراع طويل مع نفسه، وتساؤلات عمّا إذا كان من الأفضل أن يدع الماضي في حاله وينساه. سأل وتساءل، بل وبحث في كتب علم النفس، وبعد تردّد وتفكير طويل قرر أن يأتي. جاء ليحاول استعادة نفسه التي كانت، يحاول استعادة شعوره وهو طفل في الثامنة، أو العاشرة، أو الثانية عشرة. لكنّه لا يشعر بشيء: لا عواطف جيّاشة تعتريه، ولا دموع تغالبه. كلّ تركيزه منصبٌّ على محاولة التذكر: هل كان هذا هو نفس الممر الذي يحتفظ به في ذاكرته؟ هل كان هذا فعلاً هو الدرج الذي يهبه عنده فتوات المدرسة ويخشى عبوره

كلّ يوم؟ لم أنه أخطأ في المكان؟ لا، لا مجال للخطأ: هذه هي مدرسة "كوبسي آدامز"، هكذا تقول اللافتة، لكنّه لا يشعر بشيء سوى تلك الرطوبة الخانقة.

سنوات وهو يأتي هنا كلّ صباح. يأتي به أبوه في سيارته الشيفروليه من طراز إمبالا إنتاج عام 1974 بشكلها الضخم. من أين أتى أبوه بهذه السيارة العتيقة الفارهة؟ من يوم ما وعى على الدنيا وهو يرى أباه يقودها؛ كان واضح الفخر بطولها الذي قال إنه ستة أمتار. ذات يوم خرج عدنان ليقيس طولها، فوجده يقل عن ستة أمتار بأربعين سنتيمترًا، فعاد للمنزل بسرعة وأخبر أباه متحديًا باكتشافه. كان الأب يأكل شيئًا، حسناً على ما يذكر. احمرّ وجه الأب فجأة، وألقى باللقمة في وجه عدنان مباشرة. يذكر جيدًا فطرات الحساء وهي تتطاير في الهواء، واللقمة تشقّ طريقها لوجهه. أخطأته وأصابت شاشة التليفزيون بدلاً منه، مما أثار الأب أكثر فقام ليمسك به، لكن الأم عطّلته لوقت كافية سمحت له بالفرار قبل أن يفتك به الأب الغاضب. لا يذكر كيف انتهت الحادثة؛ لا بد وأنّه اعتذر لأبيه، لا بد وأنّ الأم طلبت منه ذلك، فتحمل الضرب. مرّت الحادثة بسلام، لكنّه من يومها تعلّم ألّا يُبدي ملاحظات سلبية بشأن الإمبالا.

ترتبط المدرسة في ذهنه بالإمبالا أكثر من أيّ شيء آخر، ربّما باستثناء المنزل الصغير المجاور للمدرسة. تلفت بحثًا عن المنزل فلم يجده. سيذهب للبحث عنه بعد قليل. كان لدى الأب سيارات كثيرة، ربّما ستة أو سبعة، تُشكّل أسطوله من السيارات التي يُؤجّرها المكتب الذي افتتحه، وعدنان في الصفّ الرابع. يذكر ذلك اليوم، حيث أوصله أبوه للمدرسة بدلاً من أبيه

على غير العادة؛ لأنّ الأب كان قد ذهب لينهي بعض الإجراءات المتعلّقة بافتتاح المكتب. كان حدثًا عظيمًا للعائلة الصغيرة، به انتقل الأب من كونه سائقًا أجيرًا لصاحب عمل، في البداية لم يتغيّر شيء في حياة عدنان، سوى أن أمّه أصبحت تأخذه للمدرسة أكثر، ربّما مرّة كلّ أسبوع وأحيانًا مرتين، وكان يحبّ ذلك. إذ كانت الأم تأخذه في المترو حتى محطة ميدان ديبون، تُبهره عربات المترو، والأضواء التي تضيء وتنطفئ، وحدها على الرصيف حين يقترب القطار من المحطة، ويثيره جريان القطار بهذه السرعة الكبيرة تحت الأرض وعدو عواقل. يذكر دهشته الشديدة عند خروجه من محطة ديبون أول مرة؛ ظلّ السلم الكهربائي يصعد بهما لفترة طويلة، وهو لا يصدّق أنه وكلّ هؤلاء الناس كانوا على هذا العمق. كان يحب كلّ شيء في رحلة الذهاب للمدرسة مع أمه: إمساكها بيده طوال الوقت، التصاقه بها، المعجنات التي تطعمه إياها، صبرها عليه عندما يقف فجأة للفرجة على شيء لفت نظره، بل ومشاركتها هذا الاهتمام وانخراطها معه.

لم تكن فتنة أن يتأخّر على المدرسة، عكس أبيه المستعجل دومًا، بل هو الذي يُذكّرها أحيانًا بأنّ عليهما الإسراع. كانا كأنّهما في نزهة، يتأمل الوجوه العديدة التي يراها في عربات القطار، ويشير لأمه لترى ما يرى فتسكته بابتسامة تُواطئه، فيضحك ويدفن رأسه في حجرها، وتمسح على شعره.

الإمبالا كانت واسعة جدًا، ومقاعدها الأمامية عبارة عن كنبة كبيرة ممتدّة من الباب للباب، فكان دائم الانزلاق من مكانه في انحناءات الطريق الكثيرة التي يأخذها أبوه بسرعة. في البداية يجلس ملتصقًا بالباب،

ويسرح بنظره في الطريق وإشارات المرور، والاتجاهات وأشكال السيارات الأخرى، ثم فجأة تدور السيارة في أحد المنعطفات بسرعة، فيزلق على الكنبة نحو الأب الذي يسدّد له نظرة نارية آمرًا إياه أن يعتدل في جلسته، فينتبه عدنان من أفكاره ويزحف عائدًا نحو الباب، ويجاهد أن يظلّ ملتصقًا به أطول قدر ممكن، لكنّه يسرح بأفكاره مرة أخرى حتى تدخل السيارة في انحناءة أخرى، وهكذا. وبالإضافة لهذه الانحناءات، والقيادة السريعة، واتساع الكنبة الذي كان يبدو بلا نهاية، والخوف الدائم من إثارة غضب الأب، كان هناك الشعور بالغثيان الذي يلازمه كلّما جلس في الإمبالا.

لم يجرؤ على البوح بذلك لأبيه، أخبر أمّه، فقالت له إن كلّ الناس تصاب بدوار السيارات، وإن ذلك أمر مشابه لدوّار البحر.

لم يكن يعرف ما هو "دوار البحر"، فصمت. يدخل السيارة في الصباح الباكر وهو يغالب النوم، ويترقب حيي الغثيان، ثمّ يظلّ يقاومه ويحاول التشبّث بالباب بما جعله دائم الصمت، شاحب الوجه. إذا حدّثه الأب أو سأله في شيء تلعثم وتاه فيحدجه الأب بنفاد صبر، ويعود للقيادة وهو يهزّ رأسه يأسًا، فيعود عدنان للكمون ومحاولة الثبات. يمرّان على تقاطعات كثيرة من البيت للمدرسة، وعند كلّ تقاطع ينظر عدنان للطريق الذي لم يأخذوه، ويتمنّى من قلبه لو أن أباه أخذ ذلك الطريق بدلاً من الطريق المعتاد. لا يدري لماذا، ربّما لأنّه يعرف الطريق المعتاد ولا يريده، يحلم بشيء آخر. ذات مرة سأل أباه إلى أين يقود ذلك الطريق الآخر، فنظر إليه الأب بسخرية، وأجاب بأنّه يؤدي لمكان غير ذلك الذي هم ذاهبون إليه. يتذكر ذلك ويتساءل عن هذه الطرق، نسي أسماءها الآن،

لم يدخل منها وهو طفل، وربّما دخلها بعد ذلك، و لم يعرف أنها هي تلك الطرق التي كان يتحسّر وهو يخلفها وراءه في الإمبالا السريعة.

هبط درجات السلّم، وسار على الرصيف بحذاء المدرسة صاعدًا التلة بحثًا عن المنزه الصغير. سار دقائق قليلة، ثمّ لاح له سوره الحديدي، واصل الصعود حتى بلغه. لماذا يبدو مختلفًا؟ سأل نفسه وهو يحدق بقلق في أرجاء المنزه. الملعب في وسطه هو هو، والتلّ المحفر الخواف صعب التسلّق كما هو. لكن لماذا يبدو مختلفًا؟ هل كان هذا المبنى هنا؟ هل هذه دورة مياه أم غرفة لحارس؟ هل أعادوا بناءه؟ هل أُبعد بناء الدرجات، أم تراه أخطأ الاتجاه؟ ربّما هناك منزه آخر في الناحية الأخرى.

كان أبوه ينزله من السيارة عند هذه الناصية؛ كي يتفادى إضاعة الوقت في الالتفاف من شارع كولومبيا، فيمر على المنزه يوميًا في طريقه لباب المدرسة. يجب أن يكون هذا إذًا، أو ربّما في الجانب الآخر. هل للمدرسة باب آخر من شارع 18؟ امرأة سمراء طويلة القامة تدخل المنزه من الجانب الآخر، وتجلس عند المبنى الصغير الذي لم يتعرّف عليه. فكّر أن يذهب ويسألها لكنّه تراجع. ماذا سيقول لها؟ نظر ناحيتها مرة أخرى؛ من بعيد تشبه تلك الفتاة التي كانت معه في المدرسة، التلميذة الأجنبية الأخرى، لم يكن يعرف اسمها. قال أحد الفتوات إنها هندية، فأخذوا يتندّرون عمّا إذا كانت ترتدي ريشًا، وتحمل سهامًا. ضحكوا، لكن تلميذة اجتهدة علّقت في سخرية من جهل زملائها بأنّ البنت هندية من الهند، وليست هندية حمراء، فرمّ كبيرهم بعلبة شطائر عن الفارق: أليسوا كلّهم هنودًا؟ ومن ساعتها صار اسمها "البنت الحمراء". كان عدنان يستلطف "البنت

www.miazna.com-RAYAHEEN

الحمراء" لكنّه لم يجرؤ على مخاطبتها يومًا، كما أنها كانت محلّ سخرية، فلم يُرد أن يزيد من وضعه سوءًا إن شُوهد معها. هل يمكن أن تكون هي تلك الجالسة في آخر المترو؟ نظر بإمعان ناحيتها: ما الذي تفعله؟ تُخرج منديلاً، وتمسح وجهها. هل تبكي؟ ما هذا؟ يوم تذكر الماضي؟ لا، لابدّ أنه الحر. امرأة حمراء طويلة تستريح في مترو ليس أمرًا نادرًا، صحيح إنها في نفس العمر الذي ستكون عليه البنت الحمراء، لكن لا يمكن أن تكون هي. دعك من هذه الترهات، دع المرأة في سلام، قال لنفسه.

والشطن، والحر خانق. جمال يخاطره أن ملابسه غير ملائمة بالمرة. هو الآتي من ديترويت لم يخطر بباله أن يكون الجو بهذه الحرارة في والشطن. ابتسم لنفسه: "ملابسك دائمًا غير ملائمة، وأنت طفل مثلما وأنت في الأربعينات، لابد أن العيب فيك أنت". يذكر هذا الأمر كأنه مسمار يوخز قلبه: شعوره وهو طفل يرتدي ملابس غير ملائمة للورد في الشتاء، وغير ملائمة للحر في الصيف، وغير ملائمة للثلج في حفلات المدرسة، وأعياد ميلاد زملائه القليلة التي دُعي إليها. تشعر بالعار من نفسك وأنت ترتدي ملابس غير ملائمة، كأنك تحمل وزرًا لا تريد للناس أن يروه. تحاول أن تخفيه عن أعينهم بأنْ تُخفي نفسك. تحاول أن تأخذ أقلّ حيز من المكان، وألاّ تأتي في طريق نظرات الأطفال الآخرين. في الفصل، تجلس في مقعد جانبي، لا في الأمام حيث المجتهدين، ولا في الخلف حيث الفتوات، بل في الوسط حيث لا يلاحظك أحد. وفي الفناء أو الحفلات تأخذ مكانًا قصيًا، وتصمت قدر الإمكان، وإن قابلك أحد أو وجّه الحديث لك تحاول أن تنهي هذه النّحطة بأسرع وقت ممكن. الصّمت ليس حلاً مضمونًا،

فقد يجرّ عليك المزيد من التحديق، والمزيد من الرّغبة في الاختفاء. دائمًا ما سأل نفسه من أين يشتري أبواه ملابسه، أليست هي نفس المتاجر التي يشتري منها بقية أولاد المدرسة أغراضهم؟ ذات يوم رأى في مدخل محل بجوار مكتب أبيه بنطلونًا من الجينز يشبه ذلك الذي يرتديه أحد الأولاد المحبوبين، فاستجمع شجاعته وطلب من أبيه شراءه، لكن الأب قرعه بخشونة ومطالبه التي لا تنتهي، فصمت و لم يعد للطلبها. الملابس غير الملائمة، الأدوات المدرسية غير الملائمة. والّلعب غير الملائمة، قرر أن يتوقف عن التفكير في هذه الأشياء، لو استرسل في التذكّر فلن يغادر والشطن اليوم، لو استرسل في تذكّر لعبه المضحكة، والسخرية التي جرتها عليه طيلة سنوات طفولته، أو أدوات التزلّج على الجليد التي جاء بها يومًا الهدا المترو فجعلته أضحوكة بين زملائه، أو أغطية الرأس والقفازات الأكبر منه مقاسًا، أو الأصغر مقاسًا. لم تكن له صديقة واحدة طيلة هذه السنوات أو صديق: الجميع نأى عنه. الولد الأسمر الأحمق. لا، لا داعي للاسترسال.

نظر مرةً أخرى للمترو: هل هذا فعلاً نفس المكان الذي كان يرتاده يوميًا؟ هنا كان ينتظر نعي، أبيه بعد المدرسة؛ كي يقله في رحلة أخرى بالإسبالا إلى البيت. كان يحب هذه الرحلة ويكرهها في نفس الوقت. يحبّها لأنّها تأخذه لراحة البيت وعناية أمّه وطعامها وتدليلها له. ويكره العودة لأنّ الإسبالا تكون حارة صيفًا باردةً شتاء، فالأب لا يحب تشغيل تكييف السيارة عندما تقف في الإشارات. لا يدري لم، حين سأله مرةً بأنّ التكييف يُتعب المحرّك أثناء الوقوف. وجد عندئذ ذلك الأمر غريبًا؛ لماذا صنعت شيفروليه محرك سيارة بهذا الغباء؟ ألا يعرفون أن في أمريكا

إشارات؟ سأل أباه، وفاجأه الشباب والوعيد الذي خصّه به الأب عندئذ (كان ذلك قبل حادثة قياس طول الإصبعين). استسلم من يومها للتقيّات المجرّ في السيارة أثناء رحلة العودة، وغفله ذلك لحد ما عن الشعور الطاغي بالغثيان، ونجح أحيانًا في النوم أثناء رحلة العودة، مقابل بعض التطريح من أبيه عند الوصول. في البيت ينام الأب بعد الغداء، وتفرض الأم على البيت الصغير حظرًا للتجول والتحدث فينتهي الأمر بعدنان للنوم أيضًا، لكنّه عندما يستيقظ يكون الأب قد غادر المنزل إلى مكتبه الذي يظلّ به حتى العاشرة مساءً. قبل العاشرة يكون قد تسلّل للفراش حتى يتفادى عودة الأب المصحوبة بلعنات يصبّها على سائق بالمكتب، أو زبون تأخر أو جار ترك سيارته في مكانه المفضّل، أو البنك الذي يُطالبه بالقسط الربع سنوي أو – إن تعذّر كلّ ذلك – على من يراه في البيت أولاً. انفادي كلّ ذلك يضحّي عدنان بما يشاهده في التليفزيون، ويتسلّل للفراش في العاشرة إلا خمس دقائق، ويظل يترقّب. يغوص قلبه في ضلوعه عندما يسمع صوت محرّك السيارة الضخم وهو يهدأ تحت النافذة، ثمّ صوت درجات السلّم الخشبية الخمسة، وهي تئنّ تحت ثقل الأب الضخم الجثّة، يعقب ذلك تكّة المفتاح في قفل الباب، وصخب الوعيد والشباب.

كما كانت هناك الأمسيات التي يصاحب فيها أباه للمكتب، وذلك في العطلات. يحاول عدنان التملّص لكن بلا فائدة. يقول الأب أنها عن مساعدة الابن لأبيه، وعن أنه يأكل ويشرب طيلة العام على حسابه، ولن يقتله أن يرد بعض الجميل بمساعدة طفيفة يقدّمها بتواجده بالمكتب، والرد على التليفون. يكره الذهاب معه، لكنّ المكتب لم يكن كلّه عذابًا،

فقد كان هناك سونيتا، موظفة الاستقبال الهندية الأصل، والتي كثيرًا ما تأتي المكتب مرتدية الساري الهندي الملوّن. أجمل ما فيه، من وجهة نظر عدنان، هو أنه يكشف وسط جسمها بالكامل، ببطنها وظهرها وجانبيه، وأنه يمكنه الجلوس والنظر إلى هذا الجسد دون عواقب، خاصة إن لم يكن أبوه بالمكتب. كلّما مالت في اتجاه أو تعوّجت وقفتها تعوّجت ملامح ثنيات وسطها وظلاله، وصار يعرفها كلّها ويبحث عنها. كانت تلك هي متعته الرئيسية في هذه المرحلة من حياته، هي والوجبات بطعم الجبن حين ينجح في انتزاع دولار من هذا أو من هناك. وحين يُضمض عينيه ويتخيّل ملمس وسط سونيتا، كان يتخيّله مربعًا مثل طعم الزنجبار. كذلك كان يحبّ الاستماع لـ أبو زهدي، السائق الفلسطيني. فهو يحكي حكايات مسلية عن مصر وفلسطين وبلاد أخرى يزعم أنه عاش فيها، ويحدثه أيضًا عن أبيه، ويحرّضه ألاّ يقبل صفعاته وإهاناته أمام الآخرين هكذا بلا رد.

يذهله ما يقترحه عليه أبو زهدي: كيف يرد؟ سيتسبّب ذلك في المزيد من الصفعات، وربّما في الربط بالحبال والضرب بالحزام مثلما حدث في العام الماضي حين رفض الذهاب معه للمكتب. والأسوأ من ذلك سيؤدّي إلى أيام من الصمت المرعب في البيت كلّه، وسيتقمّص علي أمه. يرد أبو زهدي بكلام كثير لا يفهمه عدنان، لكنّه يحب أن يسمعه. والحقيقة أنه كانت هناك مصادر أخرى للمتعة في المكتب، حتى حين يكون الأب حاضرًا، مثل وجبات الدجاج المشوي والخبز المحلّى والخبز اللبناني التي تأتي في بعض الأمسيات، أو وجبات الفول والمخمّض والتي يحضرها أبو زهدي في الصباح في العطلات (حيث إن الأب لا يؤمن بمبدأ الراحة الأسبوعية

للمكتب). لكنّ الذهاب للمكتب يعني أيضًا ضياع فرص ثمينة في قضاء أمسيات هادئة وحنونة مع الأم والأطفال، وفرص أكبر للتعرض لنوبات الغضب الفاجعي، للأب بما تحمله من تهديدات.

أدرك عدنان وهو واقف أمام المتره أن كل لحظات طفولته اختلط الحبُّ فيها بالكراهية، والسعادة بالتعاسة. استغرب أنه لم يفكّر في الأمر بهذا الشكل من قبل. كان خائفًا وخلوقًا من سلطة أبيه وأمكنه حين غادر منزل العائلة إلى الجامعة في ديترويت. كان غاضبًا على أبيه، وانفجر غضبه حين مانعت أنه بعد رحيله للجامعة بعامين وقام الأب ببيعها دون أن يُخطر الابن الغائب. برّر الأب ذلك بتعاليم الشريعة التي تفيد الدفن في أسرع وقت ممكن، لكنّها كانت القشّة التي قصمت ظهر البعير، أو لعلّها كانت فرصة الثهرها عدنان ليفعل ما كان يتوق سرًا لفعله منذ طفولته. لم يرد على أبيه ساعتها، قال له "مفكرًا" ووضع السماعة ثمّ لم يعد للاتصال به بعدها. لم يتّصل به الأب أيضًا، وهو ما أدهش عدنان قليلاً، وإن كان أراحه من عناء مواجهة يخشاها ووفّر له مبدئيًا من الأسباب التي كبّت أنه على حق في مقاطعته للأب. وهكذا ماتت علاقتهما، في صمت، حتى مات الأب نفسه منذ شهرين.

لم يحضر عدنان دفن أبيه، التقائًا. قرر أن يرة الصاع لأبيه الميت، وكلّف جمعية إسلامية خيرية بتولّي مراسم الدفن، وكلّف محاميًا بتصفية ما بقي من أملاكه وديونه. لم يعد هنا حتى الأمس حين دعاه الدكتور درويش خلال أنه لزيارته في نيويورك بمناسبة عيد ميلاد سلمى. سرّته هذه الدعوة في الصميم، فقرر المجيء لهنا وتصفية هذه الأشياء، والذهاب

لنيويورك لرؤية سلمى. لم يكن يعلم أنها في نيويورك. لم يرها منذ كانت طفلة حين كان يقابلها مع أمها في الأجازات الصيفية. عدنان يحب الدكتور درويش منذ طفولته: يذكر زياراتهم لبيته في نيويورك، واحتفاء أنه به. ربّما لهذا السبب بحبّه، فهو لا يذكر أن الدكتور درويش كان حنونًا عليه بصورة خاصة – ربّما لعداء شيئًا ذات يوم، على الأغلب كتاب. لا يذكر عمامًا. كان يحبه لأنّ أمه كانت تحبه، وتقول إنها فخورة بأنّ يكون خالها رجل عظيم كهذا وتدعو لعدنان أن يكبر ويصبح مثله. لكن الأهم من ذلك أنه كان أحيانًا يقابل ليلى ابنة الدكتور أثناء هذه الزيارات. ليلى في مثل عمره تقريبًا، لكنّها أكثر جرأة منه. هي التي بدأت بالتعرّف عليه، وأخذته في جولاتها "السرية" بنيويورك. لم يكن في هذه الجولات شيء خاص: عربة التسوق، محل الورد، قهوة ومحل لعصير، ومكان على النهر تحت جسر لا يذكر أين، و"محابئ" سرية من التي يخفّق الأطفال في خلقها. كانت تحدّثت طيلة الوقت وهو يصغي، مبهورًا أكثر من أيّ شيء آخر. حكت له عن حياتها في مصر والمدرسة هناك، والأولاد والبنات، وكأنّها تفتح له عالمًا سحريًا، عالم كلّه أولاد في مثل شكله واسمه، وعاداته وملابسه. قال إنه يُحب لو ذهب للمدرسة في مصر تلك التي تصفها، فقالت له إنه لو فعل لصار يتم المدرسة، فهو آت من أمريكا.

ظلّ يحلم بذلك أسابيع طويلة: هو أيتم المدرسة. ثمّ سافرت ليلى، ولم يرها إلا بعدها بسنتين أو ثلاثة، لا يذكر. كانت قد كبرت ولكنّها ظلّت مندفعة مثلما كانت. واستعادا صداقتهما بسرعة، وأصبح يتحدّث هو أكثر

قليلاً لكن ليس بالقدر الكافي، ليشاركها الأفكار التي تدور برأسه. ثم سافرت مرة أخرى، وعندما رآها بعد ذلك كان مع أنه في زيارة سريعة لنيويورك. كان قد أنهى المدرسة وعلى وشك الرحيل للجامعة بديترويت، وهي انتقلت لتوها للعيش مع أبيها بعد وفاة أمها. صارت عروسًا مثلما قالت أمه لها وهي تحتضنها وتفحصها. أحبتها حين رآها، في ثيابها السوداء، وحزنها الداخلي للاحتضان. نظر إليها وأدرك أنه يحبها منذ أول صيف قابلها فيه. لكنه لم يجرؤ على مُصارحتها بشيء من هذا. وحين طلبت منه مراسلتها من ديترويت أومأ موافقًا في تلعثم، وهو يعلم أنه لن يفعل.

لم يبق عدنان على اتصال بالدكتور درويش بعد مغادرته بيت أهله في واشنطن. لم يراسل ليلى بالطبع، فهي ولاشك لديها معجبون كثيرون في نيويورك، ولن تهتم بشاب مثله. لكنه كان يرسل للدكتور درويش بطاقة معايدة في العيد مثلما طلبت منه أمه، وواظب على ذلك حتى بعد وفاتها. كما توقف مرة أو مرتين منذ سنوات في نيويورك وزاره، وبالصدفة رأى سلمى هناك. خفق قلبه بشدة حين رآها أول مرة، قدر ما كانت تشبه ليلى أمها وهي صغيرة، تلك التي يحتفظ بها في مخيلته على الأقل. لم تكن ليلى موجودة بالبيت في المرتين اللتين رأى فيهما سلمى، وحمد الله على ذلك. لكنه شعر بحب أبوي غريب يجرفه تجاه الطفلة. ثم انقطعت أخبارها بعد ذلك، ولم تعد تأتي لزيارة جدها درويش. ولهذا استغرب عدنان اتصال الدكتور درويش به، ودعوته له لحضور عيد ميلاد سلمى. ماالذي أتى بها؟ هل أتت وحدها أم أن ليلى ستكون بالحفلة؟ لم يجرؤ

على سؤال درويش، سيرى بنفسه حين يصل نيويورك هذه الليلة.

وصل عدنان لواشنطن مساء الأمس، ووقع على الأوراق، وأنهى بقية متعلقات أبيه هذا الصباح، ثم قرر أن يُلقي نظرة على الماضي: على المدرسة والبيت. قضى ساعةً يبحث عن البيت، ثم قالت له سيدة عجوز إنهم هدموا المربع الذي كان البيت جزءًا منه، وبنوا عليه مجمعًا سكنيًا متكاملاً: كوندو. نظر للكوندو و لم يشعر بأي شيء؛ لا شيء من قريب أو من بعيد للبيت كما يتذكره، حتى ملامح الشارع تغيرت. لم يتسع المزيد من الوقت وجاء للمدرسة، وهاهو أمام كوينسي آدمز.

هنا، في هذا المنزل، على ما يذكر، كان ينتظر أباه كلّ يوم بعد المدرسة. وكان الأب دائم التأخر؛ لا يذكر عدنان مرة واحدة خرج فيها من مدرسته ووجده. أحيانًا يتأخر حتى يرحل كلّ الأطفال، ولا يبقى في المنزه أحد غيره. عندئذ، يتظاهر عدنان بأنّ المنزه حديقة قصره، وأباه بابا كبير مثل هؤلاء الذين تقول أنه إنهم جلبوها، ويجري في المنزه يتفقّد أحوال أملاكه، ويأمر الفلاحين ويضربهم بالكرباج. وعادةً ما تلعب الحيوانات الحديدية الصدئة دور الفلاحين المؤمنين، وتتلقى كرابيجه في صمت وخضوع. يفعل ذلك ليتظاهر بأنه ليس خائفًا، ولا متضايقًا من وجوده وحده في المنزه. لكن الخوف يعود في النهاية، فينسحب بكرباجه الوهمي إلى أحد الأركان، ويتكمش فيه حتى يسمع صوت محرك الإسعاف العتيقة. يتنهد، للمحطات قليلة، ويجري نحو السيارة، حتى يرى أباه يقامر القارعة وتطرانه الدارية، وسحنته المهدّدة فيهتدئ من سرعته، ومع حلول الأمن محلّ الخوف تعود المشاعر الأخرى لموقعها. يدخل الإسعاف،

www.miazna.com-RAYAHEEN

ويلتصق بالباب، ويحاول عدم إثارة غضب الوالد.

فجأة خطر له هذا السؤال: كيف يمكن لأبيه أن يشعره بالأمن وبالخوف في نفس الوقت؟ غريبة! لم يفكّر في الأمر على هذا النحو من قبل. لكن الحقيقة أن حضور أبيه كان يطرد ذلك الخوف عنه، وينزل فيه خوفًا من نوع آخر. الخوف الأول غامض، فهو لا يعرف لمَ يخاف حين يكون وحده. يخاف أن يخطفه أحد أو يظلّ في الشارع ولا يعود لبيته أبدًا، وهي أمور عوالبها تُدار بشرور غامضة. مرّ حارس المدرسة مرة عند التنزه ووجده متكمشًا في أحد الأركان. كان قد مرّ وقت طويل منذ انتهاء موعد المدرسة ورحل كلّ الأطفال والمدرسين والعمال وفرغ الشارع تمامًا. توقّف الحارس ونزل من على دراجته، وقال شيئًا لعدنان لم يفهمه. الحارس طيب الملامح، لكنّه يتحدث بلكنة قوية لا يفهمها عدنان. أدرك أنه يطلب منه الركوب معه على الدرّاجة، فتردّد قليلاً ثمّ فعل. لا يعرف أين سيأخذه الحارس، فهو نفسه لا يعرف عنوان بيته. لكنّه لم يعرف ماذا يفعل غير أن يطيع الحارس، وهذا ظهرت الإمبالا، وانتهى الأمر على خير. ظلّ بعدها يتجنّب الحارس، ويسأل نفسه عمّا إذا كان الحارس ينوي اختطافه (ظنّها الأب فزعه تفريعًا شديدًا على فروعه في ركوب الدرّاجة مع الحارس). ووجود الأب يطرد هذه الهواجس، لكنّه يملؤه بخوف آخر، خوفًا من احمرار وجهه الغاضب، واستدارته إليه بغتة ثمّ نزول الصفعة على وجهه، أو الشيء الذي سيقذفه به، أو العقاب والوعيد بتقييده بالحبال وضربه بالحزام وتكسير عظامه، أو خوفًا أعظم حين يحدث ذلك لأمه.

في هذه اللحظات كانت كراهيته لأبيه تعصف بأحشائه، ويتخيّل نفسه ممسكًا بأبيه يهزّه من كتفيه العريضتين ويدفعه نحو الحائط أو خارج السيارة وهي مُسرعة. يتمنّى ويدعو في قلبه بإخلاص أن يختفي الأب، أن يموت فورًا، أو أن يفنى ويتبخّر في الهواء، أن يرتطم بالإمبالا أو يسقط بها في الوادي العميق الذي يعبرونه كلّ يوم. أحيانًا يتخيّل نفسه وهو يهجم على مقود السيارة عند عبور الوادي ويدفعها لتسقط فيه. لكنّه لا يفعل، بل يصمت، ثمّ تطلب منه الأم أن يحضر فيفعل، ويساعده الأب على الشيء الذي لا يعرفه. مع الوقت، أصبح هدفه الرئيسي في وجود الأب أن يتفادى ثورات غضبه، بل وبدأ يتعلّم بعض الأشياء التي تجلب عليه رضاه، كلمة يقولها تأييدًا لشيء يقوله، مديحًا للأب أو تملّقًا على الإمبالا، وكثيرًا من الابتسامات. يفعل ذلك تقريبًا من أجل الحصول على بعض رضاه وتجنّب بعض غضبه. ثمّ بدأ يستخدم هذه الحركات لتحقيق أهداف محددة، كأمسية هادئة مع أمه أمام التلفاز بدلاً من الذهاب للمكتب، أو دولار يشتري به البرغار المسموح دخوله البيت، أو من أجل الهدف الأكبر: الحصول على ساعة في عيد ميلاده الحادي عشر. مع التمرين زادت قدراته على التحايل، وتعلّم أن يذكر لأمّه كلامًا أثناء نوم أبيه في الظهر يعلم أنه سيسمعه ويُعجب به، وبلغت به الجرأة أن قال لها أثناء نوم أبيه المفترض أنه يشعر بالذنب لأنّ أباه يبذل جهدًا كبيرًا في العمل من أجله، وأنّه يحلم باليوم الذي يكبر فيه ويردّ هذا الجميل لأبيه. كان ذلك بهدف تليين مقاومة الأب والحصول على الساعة، وقد أتت المحاولة أكلها في الأيام التالية؛ حصل على الساعة، لكنّه شعر بما يشبه الهزيمة.

الحرّ يريد هذه الملابس فعلاً غير ملائمة. قامت السيدة السمراء وقبضت ملابسها وشرعت في الرحيل. الوقت يمر، ويجب أن يرحل هو أيضًا. نظر في ساعته؛ طائرته في السادسة ولو فاتته أفاته عشاء الدكتور درويش. يجب أن يكون بالمطار قبلها بساعتين لإنهاء إجراءات الأمن. من الأفضل إذن أن يرحل الآن قبل حلول ساعة الزحام. اقتربت السيدة السمراء من الناحية التي يقف فيها. حدّق فيها، فوجدها تنظر نادمة. أومأ في مجاملة فقطبت جبينها مستغربة. توقفت ونظرت ناحيته مرةً أخرى:

– معقولة؟ هل هذا أنت؟

– أنا؟

– نعم، إنه أنت، ولد الـ "ماكين"!

– أظنك مخطئة. أنا لست ماكين.

– طبعًا، أنت "الأحمق"، لكنني وأصدقائي كنا نسميك "ولد الماكين".

– أنت لـ ....

– الصراحة نعم يا "أحمق"!

قالتها وانفجرت ضاحكة، ثم تقدّمت بلقائية واحتضنته. ارتبك، ودخل في حضنها بتحفّظ. افتتحت في الحديث: هي تعيش بالحيّ منذ طفولتها، وانتقلت منه للجامعة في نيويورك، واستقرت هناك وتزوجت وأنجبت، ثم عادت لواشنطن بعد انفصالها عن الزوج ووجدت وظيفة بالحكومة الفيدرالية واستقرت في نفس البيت الذي كبرت فيه وتعيش فيه الآن مع طفليها. لا تبدو هندية، لا من الهند ولا من السكان الأصليين

مثلما زعموا وإنما من "أوكلاهوما". نعم، ذلك اليوم الذي نظّمت فيه المدرسة حفلة طعام وكان من المفترض أن يأتي كلّ طفل بطبق يمثّل تراث عائلته، وأُوجعتنا بك ومعك هذه الكعكة الجاهزة المسمّاة ماكين:

– كانت تلك مزحة رائعة، لقد ضحكت وصديقاتي طيلة العشاء. ماذا كان هذا؟

– لم تكن مزحة للأسف. الحقيقة أن أمي أعدت شيئًا يُسمّى "ملوخية"، لكن أبي تشاجر معها لسبب ما وقذفها بالطبق الذي أعدته، ومن ثَمّ لم أجد شيئًا آتي به، فاشتريت لي هذه الكعكة من محل بقالة صغير في الطريق، لم يأكل منها غيري في الحفلة.

– حسنًا، لست أدري أي العمتين لسوء حظ الأم بالطبق أم شراء هذه الكعكة السخيفة! لكن أعلّم، لقد جعلتك ذلك مشهورًا. معظم صديقاتي ظنن أنك فعلت ذلك عامدًا، كنوع من الاستهزاء بهذا التقليد السنوي من المدرسة! يعني، معاملتنا على أننا أجانب، وأتي من أماكن بها طعام غريب لدرجة تنظيم حفلة للفرجة على "تقاليدنا" وكل هذا. وجدنا أن إحضار كعكة ماكين، أكثر المأكولات اعتيادية في أمريكا، عمل ذكي للغاية منك!

– فعلاً؟

– لا تتصور لأي درجة! ولد الماكين: الولد الأسمر الوسيم الهادئ، يرد على عنصرية المدرسة بمنتهى الأناقة. لقد تحولت إلى بطل! لو سألت أيًا منا أن تواعدك وقتها لما ترددت لحظة. لقد كنا نتراهن من منّا سيحظى بهذا الشرف!

ثم استرسلت في حديث عن المدرسة، وغباء الأولاد في هذه السن. إنها يذهب الآن لنفس المدرسة وهي يسعدها ذلك. نعم، المدرسة صعبة لأبناء الأقليات ولكنّ الحقيقة أنها صعبة للجميع. فالأطفال خديدوا القسوة مع بعضهم البعض. ماذا يمكن أن نفعل؟ سعدت بالحديث إليه، ماذا يفعل هنا؟ هل يريد احتساء قهوة؟ هناك مقهىً قريب يمكن أن يمشيا إليه. آه، لديه طائرة ليلحق بها؟ خسارة. هل يأتي هنا عادة؟ لن تصدق بأني صادفتها حين تفحص عليها أنها قابلته. "من بالي؟". "لا تذكرها؟" تلك الفتاة الشقراء النحيفة التي كانت بصحبتي دائما. لقد كانت هي الأخرى واقعة في غرامك آخر سنين بالمدرسة. آه، لا يهم، هي ستتذكرك. لقد كان لك معجبات كثيرات. أين تعيش الآن؟ باه، ديترويت، لقد اخترت نقطة بعيدة. هل هناك عرب كثيرون هناك فعلاً مثلما يشاع؟ حقيقي أسعدني الحديث إليك بعد هذه السنوات. خسارة ألا نستطيع احتساء القهوة، والحديث عن الماضي قليلاً. ولد الناكين؛ غير معقول، بالمصادفة صافحته، ورحلت بنشاط هابطةً التل. ارتدى معطفه مرةً أخرى، ووضع يديه في جيبه، ومضى ليلحق بالطائرة.

7

رباب العمري

وصلت رباب للمطار في تمام الخامسة، أمامها ساعة واحدة حتى موعد إقلاع الطائرة لنيويورك، وهو وقت ضيق في ضوء إجراءات الأمن الجديدة بالمطار والتي قد تستغرق خمسًا وأربعين دقيقة. لكن رباب لا تأبه لذلك، فهي مُعتَّمة أن الوصول للمطار قبل الإقلاع بساعة كافٍ لإنهاء الإجراءات، وإن كانت سلطات المطار قررت تعقيد إجراءات الأمن فتلك مشكلتهم وعليهم أمثل تبعاتها، ليس المسافرون. وإن فاتتها الطائرة بسبب تلك الإجراءات، فهي مستعدّة لمقاضاتهم. قضية أخرى لن تضيرها. رباب تكره المطار والطائرات، وعادة ما تذهب لنيويورك بالقطار، لكنها مسافرة إلى لوس أنجلوس بعد ذلك ووجد الكتب الذي

تعمل به أن السفر بالقطار سيكون أكثر تكلفة، فاستسلمت لرغبة المكتب في ضغط النفقات. طائرة أخرى لن تضيرها. كان من المفروض أن تقضي الأسبوع الماضي في واشنطن، ولكن المكتب أرسلها في مهمة مفاجئة لبوسطن. والآن هذا. ستصل في السابعة إلا عشر دقائق، ومن ثمّ يمكنها أن تكون عند منزل أستاذها الدكتور درويش في السابعة والنصف. ستعشّى عنده، وتقابل سلمى حفيدته وابنة ليلى صديقتها الحميمة أيام الجامعة، ثمّ تحضر اجتماعين في اليوم التالي، وبعدها ترحل للوس أنجلوس ليومين - لمزيد من الاجتماعات، ثمّ تعود لواشنطن.

يرهقها السفر، لكنّها مضطرة إليه. يثير أعصابها الذهاب للمطار، وإجراءات الأمن الشخيفة، والسير في ممرات المطارات الطويلة، والبحث عن البوابات، والدخول في دائرة مزدحمة، وحشر نفسها في كرسي ضيق، ومجاورة شخص يكون في الغالب فظًا، وطعام الطائرات الماسخ، وتغيير روتينها اليومي، ثمّ الوصول والانتظار فتح باب الطائرة، ثمّ البحث عن سير الحقائب ثمّ انتظار ظهور حقيبتها، وجرها، والبحث عن المخرج وسط يافطات وإشارات المطار العديدة، والعثور على تاكسي، وشرح العنوان، ودخول الفندق، وإبراز الحقيق الشخصية، وملء استمارة بياناتها وإعطاء رقم بطاقتها الائتمانية، ثمّ البحث عن الغرفة، والتعامل مع حامل الحقائب الذي ينتظر الإكرامية، ثمّ إخراج ملابسها وأدوات تجميلها وأوراقها، وفرش أشيائها في الغرفة، ثمّ النوم في فراش لا تعرفه، والتعامل مع درجة حرارة الغرفة التي تكون عادة أبرد أو أدفأ مما ينبغي، وهواء

التكييف الذي يصب دائمًا فوق الفراش مباشرة، وتسأل نفسها كلّ مرة هل غسّلوا غرف الفنادق كلّهم حقًا؟ ثمّ التعامل مع طعام الفندق الذي يجمع بين ارتفاع السعر غير المبرر وسوء النوعية وقلة التنوع، أو الخروج والبحث عن طعام في مكان بالخارج في مدينة تجهلها ولا تريد أن تكتشفها في الساعتين المتاحتين لها، ثمّ العثور على مكان الاجتماع، والوصول في الموعد، ومقابلة غرباء ينظرون لها ويحكمون على كلّ شيء فيها: جمالها وهندامها، وحديثها ولكنتها، ولون بشرتها وتسريحة شعرها، وذكاء ملاحظاتها ومدى خفة دمها، ودرجة تحزّرها ومدى شجاعتها، وقوة شخصيتها، ثمّ ما ستقوله ومدى أهميته وصحته وسلامة عرضه إلى آخر تلك الاختبارات التي لا آخر لها.

بينما هم يظنون أنها تحاول هي إفهامهم بفعل شيء أو آخر لصالح مساواة العرب الأمريكيين بقية الناس. وهم يوصون، دائمًا ما يوصون، حتى حين يكونون غير مقتنعين بالمرة. وبعد أن تنتهي من مداخلتها، يقولون كلامًا مائعًا أو نصف مائع، ويتذرّعون بشيء ما يحول بينهم وبين تنفيذ ما تطلبه منهم: نُظم العمل بالشركة، أو بالولاية، أو بالجامعة، اعتبارات التكلفة، ضيق الوقت، هذا أو ذاك، أيّ شيء. وهي تُواصل الزنّ، وحين يتضح أنهم لن يستجيبوا لشيء، تنتقل للموجة الثانية: التلويح بالمقاضاة، ثمّ تتغيّر اللهجة، بعضهم يُبدي مزيدًا من المرونة وبعضهم مزيدًا من العناد، ثمّ تنتقل للموجة الثالثة: التهديد السافر، وتتغير النغمة مرة أخرى. أحيانًا ينتهي الأمر بالاتفاق، وذلك نادر، لكن في معظم الأوقات ينتهي بها الأمر مطرودة من المكان، وتكون تلك بداية القضية التي سترفعها المكتب.

www.miazna.com-RAYAHEEN

وصلت المطار ودفعت حقيبتها الصغيرة أمامها، وتوجهت لماكينة شركة الطيران لتنهي إجراءاتها بنفسها، هكذا تقلّل عدد الموظفين الذين عليها التحدث إليهم واحدًا. اختارت مقعدها في الطائرة ومزرت بطاقتها في الماكينة، تسلمت بطاقة الصعود للطائرة، ثمّ توجهت نحو بوابة الدخول. وقفت في طابور الفحص الأمني. لحسن الحظ كان الطابور قصيرًا هذه المرة وتقدم بسرعة. جاء رجل في مثل عمرها ووقف خلفها. طويل، أسمر، عربي اللامح وله جاذبية غير واضحة النشأ. يرتدي معطف مطر. نظر لها وأومأ في مجاملة دون أن يقول شيئًا. ردّت الإيماءة وهي تلف لتنظر أمامها. استغربت أن يرتدي أحد معطفًا للمطر في وقت الصيف في يوم حار بلا مطر كهذا. تحرّك الطابور بسرعة. خلعت حذاءها ووضعته مع حقيبة يدها في جهاز الأشعة. أخرجت الكمبيوتر الصغير من حقيبتها ووضعت الاثنين في الجهاز، ثمّ نظرت للسيدة الواقفة بجوار البوابة الإلكترونية، فأومأت لها فمرت من الباب. لم تُصدر البوابة صفيرًا فتوجهت رباب نحو حاجياتها لتجمعها من الناحية الأخرى لجهاز الأشعة. في أثناء ذلك كانت ترقب بطرف عينها الرجل الواقف خلفها، والذي بدا عليه ارتباك كبير وهو يوزّع اهتمامه بين الأشياء المتعيّن عليه فعلها في نفس الوقت فعطّل الحركة. بدا التوتر على موظفي الأمن وهو يمر من البوابة فتصدر صفيرًا حادًا، ثمّ يتذكّر شيئًا نسيه في جيبه فيتراجع لإخراجه مما يربك الحركة أكثر. أوقفه أحد موظفي الأمن وهو ينادي عليه بصوت عالٍ وشبه آلي:

– سيدي، من فضلك، توقّف هنا. تفضّل من هنا. من هنا، نعم على جنب. لا، ضع حاجياتك هنا سنتولاها نحن.

التفتت رباب، وهي تحمل حقائبها لموظف الأمن:

– مالذا هنالك؟ لماذا تأخذونه على حدة؟

– سيدتي، إن كنت أنهيتي إجراءاتك من فضلك لا تقفي هنا، تقدّمي للأمام.

– نعم أنهيت إجراءاتي، ولكني أسألك لماذا تأخذ هذا الرجل على حدة؟

– سيدتي، هذه إجراءات أمنية، من فضلك لا تتدخّلي في عمل الأمن.

– هل تأخذونه على حدة لأنه عربي اللامح؟

– سيدتي: من فضلك، لا داعٍ لهذا الحديث.

– أنا أسألك سؤالاً.

– هل أنت معه؟ هل تعرفين هذا الرجل؟ من فضلك تنحي جانبًا، تعالي من هنا مع حاجياتك.

– لماذا أتي على حدة؟ لقد أنهيت إجراءاتي. هل تشكّ في سلامة إجراءات الأمن التي قمت بها؟

– سيدتي: تمكن أرى جواز سفرك وبطاقة صعود الطائرة؟

هنا تدخّل الرجل صاحب اللامح العربية لأول مرة:

– من فضلك ياسيدة، لا داعي.

– من فضلكما أنتما الإثنين! تعالا على جنب.

وهكذا، بين تعليق منها، ومداولة منه لإبقائها خارج شؤونه، وفتى عصبي من جانب، رجل الأمن، انتهى بهما الأمر معزولين في غرفة صغيرة يقف على بابها اثنان من موظفي الأمن؛ رجل وسيدة. مدّت رباب يدها نحو الرجل:

– رباب العمري، محامية.

كانت يد الرجل في طريقها لمصافحة يد رباب الممدودة ناحيته عندما جاء صوت حارس الأمن يطلب منهما الهدوء. تردّد ثمّ أعاد يده بجانبه، وظلّت يد رباب وحيدة في الهواء لثانية قبل أن تنتبه إلى أن جارها قد وجّه تركيزه للحارس. سحبت يدها وتركته في حاله، كيلا تزيد من ارتباكه. تردّد الرجل لحظة، ثمّ مدّ يده في ضيق:

– عدنان فكري، محاسب.

سألته عن وجهته، فأجاب بالضباب: نيويورك. قالت إنها هي أيضًا ذاهبة لهناك. سألته إن كان من والشطن كوسيلة مهذبة للسؤال عن بلده الأصلية، فرد بأنه ولد وعاش بوالشطن وهو صغير، لكنّه رحل منذ سنوات طويلة فهزّت رأسها، وعلّقت بأنّ عدد الناس الذين تربوا في والشطن واستمروا في الحياة فيها قليل. انتظرت أن يوضّح من أي بلد جاء أو يسألها عن أصلها، لكنّه لزم الصمت. لم يكن ينظر إليها، ولا لشيء آخر محدد. ينظر أحيانًا لباب الغرفة الصغيرة التي اقتادوهما إليها بحوار

أجهزة الفحص، وأحيانًا ينظر أمامه في الفراغ. كان مرتبكًا؛ غير متأكد إن كان عليه أن يكون ممتنًا لها لمحاولتها مساعدتها، أم ناقمًا عليها لجعلها المشكلة أكبر بتدخّلها الذي لم يطلبه. علّقت رباب بشيء ما لتحقّق من حدّة الموقف لكنّه لم يرد. بعد دقائق جاء رجل الأمن والتحى به جانبًا. سأله بعض الأسئلة، ثمّ أشار له بالذهاب حيث كانت أمتعته، فخرج دون أن ينظر لها. هزت رأسها في سخرية وانتظرت. جاء رجل الأمن بعد قليل وأشار لرباب في تزمّ لا يحاول إخفاءه. أعطاها أوراقها وأشار لها بالرحيل، فسألته عن مصير عدنان. فعلم بشيء لم تسمعه وتركها، وعاد لأجهزته.

سارت في ممرات المطار تبحث عن بوابة طائرتها. أين ذهب هذا العدنان؟ وأيّ اسم هذا؟ هل هو فلسطيني؟ يبدو في مثل سنها، ربّما أكبر بسنة أو اثنين. ملابسه وهيأته تُوحي بأنّه غير متزوج، أو على الأقل ليس لديه امرأة تعتني به. ربّما لديه زوجة لا تفهم في الهندام، أو غيبة، وربما زوجته آتية لتزورها من بلده، ولا تفهم ما يجب ارتداؤه هنا. لم تستطع أن تضع يدها على الشيء الخاطئ في هندامه، ربّما هي هيأته نفسها، طريقة وقفته، حركة رأسه وجسمه، لكن لديه هذه الجاذبية التي لا تعرف من أين تأتي. وجدته واقفًا يحدّق أمام شاشة الإعلان عن مواعيد وبوابات إقلاع الطائرات. توجّهت ناحيته وبسرعة دعنها التقط رقم بوابة طائرة نيويورك على اللوحة قبل أن يحدقها هو: "55، من هنا". أشارت باتجاه البوابة، فتنبّه لوجودها وابتسم ابتسامةً متحيّرة.

سارا سويًا نحو البوابة. لم يبق سوى عشرين دقيقة على موعد الإقلاع. سيصلان للمطارة ويفترقان، ربّما للأبد. تملّكها الفضول. سألته إن كان يعيش في نيويورك ففي وصمت، فلم تستسلم وسألته عن سبب زيارته نيويورك إذًا، وشيئًا فشيئًا، وكأنها تقتلع أسنانه، فهمت أنهما ذاهبان هما الاثنان لعشاء الدكتور درويش. شرح لها أنه خال أمّه، وفهم منها أنها تلميذة قديمة لدرويش وصديقة للبلى، وذاهبة لحضور عيد ميلاد سلمى، وتندّرا على الصدفة التي جمعتهما في المطار. وعند هذه النقطة التي تصوّرت أن يبدأ منها الحديث بشكلٍ أسهل، صمت تمامًا. وصلا للبوابة المخصّصة لطائرتهما.

كانت البوابة مُكتظّة بالمسافرين، وهناك أطفال كثيرون يصرخون ويجرون في المكان، وشباب ممدّد على الأرض ينتظر، ولا مقاعد خالية. توجّها للموظفة، وسألاها في نفس واحد عن موعد الإقلاع، فعلما أن الطائرة ستتأخّر لمدة خمس وأربعين دقيقة. تبادلا إبداء الانزعاج، فذلك يعني تأخّرهما على موعدهما. لكن الموظفة هزّت كتفيها بألاّ يسعها فعل شيء، وتركتهما ومضت. نظرت رباب لعدنان، وأخبرته أن لديها بطاقة تسمح لها باستخدام صالة رجال الأعمال واصطحاب ضيف، وعرضت عليه في دلالٍ مازح أن يكون ضيفها. لكن عدنان ارتاع من الفكرة! كيف يذهب لقاعة رجال الأعمال وهو مسافر في الدرجة السياحية؟ لا يعتقد أن ذلك من حقّه. أكدت له أن ذلك هو النظام المعمول به، وأنها لا تنوي تهريبه للقاعة، لكنّه أبدى تردّدًا كبيرًا. قالت له في نفاد صبر إنها لا تريد التطفّل وإنّه إن كان يفضّل الانتظار خمسًا وأربعين دقيقة وسط

صراخ الأطفال بدلاً من الجلوس بهدوء في القاعة المميّزة، وتناوُل شراب أو قهوة، وقراءة جريدة أو مراجعة بريده الإلكتروني، فإنها لن تحرمه من هذه المتعة. ردّ بشيء غير واضح عن أنه لا يريد أن يبدو وكأنه يتسوّل خدمة غير مُخصّصة له. نظرت له بنفاد صبر فسار معها.

استقرا في القاعة، وسألته عمّا يريد أن يشربه فشكرها، وقال إنه سيقرأ الجريدة. أتت لنفسها بكأس من النبيذ الأبيض وكوب ماء وعادت. جاء بالجريدة وجلس بجوارها، لكنّها عاجلته بالحديث قبل أن يشرع في قراءة جريدته. تطوّعت بإخباره أنها على عكسه وُلدت وتربّت في مصر، لكنّها أتت لواشنطن واستقرت بها، ولم تعد تستطيع أن تبرحها. أومأ موافقًا وهو يكرّر "نعم، نعم". لم يكن في كلامها ما يستدعي الموافقة. نظرت إليه وهي تتساءل فيم يفكّر؟ كيف يراها؟ هل يشعر بأنّها تطارده أم أنه فقط خجول وغريب الأطوار؟ كانا قد استأنفا الحديث بالإنجليزية بعد الجُمل العربية القليلة التي تبادلاها عندما اكتشفا أصولهما المشتركة. تحدّث بكلمات قليلة عن عمله كمحاسب بشركة السيارات الكبيرة بفيرجينيا، وبكلماتٍ أقل عن عائلته وعن حياتهم السابقة بواشنطن، لكنّهما تحدّثا بعض الإسهاب عن واشنطن نفسها، وخاصة ميدان دوبونت حيث تسكن والتي بدا أنه يحبه بشكلٍ خاص. تساءلت عمّا إذا كان له ذكرى خاصة في المنطقة، ربّما حبيبته الأولى. ثمّ أدركت فجأة أنه يشبه أكثر زوجها السابق. انزعجت من هذه الفكرة وبدا عليها ذلك، وظن عدنان أنه قال شيئًا ضايقها فصمت. بعد عدة ثوانٍ من الصمت المحرج، بدأ يقرأ في جريدته، وأخرجت هي تليفونها، وبدأت تراجع بريدها الإلكتروني.

www.miazna.com-RAYAHEEN

ثم عاودت الكرّة:

– هل عشت بديترويت فترة طويلة؟

– نعم، حوالي خمسة وعشرين عامًا.

– يالهول! خمسة وعشرين عامًا في نفس المكان؟ ألم تشعر بالملل؟

– الملل موجود في الأماكن الأخرى أيضًا.

لا بأس بهذا الرد، فكّرت. لكنه صمت مرةً أخرى، وبدأت تشعر وكأنها تطارده، فصمتت وصمت هو الآخر. بعد خمس دقائق أخذ الباخرة، لأول مرة، وسألها عن عملها. شرحت له رباب أنها محامية في مكتب للدفاع القانوني عن الحقوق المدنية للأقليات، وأنّ اختصاصها حقوق العرب والمسلمين. أبدى بعض الاهتمام، فاسترسلت في شرح العمل الذي تقوم به، ومدى صعوبته وكيف زادت هذه الصعوبة أضعافًا مضاعفة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر. أومأ برأسه عدة مرات، وعلّق بشيء عن صعوبة وضع الأقليات بشكلٍ عام. سألته عمّا يقصد، فأجاب أن الأقلية محكومٌ عليها بأنّ تخضع للتمييز. انتابها غضب مفاجئ، وسألته بنبرة متهكمة، وبالعربية لأول مرة منذ بدء الحديث:

– يعني إيه إن شاء الله؟ يعني عادي إنهم يدوسوا عليك؟ تقول لهم إحنا آسفين للإزعاج، اتفضلوا، دوسوا كمان؟

– ماقصدتش كده، لكن التمييز ده في كلّ حاجه، من النقّال إلى سلطات الأمن، ومش كلّ حاجة يقع يترفع فيها قضية.

– أهو الكلام الفارغ ده اللي جايبنا لورا.

– حضرتك ليه عدوانية؟

– ولا عدوانية ولا غيره، بس أنا ماليش مُقطان على الكلام ده. دي حوارات خلّصتها وأنا عندي خمسة وعشرين سنة.

نظرت إليه وشعرت أنه ينكمش. كانَ ملامح وجهه تصغر في الحجم. حلّ عليه صمتٌ كامل. بعد دقيقة واحدة قال إنه سيذهب ليرى ما إذا كانت الطائرة على وشك الإقلاع. قالت له ألا فائدة من كثرة السؤال، فالطائرة لن تقلع قبل ربع ساعة أخرى، لكنه تمتم بأنه يريد شراء شيء، وقام في تلعثم مُومئًا لها برأسه. أومأت له بدورها ومضى بسرعة. عادت لتفقد بريدها الإلكتروني بغضب وهي تتمتم بصوت مسموع: "يالله من متخلّف". تساءل نفسها عمّا أصاب الرجال. الكسّ كان يشبه هذا الأخرق؛ جذّاب ولطيف، وطيب وذكي، لكن ليس عا فيه الكفاية. قالت لنفسها ساعتها إن ذلك لا يهم، فالكسّ يفهمها ويتفهمها ويعتني بها، ويحتويها ولا يعاني أيًا من مشكلات وعقد الرجل الشرقي. كانا أصدقاء في البداية، وكان يحتمل كلّ ترهاتها وسخافاتها حتى حين يفر منها بقية أصدقائها. ثم، مثلما يحدث في الأفلام الباعثة، انقلبت الصداقة لحب، وظنّت أنه رجل حياتها. تزوجا بسرعة، رغم اعتراضات ليلى، ربّما لم تكن هي نفسها متأكدة من صواب اختيارها، فأسرعت بالزواج قبل أن تثنيها ليلى بالعدول عنه.

لم يدم هذا الزواج سوى عام وبضعة شهور. بعد أربعة شهور من

زواجهما فقدت عملها بمكتب المحاماة الرسوق الذي كانت تعمل به منذ تخرجت. كانت حديثة التخرج، عاطلة وبعدّة في عملها. قالت لها مديرتها ذات صباح إنّهم مضطرون لتخفيض عدد المحامين بالمكتب، وأنّ وظيفتها ستُلغى. بعدها بشهرين قابلت زميلة سابقة لها بالجامعة، واكتشفت إنّها عُيّنت في نفس المكتب، تقريبًا في نفس عملها القديم. صُدمت و لم تفهم في البداية، وانتابها شكوك حول كفاءتها. لم تكن قد وجدت عملاً آخر، لم تفلح محاولاتها في العثور على وظيفة مماثلة لتلك التي فُصلت منها. دعمها الكس بشدة لكن شعورها بالفشل ظلّ يتزايد حتى توقّفت تمامًا عن البحث عن عمل، وأصبحت تقضي وقتها كلّه في المنزل. تذكّر تلك الفترة كأسوأ فترة في حياتها. رحلت ليلى في نفس الوقت تقريبًا لمصر، قائلة إنه لا سبب يدعوها للبقاء في أمريكا، وإنّها كي تفعل شيئًا مفيدًا عليها العودة للمكان الوحيد الذي يُحدث وجودها فيه فرقًا. آلمها ذلك أيضًا، ليس فقط لأنّ ليلى لم تزل في وجودها وصداقتهما مسألة ذات أهمية، ليس فقط لأنها اتخذت هذا القرار وحدها ودون مناقشة معها، وإنما لأنّ ليلى ضغطت على الجرح الذي كانت تشعر به، وهو أنها عديمة القيمة وبلا فائدة. ظلّت تفعلو هكذا في الحياة دون مايشغلها، ثمّ قابلت كريستي.

كانت كريستي أملة تمامًا عندما اعترفت لرباب أن المكتب قرر الاستغناء عنها بسبب أصلها الأجنبي. قالت إن الكثير من العملاء أبدوا عدم رغبتهم في أن تتولّى قضاياهم، إمّا عدم ثقة في كفاءتها أو لمجرد شعورهم بأنهم لا يستطيعون التواصل معها بنفس الدرجة التي يتواصلون

بها مع اقرانهم بشاطرهم اللّهجة والمزاج وروح الدعابة. بعد فترة أصبح وجودها يشكّل عبئًا ماليًا وإداريًا على المكتب، لكنهم لم يستطيعوا تبرير إنهاء خدماتها، فقاموا بإلغاء الوظيفة نفسها، ثمّ أعادوها بعدها بشهرين وعيّنوا تلك الزميلة التي قابلتها رباب. اعترفت كريستي أنها شعرت بالرثاء لرباب لكنّها تفهمت ظروف المكتب. رباب كانت قد تعلمت أيضًا عندما بدأت كريستي هذا الحوار، لكنّها شعرت أنها تغيق من نوم طويل. عندما أنهت كريستي حديثها قامت رباب واقفة، وجمعت حاجياتها كي ترحل. طلبت منها كريستي توصيلها لمنزلها إذ لن تستطيع في حالتها تلك القيادة أو حتى العودة في تاكسي، وهنا انفجرت فيها رباب بسيل من أقذع الشتائم التي فاجأت رباب قبل غيرها من رُوّاد البار. صمت المحيطون بهما كلّهم، في حين انهالت رباب بالسّباب على كريستي التي فاهمة لما يجري لها، ثم سحبت حقيبتها وخرجت من البار.

حكت رباب القصة في نفس الليلة لألكس الذي استمع بصبر وتشكّك. لم تفهم رباب بالضبط رد فعل ألكس، لكنّه ظلّ يشكك في صحة القصة في نفس الوقت الذي بدا فيه وكأنّه قد قبل فكرة الربط بين أصل رباب الأجنبي وعدم قدرتها العثور على وظيفة تناسب ومؤهلاتها. الأسوأ من ذلك، على الأقل في نظر رباب، أنه بدا وكأنّه قد تعايش مع الفكرة باعتبارها أمر طبيعي، فصار يُنبّهها عن التقدّم للوظائف المرموقة على أساس أن ذلك "تضييع لوقتها"، فهم "طبعًا لن يقبلوك بهذا المكتب". كان الغضب يتزايد داخل رباب يومًا بعد يوم، وفي حين عادت ليلى لمصر فإن رباب قررت أنها لن ترحل، ولن تستسلم، ولن تقبل بتلك الفكرة

التي قبل بها الكس الجبان، واجهته أكثر من مرة، وتشاجرا كثيرًا، واتهمها بأنها تعاني من عقدة اضطهاد مرضية، واتهمته بأنه ليس رجلاً، وظلت الأمور تتدهور حتى انتهى الأمر بطلاقهما. كان ذلك تقريبًا في نفس الوقت الذي أرسلت فيه ليلى من مصر تخبرها بأنها قابلت القمان وقررت الزواج منه.

أحيانًا كثيرة تفكر رباب أن حياتها وليلى تكملان بعضهما بشكل من الأشكال. كأنّ لهما معًا نصيبًا واحدًا عليهما اقتسامه. وحين تركت ليلى عملها في مصر، وحملت فيمن سيصبح بعد ذلك سلمى، كانت رباب قد نحّت حياتها الشخصية جانبًا، واستغرقت حياتها كمحامية للدفاع عن حقوق الأقليات. لو كانت قد حملت من الكس لربما كان طفلها الآن في عمر سلمى. على العموم لم تتزوج رباب ثانية، لكنّها دخلت في علاقة بعدة كادت أن تفضي إلى زواج، وكان ذلك في نفس الوقت الذي انفصلت فيه ليلى عن القمان. كادت العلاقة أن تفضي لزواج، لكن رباب قررت الاحتفاظ باستقلالها، وقد كان. ومن وقتها وهي تعيش وحدها، لا تريد أحدًا يحكم عليها لو بحاسبها ولو معنويًا، وتسأل نفسها خلسة إن كانت قد أخطأت الطريق.

أين ذهب الشخلف عدنان؟ سألت نفسها وهي تنظر في ساعتها. لقد حان موعد إقلاع الطائرة؛ قامت واتجهت للموظفة الجالسة عند مدخل القاعة، وسألتها ببراءة عمّا إذا كانوا يعرفون الآن الموعد النهائي لإقلاع الطائرة المتجهة لنيويورك. نظرت لها الموظفة بازدراء، وسألتها:

– نيويورك؟

حملقتها رباب بنظرة استغباء، وأومأت في صمت. نظرت الموظفة في شاشة الكمبيوتر، وطلبت منها بطاقة صعود الطائرة. أعطتها رباب البطاقة. نظرت فيها الموظفة بإمعان، ثمّ نظرت للشاشة مرة أخرى. نادت على زميلتها الأكبر سنًا وأرتها البطاقة والشاشة. نظرت لها الموظفة الأكبر في نصف دهشة ونصف استهانة، وقالت ببساطة:

– سيدتي: لقد أقلعت طائرة نيويورك منذ ربع ساعة.

– ماذا؟

– أقلعت. لقد نادينا على الركاب أكثر من مرة.

– لكن الموظفة عند بوابة الرحيل قالت إنها لن تقلع قبل السادسة وخمس وأربعين دقيقة.

– نعم، لكن الطائرة حصلت على تصريح مغادرة المطار قبل ذلك، فنادينا على الركاب وأرسلنا الطائرة. لقد جاء الجميع فلماذا لم تأتِ؟

– لماذا لم آتِ؟ لأنّ زميلتك قالت "في السادسة وخمس وأربعين"، والساعة الآن السادسة وأربعين دقيقة!

– نعم، ولكنّ هل تسمعين خلف أني كلام يُقال لك؟

– أي كلام؟ هذه موظفة بوابة الرحيل الدائمة لكنها أليس من المفترض أن أُصدقها؟

– على العموم الطائرة رحلت.

– والحل؟

– لا أدري، لا يوجد طائرة أخرى لنيويورك الليلة، أول طائرة غدًا في التاسعة صباحًا.

– غدًا! لا يمكن. لديّ ارتباطات في نيويورك الليلة. لا بد من أن أرحل الآن.

– لا أدري كيف يمكن أن ترحلي الآن ياسيدتي! لا يوجد طائرات لنيويورك الليلة من هذا المطار.

– ما هذا الكلام؟

– أنا آسفة، لكن لا يُوجد ما يمكن فعله.

قالت ذلك ومضت. ظلّت رباب واقفة في ذهول تنظر للموظفة الأصلية المرتبكة، بينما انهمكت الأخيرة في عملٍ ما على الكمبيوتر الخاص بها. ما هذا الهراء؟ شعرت بموجة من الغضب تعصف بها، لكنّها تمالكت نفسها.

– سيدتي! من فضلك.

– نعم.

– ماذا يُفترض بي أن أفعل الآن؟

– لا أدري، ليس هناك سوى أن تقضي الليلة في واشنطن، وتعودي لنا في الصباح.

– وماذا أفعل في ارتباطاتي بنيويورك؟

– لا أدري. ربّما هناك طائرة أخرى من مطار دالاس.

– هل يمكن أن تتفضّي ذلك؟

– لا، هذه ليست مسئوليتنا.

– كيف؟ ألستِ مسئولةً لكم صلّام راكبة؟

– سيدتي نحن لم نُضللك. لقد نادينا أكثر من مرة على الركاب، وأنتِ التي لم تستجيبي للنداء. أين كنتِ؟

– أين كنت؟ هل تفترضين أن أجلس هنا طيلة الوقت أترقّب نداءً لا يُفترض فيه أن يأتي؟ لماذا سألتِ لهذه التفاهات الغير مفهومة وأنا أعلم – وأنتم تعلمون – إن الطائرة لن تُقلع قبل خمس وأربعين دقيقة؟

– لقد جاء الجميع.

– فعلاً؟ ماذا لو كنت صمّاء؟ ماذا لو أن سمعي ثقيل؟ هل تُفترون في المعاملة ضد ضعاف السمع؟ أليس من حقّ ضعاف السمع ركوب طائراتكم المتأخرة عن موعدها عندما تقرّرون أن تُبكّروا موعدها مرة أخرى؟

– ليس بوسعي مساعدتك ياسيدتي.

– هل هناك من يمكن أن أتقدّم له بشكوى؟

www.miazna.com-RAYAHEEN

– بالطبع، سنجدين بياناته على موقعنا على الإنترنت. والآن، اسمحي لي فلدي أعمال أخرى.

وتركتها ورحلت. شعرت رباب بالدم يصعد لرأسها. لا يمكن أن يفعلوا هذا! لا يمكن أن يلقوا بها في الشارع هكذا! أين حقوق الزبائن؟ طبيب، ولنفترض أن خطأ ما قد حدث، ألا يجب على الأقل أن يحذروا ويتحملوا المسئولية؟ لكن هذه المرأة تتهمها هي بأنها أساءت التصرف. الكلبة. خرجت رباب من القاعة، وتوجهت لمركز خدمة العملاء. انتظرت في الصف الطويل وهي تغلي. بعد ربع ساعة كاملة وصلت للموظف. كان ألطف قليلاً، لكنه لم يبعد عن موقف زميلته. قال الموظف إن سياسة الشركة وبنود التذكرة تحول دون أصلها لمسئولية هذا الوضع. ثم؟ لأنّ الخطأ من الزبائن. كيف؟ عُدنا للقصة الشاذ وعدم استجابتها. عليهم اللعنة جميعًا. قررت رباب أنها ستكتب لقسم الشكاوى فيما بعد، لو استطاعت التكتم وجه هذا الموظف حتى يأتي. تركت الموظف وعادت للقاعة.

دخلت على شبكة الإنترنت تبحث عن طائرة أخرى من مطار دالاس أو عن طائرة أخرى تابعة لشركة أخرى، عن أي شيء يمكن أن يأخذها لنيويورك قبل القادمة. فجأة تذكرت عدنان؛ لابدّ أن الأخرق لحق بالطائرة، مادام ظلّ ملتصقًا ببوابة الرحيل كالذليل، فلا بد أنه سمع النداء. طبعًا لم يفكر في البحث عنها. لم تجد شيئًا ذا بال على الإنترنت، لا طائرات أخرى في موعد معقول. ماذا تفعل إذًا؟ فجأة خطر ببالها البحث عن القطارات. ربما تلحق بقطار السابعة والنصف. ستحتفظ بكل

التذاكر والفواتير، وترسلها لشركة الطيران، وإن رفضوا دفعها وتعويضها سيقاضيهم. هؤلاء اللاعبون.

حملت حقيبتها الصغيرة وتوجهت لباب الخروج. نظرت للموظفة الأكبر سنًا ولمحت على وجهها نظرة شماتة. شعرت بحقد دفين على هذه المرأة: كيف يمكن لموظفة أن تكره أحد الركاب هكذا؟ ماذا فعلت لها؟ فكرت في أنها يمكنها أن تقاضيها، لكنها كانت تعرف أن ذلك عبثًا. لا يمكنها إثبات سوء النية أو الغلظة في المحكمة، ولا حتى في شكوى للشركة. لا يمكنك أن تثبت أن شخصًا يعاملك بكراهية. ليس أمامك إلا تلقي الكراهية في صمت. وهي تلقتها، والآن تلقى أيضًا نظرة انتصار المرأة الكارهة. تذكرت عدنان ومقالاته عن التمييز، وعدم إمكانية منعه بالقضاء فزاد غضبها أكثر، على المرأة الكارهة وعلى عدنان وعلى نفسها. هزّت نفسها بأنها لن تركب على طائرات هذه الشركة مرة أخرى، وقمعت شكها في أن ذلك الأمر يمكن أن يتكرر من أيّ شركة أخرى، وخرجت من القاعة.

ماذا تفعل الآن؟ ليس معها ملابس؛ لأنّ الشركة اللعينة أرسلت حقيبتها على الطائرة. لا يمكنها شراء شيء الآن ولا في الصباح، لا وقت. ماذا ستفعل؛ تذهب بملابسها للعشاء، ثمّ بنفس الملابس غدًا لاجتماعاتها الهامة؟ لا يمكن أن تدخل قاعة الاجتماعات بالشكل الذي ستكون عليه ملابسها في الصباح بعد ليلة كهذه. يجب أن تجد مكانًا في نيويورك في الصباح الباكر؛ لتشتري منه شيئًا وترتديه في المحل، وتلحق بموعدها في العاشرة، ثمّ تلحق بالطائرة اللاهية اللوس أنجيلوس. غير مؤكد أن يقبع هذا

السيناريو. الأمر كلّه مزعج. لعنة الله على الشركة وعلى الفوضى. جال بخاطرها أن مرتكبي هجمات 11 سبتمبر قد يكونون في الأصل ركابًا على متن هذه الشركة اللعينة وحلت طائراتهم بدولهم، وأسيء معاملتهم، وتحطّم جدول التزاماتهم دون أن يتحمل أحد المسئولية أو يساعد في إصلاح ما دمّر، فقرروا اختطاف الطائرات الموجودة وتفجيرها انتقامًا من شركات الطيران. تشعر الآن بغضب يكفي أن تجعلها قادرةً على إيذاء المسئول عمّا يحدث لها لو أمسكت به. لكنّه غير موجود، وربما ليس له وجود فعلي! مجرد نظم وقواعد، وأخطاء، وأشخاص عديمو التعاطف. ماذا تفعل الآن؟

ستذهب لمحطة القطار الآن، فورًا، قبل أن تفقد رشدها من الغيظ. أعجبتها الفكرة الجديدة. قامت للخروج نحو موقف التاكسيات، فلمحت عثمان جالسًا على أحد المقاعد في نهاية الصالة. إذن لم يسافر هذا المتخلّف! فكّرت أن تتركه وتمضي، ثمّ عادت وغيّرت رأيها. توجّهت نحيث يجلس، وسألته بالعربية:

– فاتتك الطيارة؟

نظر إليها وأشار بيديه أن نعم. سألته عمّ سيفعل؟ فقال إنه فوّت تذكرته ليعود إلى ديترويت مباشرة. وماذا عن العشاء؟ سيتصل بالدكتور درويش ويعتذر له. ولم لا يذهب معها بالقطار؟ لأنّ القطار يصل في منتصف الليل، سيكونُ العشاء قد انتهى، وسيتعيّن عليه السفر في اليوم التالي لديترويت، ومن ثمّ فلا معنى لذهابه هناك. وقفت لحظة أمامه دون أن

تعرف ماذا يمكن أن تقوله. لا تعرف حتى ماذا تريد منه أن يفعل. كلامه منطقي، وهي لا تعرفه، فماذا تريد منه؟ أن يأتي معها؟ لو أراد التسفر معها لكان عليها أن تقلق، فسيكون ذلك أمرًا غريبًا حقًا. فلم لا تتركه في حاله وتمضي؟ تنظر إليه ولا تعرف ماذا تريد منه أو يريده أن يفعل، تسأل نفسها لم تشغل نفسها به أصلاً ولا تجد إجابة فتزيد ذلك من غضبها عليه وعلى نفسها وعلى شركة الطيران. "كفى اذهبي الآن". قالت لنفسها، أمرت نفسها، فسلّمت عليه مرة أخيرة، وتمنت له التوفيق ومضت نحو باب الخروج تبحث عن التاكسيات.

وجدت تاكسيًا وحيدًا وبه سائق نصف نائم. نادته وركبت، وقالت له بلهجة آمرة: محطة الاتحاد. تحرك التاكسي، وبعد نصف ساعة وصلت المحطة. عندما تحرك القطار برباب شعرت أخيرًا بأنها تستعيد بعض السيطرة على مجريات الأمور. لكنّها لن تصل نيويورك قبل منتصف الليل. وداعًا لعشاء الدكتور درويش ولقاء سلمى. لن تتمكن حتى من رؤيتها في الغد، حيث سيكون عليها اللحاق بطائرة لوس أنجلوس وعندما تعود ستكون سلمى قد رحلت. فكّرت في الاتصال والاعتذار، لكنّها لم تجد في نفسها من الشجاعة ما يكفي لمواجهة سخط الدكتور الأسطوري النظام. ستتصل به في الغد وتشرح. ستصل محطة بن عند منتصف الليل، وستكون المحطة مهجورة عند ذلك الوقت. ستأخذ تاكسيًا غاليًا ما سيكون الوحيد أمام المحطة وتذهب لفندقها. ستكون مُنهكة، ستكون ليلة مُنهكة، أغمضت عينيها كيلا تفكر في كلّ ذلك، ونامت.

8

منتصف الليل في محطة "بن"

عند منتصف الليل، أيّ بعد نصف ساعة بالضبط، سيبلغ سلمى الواحدة والعشرين. نظرت لساعتها مرة أخرى، ولامت نفسها على تأخرها! لابد وأنّ جدها غاضب جدًا. لو لم تخطئ في الرصيف لما فاتها قطار الثالثة والنصف، ولوصلت تيوبورك في موعدها، وحضرت حفلة عيد ميلادها الذي يُعدُّه لها جدها منذ أسبوعين. لقد دعى الكثيرين، تقريبًا كلّ من له صلة بها في أمريكا، وهو لا يحبُّ عدم الدقة في المواعيد، فما بالك بأربع ساعات فرق! ستصل في منتصف الليل، وسيكون المدعوون قد انصرفوا، وربّما ذهب جدها نفسه لفراشه. تحمد الله أنه ترك لها نسخة من المفتاح،

www.miazna.com-RAYAHEEN

فما كانت لتجرؤ على إيقاظه في هذا الوقت المتأخر. لكن لم تنم نفسها؟ لقد أربكتها كثرة الأرصفة والتعليمات والإشارات في المحطة، وهم لا يسمحون للركّاب بالتوجّه للرصيف إلاّ قبل موعد رحيل القطار بعشر دقائق، فيتكدس الجميع عند الأبواب، وإذا أخطأت، مثلما فعلت هي، يكون من الصعب العودة للمكان الصحيح في الوقت المناسب. ولا أحد تسأله أو يردّ عليك. عندما فهمت أنها على الرصيف الخطأ جرت ناحية الرصيف الصحيح، لكنّ القطار كان قد أغلق أبوابه عندما وصلته. كان واقفًا، وظلت تدق على الباب وهناك مفتش أو عميل يقف داخل القطار وينظر لها مبتسمًا وهو يهز رأسه، ثم تحرك القطار وتركها على الرصيف. هكذا. عادت وهي دامعة العينين للصالة الرئيسية ولحسن الحظ وجدت جيسي جالسة في المقهى لم تغادر. فرحت لها بين دموعها ماجرى، وجيسي تربت عليها وتلعن "أبو شركة القطارات" وسلمى تبكي وتضحك، ثم أخذتها جيسي لشباك التذاكر واشترت لها تذكرة جديدة للقطار التالي. اقنعت جيسي أنها السبب في تأخير سلمى، ورفضت أن تأخذ ثمن التذكرة.

المشكلة الحقيقية أن القطار التالي يغادر والساعة في السابعة والنصف، ويصل نيويورك قرب منتصف الليل. فزعت سلمى: "جدتي سيقتلني". طمأنتها جيسي وهي تضحك مُؤكّدة لها أن جدها لن يقتلها، على الأقل ليس بسبب تأخرها، وقامت بالاتصال به نيابة عنها وشرحت الأمر له. لم يكن سعيدًا، وأدركت جيسي من الحديث أن الرجل حانق

ويكظم غيظه. سألها لماذا انتظرت سلمى حتى آخر لحظة؟ لماذا لم ترحل في قطار الصباح أو الظهيرة؟ وكيف فاتها القطار بالضبط؟ ولم فاتها هي بالذات في حين نجح به بقية الركاب؟ وما الذي يضمن أنها ستلحق بالقطار التالي إن كانت المشكلة أنها تخطئ الرصيف؟ استخدمت جيسي كلّ لطفها مع الجد الشرس حتى أذعن، لكنّه طلب منها أن تخبر سلمى أن حفلة عيد الميلاد قد فسدت بسبب فعلتها، وأنّه مضطر لإخبار الضيوف بذلك، وأنّ تحاول عدم اقتراف مزيدًا من الأخطاء حتى تصل.

– يا الله كم صعب جدك!

– هو إنتِ شفتي حاجه!

جيسي، ياسمين في الأصل، صديقة أبيها، وهي أمريكية من أصل لبناني، مرحة ودافئة وترحابة، وتبدو أصغر بكثير من سنينها الخمسة والأربعين. أخذتها في اليوم الأول لزيارتها في جولة بالسيارة، كي تريها معالم واشنطن العاصمة. جدّها لم يأخذها لأيّ مكان في نيويورك بل أعطاها خريطة وبطاقة لركوب المترو عند وصولها، وتركها تتجول وحدها. المكان الوحيد الذي اصطحبها إليه كان متحف الفن المعاصر حيث شاهدا معرضًا للصور لم تفهم منه شيئًا. غير ذلك تركها مع نفسها، وفي المساء يسألها بإقتضاب كيف كان يومها وما إذا كانت جائعة، ثم يتركها ويحلد للنوم. أبوها لا يراها إلا قليلاً، لأنّ أمها أصرّت ألا تقيم معه وهو مشغول في المستشفى معظم اليوم.

جيسي أعلنتها منذ أول يوم إلى ميدان "تيبون" حيث تعشينا سويًا في مطعم بيع كبابًا فاخرة بجوار الطعام والشراب. وحكت لها حكايتها مع أمريكا منذ هاجر إليها جدّها في أول القرن العشرين، وهو لا يحمل في جيبه غير خمسة عشر دولارًا. هو، الطبيب المحترم في بلدته الصغيرة في لبنان، ترك كلّ شيء ورحل فرارًا من قيود الحكم العثماني وبحثًا عن حياة حرة. قصّت عليها كيف أنه رغم ذلك عندما أراد الزواج عاد إلى لبنان فتزوج بنت من قريته، وهو نفس الشيء الذي فعله أبوها.

– كلهم هيك الشباب العرب، يصاحبوا من هون، بس تيجي على الزواج إلا وبتلّهم بنت من الضيعة. يا حرام راح يضلوا هيك ما فاهمين شي!

سألتها عما تقصده فضحكت، وقالت إنها لا تريد إفسادها. سألتها سلمى كيف تشعر بنفسها لبنانية أم أمريكية؟ وما إذا كانت تريد أن تعود يومًا للحياة في لبنان؟ وجيسي تضحك وتقول لها:

– لبنان؟ والله أنا بصحى كلّ يوم، وأحمد الله إنه ماني عايشة بدولة عربية!

وسلمى تحكي لها قصتها هي و"محمود" زميلها بكلية التجارة الذي تحبه، والصعوبات التي تواجهها معه ومع نفسها ومع صديقاتها ومع أبيها ومع أمها، "تناقضات حياة البنات في مصر"، قالت سلمى. أحيانًا تشعر أنها "غريبة من ربنا" وأنها تودّ أن تقترب منه أكثر، وأن تتوقف عن كلّ

الأشياء التي يمكن أن تغضبه. وأحيانًا تشعر أن هذه الأمور كلّها تقييد. سألتها جيسي أيّ أمور؟ فردت: "كل الأمور، كلّ هذه القواعد. أحيانًا أشعر أني أعيش في سلسلة لا تنتهي من القواعد، وأني الوحيدة التي تعيش هكذا". قالت سلمى إن "الناس تكسر القواعد طول الوقت، ولكن أمها تخيّل أن الناس يلتزمون بها. وهي تعلم، وترى صديقاتها، وتعلم إلى أيّ حد يفعلون "كل شيء" ولكن في السر، لكنّها في نفس الوقت لا تريد ذلك، لا تريد أن تغش أمها، أو أن تخون ثقة أبيها، ولا تريد أن تعيش في قفص من حديد. ولا تعرف ماذا تفعل. سكتت طويلًا، ثم أضافت –وكأنها تذيع سرًا– أنها تعرف فتاة في بروكلين، إحدى قريبات خالة أمها أميرة، قالت لها منذ أسبوع إنها تحسدها على بلوغ الواحدة والعشرين. سألتها لم؟ فقالت إنها تنتظر هذا السن بفارغ الصبر كي تترك المنزل وتفرّ من بيت أهلها. شعرت سلمى بالهلع لسماع ذلك، وسألت الفتاة لم؟ فأجابتها تلك بأنها لا تريد أن تكون مسلمة. "تصوّري؟ سألتها لم؟ فقالت لي إنها لا تريد أن تتبع دينًا يجعلها تشعر بالذنب طول الوقت". صمتت سلمى، وريتا جيسي على كتفها في صمت.

سألتها جيسي عن أبيها، وما إذا كان قد حدّثته في كلّ هذا، فحدّثتها عن افتقادها الدائم لأبيها، وانتكت من أنه رغم وجوده بنيويورك هذه الأيام، فإنها لم تتمكن من رؤيته إلا مرات قليلة. سألتها جيسي بحرص عن أمها، وما إذا كانت بالصّرامة التي تُشاع عنها، فضحكت سلمى وقالت إن أمها مزاجية أكثر منها صارمة. سلمى تحكي وتسأل، وجيسي تدور بها في

والفندق: أخذتها للبيت الأبيض، والكونغرس، والمحكمة العليا، والنصب التذكاري لأبراهام لنكولن وتوماس جيفرسون، والمقبرة العسكرية بأرلنجتون حيث يرقد بعض ضحايا الحروب الأمريكية العديدة، والبنك الدولي، ومتحف الفضاء، والنصب التذكاري لضحايا محرقة النازيين، وسلمى سعيدة بكلّ هذه الأشياء التي تسمع عنها طول حياتها وتراها لأول مرة. تطير جيسي بالأسئلة وجيسي تضحك، وتأخذها لأماكن جديدة وتطعمها وترد على أسئلتها. ثم فجأة حلّ عليها موعد قطار العودة إلى نيويورك، وإلى جدها الصامت وأبيها الغائب، وخريطة الترو. كيف مر الوقت بسرعة هكذا؟ حاولت التفاوض مع جدها بالتليفون كي تبقى فترة أطول، لكنه رفض فورًا. كانت تعلم أن ذلك صعب، فهناك ارتباطات أخرى لها في نيويورك غير حفلة عيد الميلاد: هناك أبوها، وهناك أميرة خالة أمها. عندما فاتتها القطار، قررت جيسي أن تأخذها في نزهة إضافية بقارب الكاياك في نهر البوتومك، وطارت سلمى من الفرحة. وكنا سويًا في القارب الضيق واندفعنا وسط مياه النهر وسلمى تصرخ من الانطلاق! ليس لديها أدنى فكرة عن التجديف، لكنها تفعل ما تقوله لها جيسي.

بعد قليل توقفنا في وسط النهر للاستراحة والتأمل. جميل نهر البوتومك، قالت سلمى، وأومأت جيسي مؤكدة. تشجعت سلمى، وسألتها بغتة عن الموضوع الذي لم تجرؤ أن تسألها عنه حتى الآن. قالت بحرص إنها سمعت أمها تتناقش مع أبيها بالتليفون قبل سفرها حول برنامج الرحلة، وأن أمها احتدت على أبيها عندما علمت أن سلمى ستقيم عند جيسي في الفندق وليس عند صديقتها القديمة رباب التي

تبين في آخر لحظة أنها ستكون خارج المدينة، وسألته بغضب كيف يسمح بأن تقيم ابنته عند امرأة غير سوية! سألتها لماذا تقول عنها أمها إنها غير سوية؟ صمتت جيسي لحظات، ثم أجابت بهدوء إن الناس مختلفين فيما يريدون، وإن الإنسان يجب عليه أن يعرف ويفعل ما يريده هو ليس ما يريد الآخرون له. ثم أضافت أن بعض الناس – مثل أمها – لا يقبلون بهذه الاختلافات. قالت هذا، ثم طلبت منها بمرح أن تجذف كيلا يدور القارب حول نفسه، ولم يعودا لهذا الحديث.

فكرت سلمى أن هذه الرحلة كلّها متناقضات. افترحها الجد، وعارضتها أمها بشدة، لكنها في النهاية وافقت تحت ضغط حاسم من جدها. تستغرب سلمى علاقة أمها بجدها، وسألتها عن ذلك لكنها لم تحصل على جواب شاف. سألت أمها: "لم لا تذهب لزيارته في نيويورك أبدًا؟" فأجابت الأم إنها لا تحب نيويورك. كيف لا تحبها وقد عاشت فيها عشر سنوات في النهاية وافقت الأم، لكن بشرط أن تكون سلمى في رعاية الجد، وخالتها أميرة وزوجها، وهما نوعية تختلف تمامًا عن جدها. في نفس الوقت، ورغم وجود أبو سلمى في نيويورك هذه الأيام، فإنّ الأم رفضت رفضًا قاطعًا أن تقيم عنده، وكان لها ما أرادت، وأصبحت سلمى تراه وتخرج معه، لكنها لا تقيم معه. لم يستسلم الجميع لأمها هكذا؟ ولم يستسلم الأب لها حتى بعد طلاقهما؟ تودّ لو تسأله لكنها لا تجرؤ. فكرت في أن تسأل جيسي، فهي صديقته، لكنها لم تجرؤ أيضًا. فكرت أن تسأل خالة أمها، ملمح أميرة، لكنّها شديدة الالتزام بالأصول والتقاليد، ولن أجيبها.

أوقفت جيسي سيارتها أمام "محطة الوحدة" فأفاقت سلمى من أفكارها السارحة. دخلتا المحطة وجلستا في المقهى الرئيسي بهو المحطة من جديد حتى جاء موعد القطار. عانقتها جيسي، ومشت معها حتى آخر نقطة ممكنة ولوّحت لها وهي تمضي نحو رصيف قطارها. سلمى أحبت جيسي، لكنها تخاف. تحب أن تكون مثل جيسي عندما تكبر: قوية ومستقلة، لكنها لا تريد أن تكون "غير سوية". تريد أن يجعلها تميزها محبوبة أكثر، لا أن يتهامس الناس من خلف ظهرها. وتريد أن تنجب أطفالاً، لا أن ينتهي بها الأمر وحيدة مثل جيسي. لكنها أحبت أيامها الثلاثة معها، ومرّوا كأنهم حلم. وهي الآن تفيق شيئاً فشيئاً لتجد نفسها في عربة القطار شبه الخاوية هذه، والليل يقارب على منتصفه وهي على بلوغ الواحدة والعشرين. ستصل لمحطة بنسلفانيا في نيويورك في الحادية عشرة وخمس وعشرين دقيقة. اتصلت بجدتها مرتين في الطريق؛ حتّتها مرة ولم يرد في المرة الثانية. ربما يكون مشغولاً مع المدعوين. تشعر بالأسف الآن أنها فوتت حفلة عيد ميلادها؛ مسكين جدّها، يُمثّم كلّ هذا العناء من أجلها وهي بتخلفها تسبّبت في إفساد الليلة. اتصلت أيضاً بخالة أميرة، التي حذرتها من المحيطة في هذا الوقت، فهي تفرغ من مرتاديها وموظفيها وتستقطب المتسكعين والسكارى. حتى سيارات الأجرة لا تنتظر أمام المحطة في هذه الساعة المتأخرة القادمين. نصحتها بالخروج من رصيف القطار إلى الباب الرئيسي في منتصف صالة المحطة، لأنّ الأبواب الأخرى تغلق قبل منتصف الليل. ستفعل ذلك، سيكون كلّ شيء على مايرام، هكذا قالت في سرها، لكنها تلوم نفسها: كيف اقترفت مثل هذا الخطأ السخيف؟

أثناء إقامتها مع خالة أمها بيروكلين أخذتها للمسجد الذي يؤمه زوجها الشيخ داوود، وعرفتها على بعض الفتيات العرب ممن يدرسن بأمريكا. في طريق العودة سألتها ملط أميرة عنّا إذا كانت أمريكا قد أعجبتها، ولمّا أجابت بالإيجاب قالت لها إن أمريكا بلد جميل وملي، بالنعم التي لا يقدّرها أهلها. سألتها عن جامعتها بالقاهرة، وأردفت بعد أن استمعت بإمعان لرد سلمى أنه من الخسارة ألاّ تدرس بأمريكا حيث الفرص متاحة للتعلّم بلا حدود، وحكت لها عن مصريين يعيشون بأمريكا، ويدرسون ويقومون بأشياء مذهلة بعد ذلك خدمةً لأهلهم ووطنهم وأمتهم. تدخّل الشيخ داوود في الحديث هازلاً:

– فيه ناس فاكرة إنه علشان أمريكا مش بلد مسلمة يبقى مفيهاش مكان للمسلمين، بالعكس، دي أرض الله فطحها لعباده، والفروض المسلمين يعمّروها زي أيّ شعب تاني ما يعمل. بصي حواليك تلاقي كلّ الجنسيات ما شاء الله، وناس من كلّ ملّة بتبني وتخترع وتعمّر، ليه المسلمون يعزلوا أنفسهم!

سألتها الخالة مباشرة إن كانت قد فكّرت في البقاء واستكمال دراستها بأمريكا، وما إذا كانت تعتقد أن أمها ستوافق. ملط أميرة تعلم تفضّلات أمها على الحياة في أمريكا، هي التي تركت أمريكا طواعية، وعادت لتستقر بمصر. صمتت سلمى وهي تفكر، لم غيرت ملط أميرة من موقفها: في البدء عارضت مجيئها لأمريكا، والآن تريدها أن تستقر بها؟ أعادت أميرة السؤال، فردّت سلمى أنها فكّرت في ذلك، ثم صمتت. كانت

www.miazna.com-RAYAHEEN

للحادثة تدور في السيارة وسلمى ذاهبة مع أهل أمها في نزهة أثناء نهاية الأسبوع الذي تقضيه عندهم ببروكلين وفقًا لما اتفقت عليه أمها مع الجد. كل شيء مُعقّد مع هذه الأم، كل خطوة اتفاقات ومفاوضات. السيارة تعبر جسر بروكلين، وقطرات مطر خفيف تتناثر على زجاج السيارة، وصوت واعظ ما يأتي من جهاز التسجيل مُتحدثًا عن فضائل الجهاد. بدا التوتر على داوود وهو يقود السيارة، قرّب رأسه من زجاج السيارة كي يرى:

– أجيبلك النضارة يا بابا؟

– ليوه الله يخليك، مش عارفين البنت تتذكرني بسوك وحش!

ابتسم وابتسمت أميرة. شغّل داوود مساحات السيارة، فأخذت تُصدر ذلك الصوت الرتيب لمسح زجاج غير مبلّل بالكامل. صوت الواعظ يأتي من جهاز التسجيل، وذراع طفل أميرة يحيط بكتفها. شعرت سلمى بالاختناق:

– ما أفتكرش ماما توافق، ولا بابا، وبعدين دي أكيد مكلّفة قوي.

– إنتِ تقدريلك كان إيه في الجامعة السنة دي؟

أجابتها سلمى بأنها حصلت على تقدير "امتياز" هذه السنة أيضًا، فحيتها أميرة على تفوقها وهي تربت على كتفها. ثم أردفت أنه قد يكون من الممكن تدبير منحة دراسية لها للدراسة الماجستير في أمريكا إن أرادت،

وأنّ هناك جمعية خيرية تُقدّم مثل هذه المنح يعرف الشيخ داوود القائمين على أمرها، ويمكنه مساعدتها في الحصول على إحدى منحها مادامت درجاتها بهذا المستوى. سيكون عليها أن "تلتزم دينيًا" بعض الشيء، لكن في المقابل ستتكفّل الجمعية بكلّ مصروفاتها حتى تتخرج، وتساعدها في العثور على عمل، والاستقرار بأمريكا: "ده أنا كمان عندي ليك عريس، والله شاب زي القمر وابن ناس، ومولود هنا وملتزم. وحاتاعدي الجنسية. بس لما تكبري شوية. يعني ممكن تفكّر في خطوبة آخر السنة، وبعدين تيقوا تتجوزوا لما تتخرجي"، قالت، وغمزتها في جنبها. ضحكتها سلمى باقتضاب، لكن ملمح أميرة لفت عليها أن تفكر مليًا، وأردفت أنها سألحت أمها عن الموضوع.

توقف القطار مرة أخرى، وظلت سلمى عبر الشباك قرأت بالمحطة كبيرة تقول "محطة بن" – اختصارًا لبنسلفانيا. جذبت حقيبة ظهرها وخرجت بسرعة من عربة القطار، وسارت على الرصيف في ثبات باتجاه علامة الخروج. رحل القطار في الاتجاه المضاد، وشعرت بنفحة الهواء تدفعها قليلًا، وابتسمت لنفسها في ثقة: "أنا في أمريكا، وحدي، في محطة قطار. أنتقل بين الشطن ونيويورك وحدي، أعدّ أغراضي بنفسي وأنظم تذاكري ونقودي، وأمشي وفقًا لخريطة، وألتقي بأناس لم أقابلهم من قبل، وأتنقل من بلد لآخر، ومن مطار لآخر، ومن محطة لأخرى. لسلمى بحوار القطارات المسافرة التي تلفحني بهوائها، أعبر شوارع لم أرها من قبل، وألتحدث مع أجانب بلغتهم. أين أنا من تلك الطفلة الخائفة التي تمسكها أمها من يدها، وتقودها من باب السيارة حتى باب المدرسة!" ابتسمت

لنفسها راضية، وشعرت بموجة من القوة تجتاحها. أخرجت "الآي بود" من حقيبتها، ووضعت سماعاته البيضاء الصغيرة في أذنيها، واستأنفت الاستماع لفرقة "وسط البلد" التي تحبها. بدت إشارات الضالة الرئيسية للمحطة مختلفة بعض الشيء عن يوم ركبت القطار إلى واشنطن. توقفت لتتأكد من صحة الاتجاه الذي ستأخذه. أحكمت إغلاق معطفها الرمادي، وتوجهت نحو الباب الرئيسي. لفحها الهواء عند الخروج، ولكنها وجدت تاكسيًا واقفًا ينتظر، فتوجهت إليه مباشرة وفتحت الباب وهي تحيي السائق بهزة من رأسها – كما قالت لها جيسي أن تفعل – ودخلت:

– تقاطع 79 مع ريفرسايد من فضلك.

– هه؟

– شارع 79 مع طريق ريفرسايد!

– أين هذا؟

– أين هذا؟ في مانهاتن! الجانب الغربي!

– مانهاتن! آنسة، نحن في نيوجرسي.

– نيوجرسي! كيف؟ أليست هذه محطة بن؟

– نعم، محطة بن نيوجرسي. كان يجب أن تهبطي في المحطة القادمة، إن نيويورك.

– فعلاً؟ لماذا تحمل محطتان نفس الاسم؟ طيب، ممكن توصلني، وسأدفع لك ما يحدّده العداد؟

– لا يا آنسة، هذه تكلفة كبيرة، وليس لدي الوقت للذهاب والعودة، ولن أجد من يريد العودة معي. الأفضل أن تأخذي القطار مرة أخرى؛ إنها محطة قطار واحدة.

غادرت التاكسي متكدّرة، وقد لبّخر إحساسها بالرضا وبالشجاعة. لوم نفسها مرة أخرى: "كيف يمكن أن أكون بهذا الغباء؟" المحطة الغربية تبدو الآن مهجورة تمامًا. ذهبت لشباك التذاكر الوحيد الفضاء، وسألت السيدة القابعة خلفه عن القطار التالي لمحطة "بن نيويورك"، فقالت لها إن القطار آت بعد خمس دقائق وهو الأخير. وتهتها أن تسرع لأنّ المحطة ستُغلق عند رحيله. اشترت تذكرة بسرعة، وسألتها عن الرصيف الذي سيتوقف عنده القطار فأشارت إلى الزاوية الأخرى من الصالة. بدت لها الزاوية مظلمة تمامًا، فأعادت السؤال عن المكان تحديدًا لكنها لم تسمع ما غمغمت به السيدة من خلف الحاجز الزجاجي السميك للشباك. كرّرت السؤال، لكن السيدة تظاهرت بعدم الانتباه وتجنبت النظر إليها. وقفت سلمى لحظة تنتظر لكن السيدة واصلت تجنب النظر إليها وبدأت تجمع أوراقها. تحركت سلمى في الاتجاه الذي أشارت إليه السيدة. تحال الأضمحة الشريحة كلّها أغلقت تاركة بعض الإضاءة لكن الناس رحلوا. كذلك الجرائد الصباحية، وتحال أخرى مُبهمة الغرض، كلّها أغلقت وبدت المحطة موحشة وتشبه أماكن وقوع جرائم القتل والاختطاف في

الأفلام. وصلت لزاوية الصالة، ورأت علامة ترشد لمكان الرصيف، لكنها ليست متأكدة من أنه الرصيف الصحيح. نظرت لتذكرتها لكن نظرتها المرتبكة ارتطمت بأرقام كثيرة، ولم تستطع تمييز رقم الرصيف من رقم القطار من رقم التذكرة من رقم البائعة. سارت حيث تشير اللافتة في غير يقين بسلم مظلم ضيق. ارتجف قلبها قليلاً وهي تخطو على أول السلم، وتدعو في سرها أن يكون هذا هو الطريق الصحيح. لم يبق سوى بضع دقائق، ولو فاتها القطار الأخير فكيف تعود لبيت جدها؟ وأين تذهب في هذه الحالة؟ وكيف تقضي الليلة؟ عند منتصف السلم سمعت أصواتاً عالية آتية من خلفها. التفتت تلقائياً، فوجدت أربعة شباب يتصايحون ويتدافعون في أعلى السلم. الأربعة ضخام الجثة يرتدون قمصاناً واسعة عليها أرقام لاعبين بالخط العريض، وسراويلهم تتدلّى تحت الخصر. أحدهم – مفتول العضلات – ويخطو رأسه في منديل أسود كقراصنة الدراجات النارية، والثلاثة الآخرون تتدلّى شعورهم على أكتافهم. نادوا عليها. خاض قلبها و لم ترد. "لم يكن ينقصني إلا هذا!" وضعت يدها تلقائياً على السماعة اليمنى في أذنها كأنما لتنبّههم أنها لا تسمعهم، وحثت الخطى حتى وصلت لنهاية السلم. تسمع نداءات الأربعة، وضحكاتهم الصاخبة من ورائها:

– يا كتكوتة، هل ضللتي الطريق لأمك؟

– تعالي.. سنمنحك توصيلة مجانية.

– تعالي لا تخيفك عضلاتنا، إنه آليف!

تسرع أكثر باتجاه الرصيف. وصلت لحاجز التذاكر. مازالت غير متأكدة من أن هذا هو الرصيف الصحيح، لكنها لم تجد أحداً تسأله أو علامة تدلها، فأخرجت التذكرة ووضعتها في الماكينة، وعبرت الحاجز في نفس اللحظة التي فقد فيها الأربعة فوق الحواجز الأخرى المحيطة بها. تظاهرت بأنها لا تعيرهم انتباهاً، وسارت باتجاه الرصيف والأربعة يسيرون من حولها يتصايحون ويشيرون لها بحركات لا تفهمها. التفتت فوجدت رجلي شرطة آتيان خلف حواجز التذاكر التي عبرتها لتوها. تنفّست الصعداء وعادت مسرعة باتجاههم. عبرت حاجز الخروج وتوجهت إليهما. لم ينتبها أي من الأربعة.

– من فضلك.

لم يرد أي من الشرطيين اللذين كانا يتحدثان. فاقتربت منهما أكثر حتى وقفت أمامهما:

– من فضلك.

نظرا إليها. بدأت تقول لهما إنها ضلت الطريق، وأنها تريد العودة لمحطة بن في نيويورك، وأنها مصرية، وإن هناك شباب يضايقونها، وأنها لا تعرف أين سيقف القطار الأخير القادم، فسارعت أنفاسها واختنق صوتها. ابتسم أحد الشرطيين، وقال لها بلهجة عابثة:

– آنسة: لماذا لا تتمهلين قليلاً حتى تتمالكي نفسك، ثم تقولين لنا ماذا تريدين؟

www.miaana.com-RAYAHEEN

ثم واصل الحديث مع زميله. نظرت ناحية الرصيف. كان الشباب الأربعة واقفين ينظرون لها ويضحكون. صمتت خطة وتنفّست بعمق. قالت لها أمها ذات مرة إن الهدوء أهم شيء في هذه المواقف. استجمعت ما استطاعت من هدوء، وقررت التركيز على الموضوع الأهم. واضح أن الشرطيين لن يأخذاها للبيت. إذن المهم هو العثور على القطار الصحيح، وربما دفعهما لمرافقتها حتى باب القطار.

– أنا تائهة، وأبحث عن القطار الذاهب لمحطة بن جيوبورك. هل يمكنكما مساعدتي؟

– آه، الآن تكلمين كلامًا مفهومًا. تعني هذا هو الرصيف الذي خرجت منه للتو. عودي إلى هناك بسرعة، والتهي لأنّ المحطة أغلقت. فهذا هو آخر قطار يدخل أو يخرج من المحطة اليوم.

– هل يمكنكما مرافقتي؟ أنا خائفة من هؤلاء الأربعة على الرصيف.

– لماذا؟ ماذا فعلوا؟ هل هدّدك أحدهم؟ هل تريدين تحرير شكوى؟

– لا، أريد فقط العودة لبيوبورك، ولكنهم يخيفونني.

– أنا لا أفهم لماذا يخيفونك إن لم يكن أحدٌ منهم قد هدّدك. ألأنهم سود؟

كان الشرطي أسود البشرة.

– أبدًا، لكن حركاتهم وإشاراتهم لي تخيف...

– آسفة! ماذا تقترحين أن نفعل؟ نوفّر لك حراسة خاصة حتى تصلين للبيت!

وهنا اختنق صوتها مرة أخرى في حين تصاعدت الضحكة الآتية من ناحية الرصيف. التفت فشاهدت مقدمة القطار تدخل بداية الرصيف. نظر إليها الشرطيان في مزيج من التعجب والاستخفاف. نظرت إلى الأربعة الذين كانوا يشيرون لها أن تسرع للحاق بالقطار. قبّل القطار بحوار الرصيف، وتوقّف ثم انفتحت أبوابه. تلفتت بين الشرطيين اللذين عاودا المسير وبين الشباب الأربعة، وهرعت نحو القطار. رفض حاجز الذاكرة قبول تذكرتها التي استعملتها منذ دقائق فقفزت بحقيبتها من فوقه دون تفكير، ودخلت ناحية القطار. صفّق لها الشباب الأربعة الذين كانوا مازالوا واقفين يشجّعونها. سمعت أحد الشرطيين ينادي بها مستنكرًا، لكنها كانت قد وصلت لباب القطار ودخلت. دخل ورائها الشباب الأربعة وأغلق الباب، وتحرك القطار بسرعة مثلما جاء.

كانت العربة شبه خاوية فيما عدا الشباب الأربعة الذين جلس ثلاثة منهم حولها ووقف الرابع بجوارهم. مسحت بطرف عينها التراكيب الجالسين بالعربة فلم تجد سوى ثلاثة. في منتصف العربة رجل طاعن في السن زائغ النظرات، يبدو وكأنّ الحياة قد حطّمته بشكل ما. في آخر العربة رجلان في أعمال بارة يجلس كلّ منهما وحده، ويمسك أحدهما بزجاجة في كيس ورقي يحتسي منها رشفة كلّ نصف دقيقة. أخرجت تليفونها بارتباك، واتصلت بجدها مرة أخرى. الجرس يدق. تنظر للشباب بطرف عينها وهي تتظاهر بالثبات، وتهتف الجد العجوز على الرد.

– جدو!

– أهلاً يا سلمى.

– يعني أنا حصلت لي مصايب من ساعة ماكلمتك آخر مرة.

– مصايب مرة واحدة! أنتِ فين؟

قصّت سلمى عليه القصة بسرعة، فطلب منها أن تهدأ، لأن معظم هذه المخاوف أوهام تتراءى للفتاة عندما تكون وحيدة في محطة قطار أو في ضُحية بمجموعة شباب.

– تصرّفي بشكلٍ طبيعي، وسيتصرفوا معك بشكل طبيعي.

– طبيعي؟ لأ، أنت مش قاعد دول مرعبين.

– علشان سود؟

– سود إيه ياجدو! أنا مش متخلفة: دول بجد مرعبين. أنا خايفة قوي.

– ماتخافيش يابنتي. بالألا متبقيش عيلة. كلّها خمس دقايق وتوصلي محطة بن. خدي "تاكسي" وتعالي على طول.

طلبت خالة أمها. دقّ الجرس مرة، وجاء صوت الخالة أميرة:

– أيوة يا حبيبتي أنتِ فين؟ قلقتيني عليكِ؟ أنتِ لسة ماوصلتيش؟

– ظنط أميرة: أنا خايفة!

أخذت أميرة تُهدئها من روعها. بعد لحظات من البكاء والتهنهة استكانت سلمى، وأخبرتها بما يحدث. تشعر على الفور أنها تفهمها؛ لا تحتاج للشرح طالما الليل مع الشرطيين، أو حتى مع جدها. تقول لها أربع شباب ضخام، فتفهم على الفور نوع الخطر. تقول لها إن المحطة مظلمة، فتعرف تمامًا كيف تشعر. نصحتها بأقصى درجات الحذر، فهي لا تعرف ما يريده بها هؤلاء الشباب الذي لا ضابط لهم ولا رادع.

– يعني أعمل إيه؟

– ماتخافيش حد منهم يقرّب ناحيتك. لو حد منهم لمسك اضربيه بأي حاجة معاكي في أكتر مكان حساس تلاقيه قدامك. لا تخافي ولا تتردّدي. اضربيه واصرخي بأعلى صوتك "حريقة" وشدي الإيد الحمرا بتاعة الطوارئ. اعملي كلّ ده في نفس الوقت. وماتخافيش. الباقين حايخافوا ويجروا، دول كلهم جبنا.

– حاضر. لو حد عملي حاجة هاعمل كدة.

– ماتستنيش حد يعملك حاجة يابنتي. لو حد بس حط إيده عليكِ اعملي كدة. لو حسّوا أنك ضعيفة مش حايرحموكِ. الحاجات مافيهاش هدار. لو التردد حاتفضلي طول عمرك تندمي. أنتِ مامعاكيش البخاخة؟

– بخاخة إيه؟

– والله مش عارفه إزاي أبوك وجدك سايبينك تمشي كدة؟

– طيب ياماما ....

ثم مات التليفون. نظرت له وأدركت أن البطارية فرغت، وشعرت بمزيد من القلق. عجلات العربة تهتزّ بشدة، ويصخب صوت القطار وهو يدخل في أنفاق بدت لسلمى غاية في الضيق. الأربعة يتحدثون مع بعضهم ويحدثونها، ويشيرون بأيديهم وأذرعهم بإيقاع متسارع وهي ترقع من صوت الموسيقى في أذنيها. لا تسمع كلّ ما يقولونه، لكنها تميز ألفاظًا نابية وإشارات جنسية من حين لآخر. هكذا رأت هذه الإشارات في الأفلام – عادة قبل أن يهاجم المجرم ضحيته. موسيقى "وسط البلد" انتهت، وحلّت محلها فرقة البلالاك بيز تطنّ في أذنيها، ودموعها تنسكب داخلها هلعًا وهي تتساءل عمّا سيحدث لها الآن: هل سيأخذون نقودها أم الكاميرا أم الحقيبة كلها؟ أم سيخطفونها ويغتصبونها؟ أم سيقتلونها؟ أم سيفعلون ذلك كلّه بهذا الترتيب؟ كان معها نقود كثيرة، حوالي خمسمائة دولار، هي بقية المال الذي أعطاه لها أبوها. حملته معها من نيويورك لوالدتها لكنها لم تحتج لإنفاقه هناك. فكرت أن تعطيهم المبلغ لعلّهم يتركونها في حالها. لكن ماذا لو طلبوا أن معها أكثر؟ يمكن إذن أن تعطيهم الحقيبة كلّها من الأول. ولكن ماذا عن الكاميرا والصّور التي التقطتها خلال الرحلة كلها؟ أتعود لمصر بلا صورة واحدة؟ لن يصدّقها أحد إن قالت لهم إن الصور كلّها قد سُرقت. "لا يهم"، قالت لنفسها: "اللعنة على الصور، وعلى كلّ هذه الرحلة. ماذا أتى بي إلى أمريكا أصلًا؟ لماذا

لم أقضي الأجازة في الساحل الشمالي مع أمي؟ كان عصود على حق حين ثار وغضب منّي. قال لي إن حديثي عن اكتشاف العالم ورؤية أمريكا، والثقافة المختلفة محض هراء، وإنه كان يجب أن أنتظر حتى تسافر سوزي أنا وهو؛ ثم سألني إن كانت أمي تؤيد سفري أم أنها فكرة الأب؟ لم أرد. قال لي إنه لو كان مكان أبي ماترك ابنته تسافر وحدها.

ربما لم يكن لبي ليتركني، لكنّي تعلّقت بالفكرة عندما ذكرها جدي لأمي في التليفون، وألححت عليها وعليه حتى وافقا. ماذا لو حاول هؤلاء الوحوش اختصابي الآن؟ لن يوقفهم أحد من هؤلاء، الثلاثة الجالسون في نهاية العربة: هم بالكاد يتمالكون أنفسهم. هل أستطيع مقاومتهم لو هجموا عليّ؟ ربما لو فعلت ما قالته طيط المرة وضربت واحدًا منهم بشدة في مكان حساس لخاف الآخرون وانصرفوا لكن ماذا لو لم ينصرفوا؟ ماذا لو كانوا يعبثون وليس في نيتهم أن يفعلوا بي شيئًا حقيقيًا؟ ربما يستعلّون ضعفي أو يريدون إخافتي. ماذا لو هجموا عليّ وفيدوني قبل أن يفعلوا بي شيئًا؟ قالت لي أمي ذات مرة إن البنت لا يمكن اغتصابها لو قاومت بشدة، بمجرد أن تضم عضلاتها بشدّة وترفض. لكن ماذا لو ضربوني حتى أفقد السيطرة على عضلاتي؟ ماذا لو فعلوا شيئًا يجعل عضلاتي تنفك من تلقاء نفسها؟ كيف لي أن أعرف ما يمكن أن يفعله بي هؤلاء؟ لابد وأنهم يعرفون طرقًا لجعل البنت تستسلم. هل أستسلم أفضل من البداية؟ إذا كانوا سيغتصبونني في كلّ حال، ألا يكون من الأفضل أن أفعل ذلك طواعية – ربما لا يؤذونني عندها؟ ربما يمكنني أن أغرر بهم وأتظاهر بالموافقة، كي أكسب وقتًا حتى تسنح لي فرصة للهرب.

ولكن لو فعلت ذلك ثم لم أستطع الهرب، فماذا يحصل هنا؟ أليس من الأفضل أن أقاوم؟ على الأقل أكون قد حاولت. كيف لواحد أعلى وأصدقائي بعد ذلك؟ ماذا سيكون ردّ فعل أبي؟ ربما سيواسيني ويقول لي إنها تجربة يجب أن أتعلّم منها! ماذا سيقول ضابط أميرة وزوجها اللذان استنكرا سفري لواشنطن وحدي؟ يالبتني سمعت كلامهما.

ومحمود: هل سيقبل بي بعد هذا أم سيتركني؟ وحتى لو لم يتركني، كيف أظلّ آمنا معه وأنا أعلم فيم يفكر؟ وصديقاتي بالجامعة: ماذا سيقلن عني من وراء ظهري؟ لا، لا أستطيع أن أعيش بعد ذلك، خير لي أن أقاومهم حتى يقتلوني".

يعوس فيها أكثر مع كلّ ثانية تمر، وتشعر بضعفها أكثر، وتريد أن تنهار باكية، وأن ترجوهم أن يتركوها تذهب في حال سبيلها. لكنّها تتظاهر بالثبات وتنظر أمامها وكأنهم غير موجودين. وهم يهتاجون أكثر إزاء تجاهلها لهم، ويتحوّل مزحهم لضيق ثم غضب. تدعو الله في سرها ألاّ يلمسها أحد. وضع واحد منهم يده على حقيبتها فوجهت له نظرة حادة تظاهر بالخوف ساخرًا. تدعو ألا يلمسها. لو لمسها ماذا ستفعل؟ هل ستضربه فعلاً؟ هل ستقوى؟ لم تقوّت أول مرة. لكنّها لو قوّتت أول مرة سيتمادى، وبعدها سيفوت الوقت. هذا ما قالته ضابط أميرة. تدعو الله ألاّ يلمسها وهي تضع يدها في جيب المعطف، وتمسك بقلمها وكأنه سكين.

أبقت يدها في جيبها. القطار يقترب من محطة ما ليست متأكدة أنها

"بن نيويورك". نظرت بطرف عينها لرصيف المحطة في حين تحرك ناسيتها مفتول العضلات فجأة، ووضع ذراعه حول كتفها وقبّلها عنوة في أذنها لم تسمعه. تراجعت بكتفها لكنّه أحكم قبضته عليها. لم يعد هناك مجال للشك. لابد أن تفعل شيئًا وفورًا. اقترب بوجهه من وجهها فأخرجت يدها من جيبها، وبقوة غضبها وخوفها معًا غرست القلم في وجهه، لا تدري أين استقرّ على وجه التحديد. دخل القطار المحطة في نفس اللحظة التي صرخ فيها الفتى وهوى على الأرض ممسكًا بوجهه، ولمحت دمًا ينبثق. الثلاثة الآخرون ينظرون لزميلهم الواقع على الأرض في مزيج من البلاهة والصدمة. قفزت من باب القطار الذي انفتح وجرت، وهي تردد لاسم المحطة: ليست "بن نيويورك". جرت على الرصيف وحدها، ثم سمعتهم يصرخون ويسبونها. سمعت صوت إنذار إغلاق الباب فقفزت داخل العربة التي وجدتها بجانبها، وانغلق الباب قبل أن يصل الأربعة إليها. أخذوا يدقّون على زجاج الباب بصوت عالٍ ويتوعّدونها والفتى الجريح يضع يده على عينه، ويغطي الدم وجهه. نظرت إليهم والدموع تصعد لعينيها، ووددت لو استطاعت ركلهم في بطونهم حتى يسقطون لثمًا. أشارت لهم بإصبعها بالحركة البذيئة الوحيدة التي تعرفها، وهي واقفة بينها وبينهم زجاج نافذة القطار. تسمع وعيدهم وسبابهم من خلال النافذة المفتوحة. مدّت يدها تحاول إغلاق الشرّاعة، وفي نفس اللحظة شعرت بشيء حاد يشقّ وجهها، ولمحت نصلاً يلمع ويتمكس لمعانه في زجاج النافذة. طوى القطار المحطة وهي تنظر نحو الفتى الواقف على الرصيف، ونصله مُدلّى إلى جانبه، واثنان من أصدقائه يجرّان زميلهما الجريح خلفه.

www.miazna.com-RAYAHEEN

لن تنسى هذا المشهد بقية حياتها. مدّت يدها في تردّد نحو الجرح في وجهها، وهي تخاف أن تنظر في زجاج النافذة. دخل القطار في نفق مظلم آخر. الدم يعطي حدها: تشعر به ثريًا ثقيلاً ودافئًا يكسو وجهها شيئًا فشيئًا. مسحته بطرف كمها دون تفكير، وحاولت تبين الخريطة المرسومة على أحد جوانب القطار. محطة بن بوبيورك هي القادمة. العربة خالية من الركاب تمامًا. جلست والكمشت في مقعدها تنظر من النافذة لجدار النفق، ثم للفضاء بلا هدف وهي تحاول تجاهل الدم السائل من وجهها، لكن تدفّق الدم يزداد. هدأ القطار من سرعته ودخل المحطة. بدت بالفعة كبيرة تعلن "محطة بن". قامت بسرعة فشعرت بدوار. استندت للعامود المعدني المجاور للباب. توقّف القطار، فخرجت الرصيف على الفور، وبدأت تركض ناحية الصالة الرئيسية.

تحرك القطار وتركها هو لوراء، لكنّها لم تعد تشعر بغيطة أو بغضب، فقط بدوار يزداد. خال بخاطرها أن الساعة تشرف ولابد على منتصف الليل، وأنها ستبلغ الآن الواحدة والعشرين، ذلك السنّ السحري الذي كانت لا تصدّق أنها يمكن أن تبلغه في يوم من الأيام. ربما كانت محقّة وأن تبلغها ستسقط الآن من الدوار، ومن هذا النزيف الذي لا يتوقف. قوّاها لتدور بسرعة، ولا تعرف ماذا سيحدث لها بعد هذه اللحظة. ربما أمكنها التوقّف عن الركض، والعثور على تليفون والاتصال بجدها، أو بالخالة أميرة، لكنّهما لن يسعفهما الوقت ليأتيا. ستسقط الآن ولا ريب، ربما فوق الفضاء أو بجوار القطار الواقف أو على الأرض. وسيلتقطها بحرم ما ويقطّعها إربًا ويبعها الحشاش، وربما يلتهمها قبل ذلك. هذه هي النهاية إذًا.

أتت كلّ هذه المسافة كي تنتهي هنا، جثّة ملقاة على رصيف محطة "بن" في الواحدة والعشرين. توقّفت عن الركض، أو هكذا خُيّل لها، وحاولت النظر كي تجد مكان الخروج، لكنّها لا ترى سوى أشكالاً هائمة وأضواء متباينة. ثوانٍ ثم خامت الدنيا في عينيها، وسقطت على الأرض.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^